

مختار من أشعاره

١



لؤي
لأيام التالفة
فمن جرائد لم تقرأ
فوشوك يصل إلى القمر



الأعمال الكاملة

١

مجيد طوبيا

■ الوليف

■ الأيام التالية

■ خمس جرائد لم تُقرأ

■ فوستوك يصل إلى القمر

قصص قصيرة



بيروت: دار النشر

١٩٩٢



الوليف

الوليف

● العضلات :

قرب مصنع السكر وعلى شاطئ التربة والشمس تميل الى المقيب جلس الصبية يتسامرون ، ليس بينهم غير بنت واحدة وهى نرجس ، تنصت ولا تجرؤ على المشاركة فى الكلام ، اذ كان الحديث يدور حول عضلات الرياضيين التى تبرز لهم من المران فى الذراعين والساقين وفى جانبى الصدر .

ضحك الولد ذو السنة المكسورة مشمرا عن كفه مثنيا ذراعه اليمنى زاعما ان فيها عضلات قوية ، وفعل مثله الجالس الى يساره ثم ثلاثة آخرون وكذلك أقصرهم ، فتعالت الضحكات الساخرة المنكرة .. وبعد ان سكتوا قال بدر - أطولهم - وهو يحملق فى عيونهم ان له عضلات كبيرة فى صدره وساعديه ، فسكتوا على مضض ولم يجرؤ أحدهم على الاعتراض ؛ عدا منيدور الذى تحسس موضع هذه العضلات وقبل ان يعلن تكذيبه لوجودها كانت نرجس قد شممت عن كفه لترى ما لديها ، فضحكوا منها لأن البنات لا تنبت لهن عضلات .

لم يعجب الحال مندورا ، نهض وخلق جلبابه وقفز الى
الترعة سابحا الى الضفة الأخرى ، وتبعه اثنان آخران ، ثم
نرجس التى لحقت بهم فرأى مندور فى صدرها بروزين خفيفين
ظن انهما عضلات ، وغازه الا يملك مثلهما ، فوجد كفه فجأة
تجلب شعورها بسرعة وفى عنف صامت ، فلما تعثرت تركها
تقع وخرج يرتدى جلبابه وانصرف والبنت تبكى وهى لا تفهم
لماذا فعل بها ذلك !

● الكباش :

مضى عابرا شريط القطار مخترقا أرض الكلا قرب أبراج
الكهرباء الشاهقة . عند اصنام الفراعنة رأى ماعز الغجر وكباشهم
فظل يلعبها ويحاورها حتى شبع لها ، فعاد الى داره مع أول
الليل متوقعا لوم أمه لاتساخ ملابسه .

وقبل ان ينام تأمل السماء من نافذة الغرفة ، اختار أنصع
النجوم وقال هذه نجمتى . . وفى اليوم التالى كان قد نسي
ما فعله مع نرجس ، لكنها لم تكن قد نسيت اذ جفلت مبتعدة
عنه مقتربة من بدر ، ولم يعجبه هذا ، وفكر فى السباحة لكنه
سمع قطار القصب الطويل يقترب بطيئا كعادته ، فجرى نحوه
وما أن بدأت عرباته فى المرور امامه حتى تسلق الرابعة وصعد
فوق حمولتها ، رآه بدر فلحق به وظلا يتسابقان فوق القصب
فى عكس سير القطار قافزين من عربة الى أخرى حتى وضا
الى الأخيرة فسحب كل منهما عودا ووثبا على الأرض .

كسر مندور عوده نصفين وتقدم من نرجس يريد أن يهديها
النصف الأسفل الأظلم مذاقا ، لكنها تراجعت خائفة وقد برأت

نصف العود في يده كالعصا ، واتجهت الى بدر الذي قدم لها
نصف عوده فأخذه .. نهرها مندور مغتاطا بحجة تمحكها في
الأولاد وأمرها بأن تنصرف لتلعب مع البنات أمثالها ، لكن بدر
جذبها من يدها فجلست معه وراحا يمسان القصب ..
وأعطاهما مندور ظهره وجلس يمص عوده والضفادع تنق من
حولهم ، وبعد أن انتهى غسل كفيه في مياه التربة ومضى عائدا ،
وفي طريقه تجاهل كباش الفجر وراح الى منزله رأسا فلم
تسخ ملابسه ولم تؤنبه أمه .. ثم استلقى على سريره يتأمل
نجمته الناصعة ، وبعد أن نام جاءت أمه وأغلقت النافذة خوفا
عليه من برد الليل .

● الثعبان :

في الصباح طلبت منه والدته ان يطعم الطيور فوق سطح
الدار ، صعد اليها وألقى فولا وذرة للدجاج ، وقمحا مدشوشا
للكناكيت وكان يحب أن يطعمها من كفه ، وكان يعرف عددها
فاكتشف نقص أحداها ، بحث عنه في داخل الأقفاص وفي أركان
السطح ولم يجده ظن أن الحداة قد خطفته لكنه سمع صوصوة
خافتة عند السور القبلي ، ووجد الكتكوت هناك ملتصقا بطوبة
يجاهد في الابتعاد دون جدوى ! .. اقترب منه فاكتشف ان
جناحه الأيسر محشور في أحد الشقوق ، مد يده يجذبه وأدهشه
أن يجد مقاومة لجذبه ، شدد الجذب فانسحب الكتكوت معه
مسافة فاذا به يفاجأ بثعبان ممسكا بالجناح وكان يحاول جر
الكتكوت الى جحره ! .

بسرعة التقط مندور قطعة خشب هبط بها فوق رأس
الثعبان - وكان قد رأى رجلا يفعل مثل هذا مع ثعبان آخر -

وظل يضغط ويشدد الضغط حتى كف الثعبان عن الحركة ..
وعندئذ فحص كتكوته فوجده قد مات ، وأحزنه موته .. لكنه
رفع الثعبان متديا بنصف جسده فوق الخشبة وهبط به
الى أمه !

صعقت المرأة وأخذت تتحسس جسده ملهوفة ، وهى
تسأله ان كان الثعبان قد لدغه فى قدمه أو فى أى مكان آخر ونفى
ذلك فى هدوء الواثق ، فقبلته فى كل وجهه والتقطت الثعبان
وألقت به من النافذة الى الحارة .. تساءلت الجارات فتفاخرت
أمامهن بأن مندور الشجاع قد قتل الثعبان دون خوف ونقلت
الجارات القريبات الحكاية الى الجارات البعيدات .. ومن
هذا الاهتمام أدرك الصبى انه قد أتى بعمل مدهش ، فانتعش
سعيدا مزهوا ، وهبط الى الحارة مختالا ليجد الجارة بهانة
تخطو فوق ثعبانه رائحة آتية عدة مرات ! .. تعجب ونظر الى
أمه متسائلا فلم يجدها بالنافذة ، صعد اليها ووجدها بالمطبخ
وسألها عن سلوك الجارة بهانة ، قالت :

— لأن المسكينة عاقر .

نظر محتارا .. قالت :

— العاقر هى المرأة التى لا تلد .

— وهل خطوها هذا بجعلها تلد ؟ !

— هكذا قال الاسلاف .

ولم يكن يعرف ان لثعبانه كل هذه القوة ، وأراد الانصراف
لكن الأم احتجزته حتى أشعلت القوالح وأطلقت البخور ، وطلبت
منه أن يخطو من فوقه سبع مرات ، هتف معترضا :

— لكنى لا أريد أن ألد .

ضحكت :

— الثعبان ، والفرعون أيضا لجلب الحبل ، أما هذه
البخور فهي ترد الحسد .

● الشـجـاع :

طاوعها على مضض كى ينطلق الى أصحابه ، شاعرا بقوة
غير عادية وباقدام لا حد له وبانه قادر على طرح أقوى الصبية
أرضا .. وعند مصنع السكر لم يجدهم وأدرك انه وصل
مبكرا ، فأخذ يتأمل أبراج الكهرباء الشاهقة واللمبات الحمراء
المضاءة ليلا ونهارا فوق قممها ، وواعد نفسه بأن يطلب من أبيه
لمبة مثلها يركبها فوق سريره .

ثم تذكر ثعبانه فركض عائدا الى الحارة باحثا عنه وكان
يريد أن يريه لأقرانه ، لكنه لم يجده وعلم أن سيد الاسكافي قد
سلخه وأخذ جلده وألقى بالباقي للقطط .. وفوق باب الاسكافي
وجد الجلد مشدودا بأربعة مسامير ، فشعر بالأسى وسار مطرقا
لكنه تنبه الى أن الجلد هو خير دليل على عمله الخارق ، فشد
من طوله وأخذ شهيقا عميقا ورفع رأسه وسار يدق الأرض
بقوة ، الى أن صادفه ثلاثة من أصحابه ثم لحق بهم عند أطراف
البلدة اثنان آخران ، وبدأ الشمل يكتمل ، ووجدهم جميعا
يعرفون .

عندما عبروا من جوار ماعز الفجر هجم فجأة على أكبر
الكباش والقاء أرضا ، غير أن الكبش نهض بسرعة وكاد أن ينطحه

لولا أنه تفاداه . وعند مصنع السكر انضم اليهم بدر ثم نرجس
التي رمت مندور طوبلا ، وطلبوا منه أن يحكى الواقعة بالتفصيل
فحكاهم لهم وهم مشدوهين مبهورين بفعلته ، وسألوه عن طول
الثعبان فبالغ فيه .. وسأله الولد ذو السنة المكسورة من كثرة
اكل الجلاب :

- ألم تخف ؟ !

قال :

- لم أخف .

شعر بدر بالفيرة وقال :

- أنا أيضا قتلت ثعبانا .

لكن احدا لم يعرفه التفاتا ، وتزحزحت نرجس من جواره
مقتربة من مندور ، وعندما شعر بها تكاد تلتصق به نظر اليها
فابتسمت له لكنه لم يتسم وان كان قد شعر بالراحة ..

● الوليف :

هبطت الشمس كثيرا وعلا تقيق الضفادع ، وقال صبي :
ان جلد الثعبان يباع غاليا فتضايق مندور لفقدانه .. ولما دخل
الليل انتقلوا الى الضوء الساقط من سور المصنع .

وقال صبي :

- سمعت عمى ذات مرة يقول لأبى ان لكل ثعبان وليفا .

- وليف ؟ !

- وليف ينتقم له اذا قتله انسان .

نظروا لمندور ، ارتبك لكنه سأل :

— وكيف يعرف الوليف هذا الانسان ما دام لم يره ؟ !

— قال عمى ان الوليف يتعرف على القبباتل ولو بعد سنوات . وحكى عن وليف ظل يتشمم ثلاثة اشخاص نائمين فى غرفة واحدة دون أن يمسه بأذى ، حتى وصل الى الرابع وكان هو القاتل فلدغه وهرب .

برقت عيون الصبية واقشعرت ابدانهم ، نظرت نرجس الى مندور الذى ظل صامتا .. وفجأة تلفت أحدهم محملاً الى بقعة مظلمة ، وارتفع من بعيد عواء طويل .. ثم روى بدن ما سمعه من أن فم الثعبان له نابان مثقوبان كأبرة الحقنة يدخل السم منهما الى جسد الملدوغ فيموت .. ورغم ضجيج المصنع الا أنهم سمعوا حفيفاً خافتاً صادراً من الحشائش القريبة ، فحملقوا جميعهم وكموا أنفاسهم ، وبعد برهة رأوا ضفدعا يقفز بين العشب فاسترخوا لكن التوتر ظل يسيطر .. وتساءل مندور فى داخله ان كان بإمكان وليف ثعبانه أن يكتشف مكانه وهو بعيد عن الدار ؟ !

حدث حفيف آخر فوجموا متوجسين ثم قفز صبي من مكانه بغتة ، وهبوا جميعهم أيضاً والتصقت البنت بمندور وكأنه هو الكفيل بحمايتها من الثعابين .. وانفضت الجلسة وهروا عائدين الى ديارهم بخطوات خائفة ليتكأ مندور عنهم فوق الطريق الأسفلتى .. فلما وصل الى داره وجد نرجس تحوم ، راته فجاءت وتمسحت فيه بابتسامة ودودة ، لكنه لم يكن رائقاً فتجاهلها صاعداً ، ليستقبله والده مهللاً فى أعزاز :

.. هذا هو ولدى الهمام مندور .

● الانكماش :

الا ان الصبي سآله :

ـ احقا ان لكل شعبان وليفا يأخذ بشاره ؟

بهت الأب وآخذ يطمئن ولده منكرا وجود الوليف ، لكن الأم هبت مرتجفة معيدة اشعال القوالخ ثم طافت أرجاء الدار ببخور الشيخ النفاذة .. ومع العشاء سألها مندور عن السر فى هذا البخور ، قالت :

ـ لأن رائحة الشيخ تطرد الشعاين .

وعلى الفور عاد الخوف يملأ قلبه ، اذن فحكاية الوليف حقيقة !!

ولم يتناول عشاءه جيدا .. وعندما استلقى على السرير لم ينظر الى نجمة السماء وكانت أقل نصوعا بسبب اتساع القمر ، بل ظل محمقا الى حواف النافذة قلقا من أن يأتيه الوليف منها ، فاتحا عينيه على آخرهما مقاوما النوم .. لكن النفاس غلبه وغفلت عيناه وقتا ثم سرعان ما هب مدعورا صارخا وقد شعر بشيء أملس يلمسه ، وثب الى الأرض وظل يتقافز فى مكانه مرعوبا .

اتته أمه ملهوفة وأضاءت النور وأخذته فى حضنها فشعرت بجميع جسده يرتعش ، وجاءه والده وظل يقنعه بان ما شعر به ليس الا توهما ، وكى يطمئنه فحضر امامه كل مكان فى الغرفة ،

لكن الخوف أزاغ عيني الصبي ، ولم تجد معه أوصاف الشجاعة
والجراحة ولا اغلاق شيش النافذة وزجاجها .. فزاد حزن الأب
وركبه الكمد ، وزاد جزع الأم وقررت ان تبיתה الى جوارها ،
فنام الأب في سرير الابن ، وذهب مندور الى سرير امه حيث
تكور منكمشا في حضنها ، وهي تربت عليه في حنان شاعرة
برجفات جسده المنكمش .

اغماض العين

١ - الغريبال

ولما كان اليوم السابع - وفيه تناثرت بللورات الملح في الهواء ، تحرق عين الحسود - جاءوا بالغريبال فوق الأرض ، وفوق الغريبال فرشوا حبات الفول لتسد الثقوب بين الأوتار ، ومن فوق الفول نثروا حبات الأذرة الصفراء ، ومن فوقها القمح والأرز والشعير ، وقرب الحافة الدائرية بعض الحلوى في أغلفة براقّة من لون الذهب ولون الفضة .

خرجت أمى من غرفتها ، بالوليد في حضنها ، حافية القدمين ، ناعمة الخطوة ، في رائحة عطرية وثوب جميل ، ينساب شعرها في خصلات سوداء تاهت فيها الشعرات البيض القليلة . اهتزت كل الألسنة في الأفواه ، بالدعاء ، بالزغاريد ، نساء وبنات وبعض الرجال . . ضحك أبى . احمر وجه أمى فتحول لونه القمحي الى لون نحاسي ، ضوى تحت نور الصباح فاخفت كل التجاعيد ، وصار وجهها أخذاً في جمال نادر ، هادئ قرير كوجه مريم في صور المسيحيين .

بين هالة الحبوب والخطوى تركت أمى أخى الوليد فوق
القربال ، لم تتركه بنظراتها .. واذا ذلك دقت امرأة بالهون
النحاسى ، ونقرت فتاة بغطاءى وعاءين ، وارتفعت الزغاريد من
كل الأفواه ، وصار الصوت صخباً وضجيجاً .

بعد أن تنبه الوليد الى كل ذلك ، ونظر الى الهون والى
النساء والبنات الأبنكار ، وضع أصبعه فى فمه وغرغر برهة ،
وصار يركل الهواء بقدميه . ثم فجأة ابتسم فابتسمت أمى ،
وفجأة قطع ابتسامته فوجمت أمى وقطف لونها وحملت حولها ،
وعلى الفور ركبها زعر عظيم : كانت عيون النسوة تتسع
مجدوبة فى الحاح الى الجسد الصغير ، حيث الوليد ملفوفاً فى
بياض من حرير ، بطن قدميه فى رقة خديه ، يضاوى الوجه ،
مسحوب الذقن ، دقيق الفم صغير الأنف ، لكن عينيه واسعتان
بشكل غير مألوف ، بأهداب طويلة سوداء وجفون تنسدل فى
بطء ثم تتهاذى منفرجة كاشفة عن دائرتين فى لون مبهم !!

نقلت المدرسة القصيرة مكانها عدة مرات ثم هتفت :
- عجيبة عيونه عجيبة !! من هناك رايتها عسلىة ومن
هنا أراها سوداء !

قالت الجارة ، وكانت أمى تنفر منها :

- ومن هنا بنية !!

قالت الجدة ولم يكن طقم الأسنان فى فمها :

- عيونه فيها من كل ذلك ، عجيب هذا الولد !!

فقالت الجارة التى تنفر منها أمى :

— ولدت من الأطفال سبعة ، وأبدا لم أر مثل ذلك ،
لا فيمن ولدت ولا فيمن رايت !!

تقلقلت عينا أمى واسود وجهها . أخرجت نظارتها من
جيبها وتبتتها ، دقت النظر الى الوليد ثم الى عيون النسوة ،
ونوقفت على عيني الجارة وصرخت :

— الملح . انثروا الملح .

اعترضت الجدة :

— ليس الآن .

ثم حملت الوليد فوق غربال الحبوب ، من فوق كفيها ،
ممدودة اليدين ، تسند حافته بذقنها . انحسرت الطرجة
البرتقالية فبان شعرها الأبيض القصير . وكان وجهها خيوطا
غائرة من حول الفم ومن حول العينين وفي الخدين والجبهة ،
وشعيرات رهيقة نابثة تحت الأنف وفوق الذقن .

لكن أمى رأت عيون الجميع لا تفادى الطفل . ارتعش رأسها
فبان كل تجاعيدها ورايت نور الصباح يلمع فوق شعراتها
البيض . عادت تصرخ :

— قلت الملح . !ين الملح ؟ احرقوا به عين الحسود .

تناثرت البلورات في الهواء ، برقت تحت ضوء الشمس ،
تساقطت فوق الرءوس وبين الأرجل ، اصطكت مع زجاج
النافذة المفتوحة ، تطاير بعضه خارجا وسقط الى مياه النيل
أسفل دارنا .

وبعد الملح أشعلوا الشموع الطويلة ، وطاف بها طابور
الأطفال المنشدين من خلف الجدة ، هبطوا الى الطابق المعتم
فتلألاً ، صعدوا الى سطح الدار فعاكس الهواء لهبها ، وبهت
نورها في نور الشمس .. وذعر البط والدجاج ، ومدت الأوزة
البيضاء عنقها وكاكت .

ساروا في محاذاة السور الشرقى ، فجاء تل المقطم من
خلفهم ممتدا على الضفة الأخرى ، في بطن صخوره توجد قبور
موتانا .. وتساقط الملح مرة ثانية الى النهر .

استداروا الى السور البحرى فأطلوا على حقل القصب
الكبير الذى لم يعد به قصب ، والذى يتحول الى بيوت زاهية
الألوان يسكنها الأثرياء وكبار الموظفين .

وبعد السور البحرى جاء السور الغربى ، ومن أسفله ديار
الأهالى باهتة كالحة ، والشوارع ضيقة مكتظة تسير السيارات
فيها بسرعة المشاة ، وفي أقصى كل ذلك الشريط الحديدى يحصر
المدينة بينه وبين النيل .

ثم اتجهوا الى السور القبلى والبيوت تمتد في القدم ، الحى
العتيق المتلاصق المتداخل ، وديار الأجداد القرييين تتساند
بيوتهم ويتساقط الصف منها يتساقط احداها ، ومن بعدها
أرض الكلا وخيام الفجر واغنامهم ، ثم أصنام الفراعنة البعيدين،
يأكل الماعز الكلا ثم يلهو قافزا فوق صخور المعبد .

طافوا السطح سبع مرات ، في انشاد مستمر ، وملأت
حبّات الملح أرض السطح فبرقت وتلألأت ، في البداية جرت

الطيور والتقطت بعضها ثم كفت عن ذلك ، وصاحت الأوزة
البيضاء وصاح البط عند الأقدام بصوت مزعج ، واختلط كل
ذلك مع انشاد الأطفال . وفي النهاية أطفأ الهواء كل الشموع .

وكان الوليد قد نام فتلقفته أمي وخبأته في صدرها ، ثم
اختبأت به في غرفتها .. ورعت الجد الحاضرين وضايقتهم ،
واكلوا جميعا أرزا باللبن .

ثم حدث بعد انصرافهم ان خرجت أمي من الغرفة ،
واصرت على تبخير الدار .. كان صوتها جافا مرتعشا ، ومازال
شحبها يزداد ووجهها يمتقع . قالت لأبي :

— هل لاحظت نظرات تلك الجارة اليه ؟؟

ضحك وقال ان هذا الكلام لا يليق بناظرة يروضة
الأطفال ! .. ومن فورها أعطته ظهرها متقدمة نحو باب الشرفة ،
وقالت :

— دعك من مهنتي . هل نسيت الشوطة التي جاءت
للأرناب عام أول ؟؟

نظرت الجارة الى الأرناب العديدة فوق السطح ، وهتفت :
يا لكثرتهم !! .. وبعد ذلك بأسبوع ماتت الأرنبة الجدة ، وفي
الصباح التالي ماتت الأرنبة السوداء والأرنب الأبيض المبقع
بالأسود ، ثم مرضت الأرنبة ذات اللون الأجرب والتي كنت أحبها
وأطعمها كثيرا من يدي ، وماتت في المساء فالقيتها الى النيل
(ووبخني أبي من أجل ذلك) .. ولم تمض الا أيام حتى لم يكن

بالسطح عدا أربعة لحقتهم أمى بالسكين ، ورفضت أنا إن أذوق
لحمها .. ومن يومها صارت أمى وجدتى تنفران من الجارة ،
وتتشاءمان من زيارتها لنا .

قالت أمى :

— هل نسيت هذه الشوطة ؟ !

ولما سخر أبى من كل ذلك نهزته الجدة فى حدة ، وصارت
تضم الشال البرتقالى من حول رأسها .

٢ — المناجاة

فى الفجر المبكر تصعد الشمس واهنة من خلف الجبل
الصخرى ، وما أن تتركه بغدة أمتار حتى تكون قد حمت
واشتدت وزاد سطوعها ، وفور غروبها يدخل اليوم فى لحظات
مبهمة من تداخل الليل على النهار ؟ ثم يقترب الجبل من السواد،
حتى يسيح تماما فى كل ما حوله ، ويأخذ لون السماء ولون
الأرض ولون النهر ، الى أن يبرز القمر متسللا من ورائه فيحدد
منحنيات قمته .

طلع القمر كامل الاستدارة ، بدرا شديد النضوج ، ففادرت
جدتى الشرفة ، مؤمنة بأن اطالة القعود فى طلعه تصيب
الانسان بلطشة فى العقل .

انارت اشعة البدر قمم الموجات بلألأة فضية ، وصبغت
جلباب والدى الأبيض بزرقة باهتة ، واذابت التجاعيد فى وجه
أمى فعاد لون النعومة الى بشرتها ، وصار شعرها رماديا
غامقا ، ولم تكن تشعر به أو بنا ، مشغولة بوليدها النائم فى

حجرها ، يفرغر في صوت عذب ، فترعش له ساقها من تحته
في هزات رتيبة .

وكان والدى هائما ووجهه شرقا الى جبل الضفة البعيدة .
ركن سيجارته فوق سور الشرفة ، فأزاحها الهواء الى النيل
(وسمعتها تنطفئ) . كان الوقت فيضانا وفيه تغلو مياه النيل
فتغرق جزر التحاريق من وسطه ، وتقرب موجاته من رصيف
الشارع ، وتظل تضرب جدار دارنا في حركة دعوب .

كنت مستلقيا فوق شلثة جدتي ارقب استدارة القمر
وتناثر النجوم - يقظان نعلان - والسكون والصمت في كل
مكان الا من نقيق الضفادع الرتيب ووشيش المريجات المتصل
الخافت ، لذلك كنت اسمع مناجاة امي للرضيع ، في همسات
غير مالوفة ، تلاغيه :

- ايها الابن الحبيب ، حبك في قلبي حار وعظيم ، انت
شمس نهاري ودفتها ، بدر ليلي ونجومها ، انت مولدى الجديد ،
خلصت حياتي من الظما ، انت نيلي ، ترويني .

وكانت حافة ثوبها تتحرك قريبة من الأرض صعودا وهبوطا
في خفة مع هزة سافيا ، وكانت بهمس في ترتيل حنون :

- ايها الابن العزيز الذى لا شبيه له ، من اجلك ترقزق
عصافير الفجر ، وتشدو البلابل عند العصر ، وتصمت الدنيا
بعد الغروب ، انت جميل بدبع ، أدفأت قلبي ، فصار لا ينبض
الا من جمالك .

وكان نصف جذعها الأعلى حانيا فوقه ، وكان البدر يحيط
راسها بهالة قمرية :

— أيها الابن الرضيع الذى به سررت ، جئتنى والمشيبي
يدخل شعري ، وكنت أغلق رجلي وكنت أجفف ثديي — أيها
الابن الذى لا مثيل لعينييه — وكنت نسيت الحمل والارضاع ..
أنت فريد حتى في موعد قدومك .

٣ — البخور

ليلة السبوع كان القمر في نصف استدارته ، وفي صباحه
التالى عقلت أمي أعلى باب الدار فردة حذاء طفل قديمة ؛
قالت :

— كيما تخطو إلينا أقدام السعد .

وهز أبي كتفيه .. وجاءتها إحدى الجارات للزيارة وحيث
المولود بزغرودة طويلة . ابتسمت أمي في غير ارتياح . وتحت
الحاح الجارة أحضرت لها الوليد لتقبله ، ولما اطالت النظر
إليه اختطفته وأدخلته الغرفة .. ثم قامت — عقب انصراف
المرأة — باطلاق البخور وطافت بطبق الجمر في غرفة الضيافة
وفي غرفة النوم ، ثم أدارته من فوق الوليد سبع دورات .

وقبل الليلة التى كان القمر يستدير فيها عقلت بعض
سنابل القمح أعلى الباب وقالت :

— وهذا يجلب الرزق والخير .

وجاءها ثلاث مدرسات للتهنئة . وكلهن يحملن بعض
الهدايا : مع واحدة ملابس أطفال ، قبلته وقالت :

— جماله فلتة !

ومع النابتة ، أبة حلوى مزر كشة الألوان . حماقت مبهورة ،
وهمست :

— هاتان عينا ساحر !!

والثالثة وضعت قرب بده لعبة تصدر أصواتا عالية
وقالت :

— سوف يكون معبودا من البنات ، مرهوبا من الفتيان .
فشكرتهن أمى على مضى ، وتحدثن عن مستوى التعليم
الهابط وعن سفن الفضاء وغلاء المعيشة وأمور عديدة .

وتكررت الزيارات وتكرر تصاعد البخور ، ولما قال أبى
انها ستتسبب فى ارتفاع أسعاره ، تجاهلت المزحة والمحت الى
ازدياد عدد الزائرات منذ يوم السبوع ، قالت بأن هذا لم
يكن يحدث من قبل . دهش والدى وقال :

— لأنك ببساطة حديثة الولادة .. ومن قبل لم تكونى
كذلك .

لم نقتنع . قال :

— والسبب أيضا أن معظمهن مدرسات تحت نظارتك .
قالت :

— انما السبب هو جمال المولود المدهش .

أصرت :

— سوف يحسدنه .

ضحك :

— يا لضيعة التعليم !!

ثم جاءت الليلة التي انتصف فيها القمر ، وفيها زارتنا
الجارة التي تكرهها جدتي ولا تحبها أمي ، وجلست طويلا
وشربت الشاي ، ثم طلبت احضار الوليد لالقاء نظرة اليه ، لكن
أمي قالت في هدوء انه في بيت جده (وكان من حسن حظها انه
لم يبك في مهده طوال مدة الزيارة) .. ورغم ان الجارة لم تره
الا ان البخور ملأ جو الدار .

وجاء ضيف مع زوجته — وكان ذلك قبل أن يصير القمر
هلالا — ورحب بهما أبي ترحيبا شديدا ، بالمثل فعلت أمي ..
وكانت جلسة ذكريات بينهم ، سخروا بعدها من كل الأجيال
الجديدة ، ثم قالت المرأة وأظن أن اسمها هانم :

— سمعنا عن طفل تحكى عنه البلدة ، فجئنا نباركه وجئنا
نمتع الأنظار .

فاهتز جذع أمي يمينا ويسارا تندب وتنوح في همهمات
غريبة .

وجمت مع الجميع ، وبتر أبي ضحكته . قالت :

— مرض المسكين ، أصابته عين .

التفت أبي في حدة . قالت :

— منذ الصباح لم يدخل فمه شيئا ، رافضا للأكل رافضا
للرضاعة لا يمص الا في أصبعه ، أصابته عين .

ثم أخذت تصف الأعراض التي ظهرت عليه ، وذكرت
تفاصيل دقيقة وغريبة ، وكانت تتكلم في حرارة وثقة (لكنها
حرصت على الا تدبر نظراتها نحوي او نحو أبي) .

دعت الضيفة بالشفاء والصحة ، ورمت بالنار والدمار على
كل حسود غدار ، وقبل أن تمضي وصفت بعض الطقوس ، قالت
انها لمنع الحسد ، وبالفعل نفذتها أمي رغم أن الطفل كان يكركر
في صحة جيدة .

٤ - الوحش

كلما تاكل القمر زاد تلاءؤ النجوم من فوق سماء تزداد
قتامة .

ومن برهة لأخرى تتجمع المياه المتسربة من مسام الفخار
أسفل قعر القدرة ، وتكور ساقطة في قطرة صغيرة .

كنت مستلقيا فوق أرض الشرفة وقرب أذني حفيف ثوب
أمي يهتز في عصية ، وكان والدي حائقا من وسوستها ،
فجلست صامتة لا تحادثه ، ولم تلاغ الطفل ، وإنما داعبت شعر
رأسه الخفيف وهي تهدده بهمهمات منغمة ليسر بها كلام
أو مناجاة ، لذلك بكى الطفل فخايلته بالهزات العصبية ، سكت
بغثة ثم عاد يبكي حتى نام ونهضت به الى فراشها .

وفي عودتها نهضت أنا الى سريري ، وكل ظهري تنميل و
رأسي صداع بعاند ثقل النعاس .

في سكون الليل لم أسمع سوى الضفادع والصادبن ، ثم
سمعت أمي تجيب على عتاب أبي بكلمات قليلة جافة ، جعلت
صوته يعلو في لوم عنيف فلم ترد عليه . صمت وربما يكون قد
اشعل سيجارة .

ابتعدت همسات الصيادين وبقي نقيق الضفادع ووشيش
الموجات الواهنة ، وسمعت صوت أبي رتيا لكنه متهدج :

— ذلك لأنك لم تلحظ ما حدث !

اهتز مقعده . قال صوتها :

— في الشهر الماضي زارتني فاطمة ، وبعدها سعادى وهى
التي لم تزرني منذ سنوات !! ثم جاءتني زوجة حسن دكرورى ،
وفي الأسبوع الأخير زارتني امرأة ابن خالتك وتعرف انها تكرهنى،
ثم سناء المدرسة وهى الآن فى اجازة وضع ، وبالأمس ابنة
المقدس حنا ، وصباح هذا اليوم هانم مع زوجها !!

ولما لم يرد أبى قالت :

— كى تعذرني !!

فأبدى دهشته فأكدت :

— كل واحدة منهن تشتهى ولدى .

جلست انصت . كررت أمى :

— تشتهى ولدى وتريد مثله .

لا بد أن وجه أبى احمر . قالت :

— ألم تر أن كلهن حوامل ؟؟

طار النوم من عينى تماما : كلهن ؟ .. سأل أبى :

— كلهن ؟ !

— وفى الشهور الأخيرة من الحمل .

بعد الدهشة سأل أبى فى برود :

— وما الضرر من ذلك ؟

— لأن الحامل ان اشتتهت شيئاً ارتسم شكله على بدن مولودها ، وكل واحدة منهن اشتتهت ولدى الذى لا مثيل له ، توحمت عليه كى يأتى طفلها فى مثل حسنه .

اهتز مقعد والدى . سمعته يتجه الى القدرة ويملاً الكوب وبعيده بعد برهة فوق الغطاء ، ثم اهتز مقعده ثانية .

وبعد ذلك عادت الرتابة الى الأصوات فى المويجات وثفيق الصفادع ، وفى غناء خافت لصوت غريب ناء ، ربما حملته المياه من الضفة البعيدة حيث قبور موتانا .

٥ — الحداة

فى بيت مثل بيتنا يجد الانسان نفسه متيقظا عند الفجر .

سمعت صوت الحداة قريباً جداً منى . فادركت انها فى الشرفة .. مشيت حافياً ونظرت من وراء الشيش ، وكانت واقفة فوق السور والهواء يداعب ريشها ، وكنت أحب أن أتأمل وجهها وأجده أكثر جمالاً من وجه البطة أو الدجاجة أو الديك الرومى ، واستغرب نفور الناس منها ، والدتى وجدتى يكرهاتها بسبب انها خطافة . وما زالت أمى كلما رأتها أو سمعتها تهتف فى غل :

— الخطافة .

ذات يوم ذبحت جدتى بطننا ذات الريش الأسود ونتفت ريشها ، وكان الوقت غروباً ، ثم ملححتها أمى تمهيداً لطهيها ظهر

اليوم التالي ، وخشيت عليها من حرارة الصعيد فوضعتها فوق طبق في الشرفة الشرقية حيث الهواء طوال الليل ، وغطتها بالمصفاة الكبيرة .. لكن عند الفجر جاءت الحداة التى تنام فى الشجرة العالية وهبطت الى الشرفة . (ولا اعلم كيف رأت البطة تحت المصفاة !! ولا كيف تمكنت من ازاحتها جانبا) لتبدأ فى تمزيق الذبيحة والتهامها اربا . استيقظت أنا على قلقلة الطبق فوق الأرض ، تسلفت ونظرت من خلف الشيش ، كانت الحداة تقف على مقلب وتضغط بالآخر على البطة النيئة نافثة جناحيها نصف انتفاشة ، ترمق ما حولها فى حذر ، وبهرتنى مهارتها وقوتها ، فجمدت مكاني شغوبا بما أرى ، حتى تنبعت الى أمي تقترب شاهقة مستنكرة فرجتى ، وتفتح الباب فى صيحة مخيفة ، إزعجت الحداة فخطفت البطة وطار هاربة ، لكن الغنيمة أفلتت من بين مخالبها ، وسقطت الى النيل وسرعان ما غاصت محدثة دوائر كثيرة اتسعت حتى ضاعت فى رتابة المسار . اغتاظت أمي وظلت تشتم وتسب كل حدآت الأرض وغربانها ، ومكثت الحداة حتى الظهر تحوم فوق المياه صائحة نائحة ، لذلك الحت أمي على أبي أن يستدعى راميا يخلصنا منها بطلق نارى ، فمأطل أسبوعا كاملا وفى اليوم الثامن اشترى ثلاجة كهربية لتحفظ فيها ذبائحها ، وظل هو يفضل الشرب من مياه القدرة التى فى الشرفة ، ورغم ذلك ظلت كلما سمعت الحداة أو رأتها ، تبرطم ساخطة :

ـ الخطافة .

استيقظت الدار على صياح الوليد باكيا . يريد الطعام أو تغيير الملابس . وهرولت الأقدام فى خطوات مسرعة أو واهنة ، ثم سمعت السيوفون أكثر من مرة ، وفكرت فى حديث الليلة الماضية ، فاكتشفت أن أمي تناقض نفسها : انها تخشى على

الطفل من الحسد بسبب تفرد في الجمال ، والناس يحسدون
الإنسان النادر ولا يلقون بالاً للمتكبر ، فيكون من المفيد أذن أن
تدع الخواصل تحملقن اليه وتتوحدن عليه لتلدن أشباهه فلا يعود
فريداً ، وبصبح شائع العينين وعندئذ لن يحسده أى إنسان .

على مائدة الافطار قلت لها هذه الفكرة ، فلم ترد على
ونهضت تلم المائدة ساخرة منى ومن الكلية التى أدرس بها ،
فضحك أبى كثيراً لكنه كتم ضحكته فجأة واكتأب . . وبعده
بقليل - وكنت أقرأ فى جريدة الصباح - رمقتنى أُمى بنظرة
مكتومة الغضب ، ولاحظت الخطوط تزداد غورا فى بشرتها وتزداد
عددا يوماً بعد يوم ، قلت انها لو ظلت على هذه الوسوسة
للحق وجهها بوجه الجدة الذى يشبه الغربال تجعدا .

فلما انصرفت الى مدرستها صار الطفل فى عهدة الجدة ،
فرحت أتأمله ملياً ، الوجه شاحب ، لكنى ارتجفت من عينيه :
اتساع مدخل وعمق مريب وسحر غير مألوف !

خرجت الى الشرفة منقبض القلب ، فى السماء كانت
الحداة الخطافة تطير من عشاها الى ارتفاع شاهق (مرة رأت
قارا فيهبط كالصاروخ ثم علت وكان بن مخالبا) .

تأملت مياه النيل تحرى : الجسر الحجري بحده فى مسار
موتى مدننتنا وشيعهم الى الضفة الأخرى للنهر ، بدفنون
لا يهبط عنه . . الا اننى رأت وجه الطفل الشاحب يتهوج فوق
صفحته ، فعادت الرخفة الى قلبي ، وعادنى الوحيم .

أخذت أتأمل الصيادين يعدون الشباك ، ويخيطنون تمزقاتها
انتظاراً لمقدم الظلام ، حيث يطفئ السمك لسكون الليل ويضعده

الى السطح ، فان اكل الطعم تعلق في الشخص ، وخرج يتلوى
بعيدا عن الماء حتى يختنق في الهواء .

وفي السماء كانت الحداة لا تحرك جناحيها ، سابحة
بجناحين مفرودين وذيل مثني الى اسفل ، وهى تهبط الى عشا
في اعلى شجرة الكافور المخضرة طوال العام ، الباسقة من فوق
جذع سميك عتيد ، يربطون اليه المراكب ، ويونقون فيه قارب
الموتى الكبير .

٦ - القارب

على نوبتين يوميا يرحل هذا القارب من مرساه حاملا
موتى هديتنا ويشيعهم الى الضفة الأخرى للنهر ، يدفنون
موتاهم في قمة التل ويرجعون بأسي الفراق ، الأحياء في ضفة
الغرب والموتى في ضفة الشرق ، مناقضين دورة الشمس ،
مخالفين مسيرة المصريين القدماء .

واكثر من مرة ياخذنى هذا القارب الى أسفار من التأملات
اقول لنفسي : مكتوب على كل المدينة أن ترحل فيه ، واقول
ايضا : فوق قمة التل تراب كان في الأصل أحياء في غرب النهر
يزداد التراب ولا ينقرض الأحياء .. ومرة واحدة سألت
نفسي : كم من امرأة حسناء تحولت الى تراب ؟ .. وعصرني
الألم : لماذا لا يبقى الحسن وحده ؟

وبعد التفكير اجابنى أبى مترددا ، كنا في جلسة المساء :

— ربما لأن الحسن لا يظهره الا القبح .

فنقلت عيني الى حجر امي متفحضا وجه الوليد ، فهالني
شدة سحوبه .. قلت ان ذلك فعل نور القمر الهزيل ، لكنني في
الصباح نأكدت من ذلك ، وتيقنت من بياض وجه امي مع تزايد
التجاعيد من حول عينيها .

لذلك كنت في غاية القلق عندما سافرت الى الجامعة
بالمدينة ، تم وترتني خطابات أبي حتى ركبني الخوف .

في خطابه الأول قال ان الوسواس تملك عقل امي وقلبها ،
فتحولت الى اعصاب مشدودة ، واخذت تحرص على أن يبدو
الطفل عيلا دائما في أعين الناس !!

ثم قال - في خطاب مبسر ان الأمور تدهورت تماما ،
وانها صارت تتحذر حتى من نظرتة ، وانه يظن أن العلة أصابت
الولد بالفعل .

مرت فترة طويلة انقطعت فيها خطباته ، ولم يرد على
رسائلي ، حتى جاءني مكتوب صغير ، حدثني فيه عن القطة
التي خافت على أطفالها من الغرباء خوفا طائفا ، فأكلتهم لتخبئهم
في جوفها .

وبعد ذلك حدث ان جاءتنى برقية قصيرة تستدعيني .

ووجدت امي جالسة امام الطفل المسجي ترمقه محملقة ،
لا تبكي لا تتكلم ، ذاهلة عن الدنيا ، فقط تحمق الى عينيهِ
المفتوحتين دون انفلاق .

وعندما دخلت المرأة العجوز الى المهد ومدت أصابعها لتسبل
العينين ، ثارت امي رافضة ، وهاجت وكادت تلقى بالعجوز
أرضا .. فارتعش أبي في وقفته ، واجهش صوته ينهرها :

— أنت السبب ، بحرصك المجنون تسببت في ذلك .

كأنها لا تسمعه . تهدج صوته :

— عاملتيه معاملة شاذة فقضيت عليه !

وظلت تحملق الى العينين المفتوحتين في هدوء وسكون

(نظرت انا اليهما فانتفضت نبضات قلبي ، مازال السحر فيهما .. فهمست لنفسى : انه لم يمت) .

سحبت ابي بعيدا ، فقاومنى وهو يصرخ :

— رعناء معتوهة ، ظلت تحجبه عن العيون حتى حجبته عن الحياة !! وكان اجمل من كل الحياة .

(وكان السحر ما زال في العينين)

.. ثم حدث ان امسكوا امى ودخلت العجوز واسبلتهما ، وعلى الفور صار ميتا ، وعلى الفور وقفت امى مذهولة ، وصرخت صرخة واحدة ارتعشت لها قلوب الجميع — وتركها ابي — وظلت تبكى حتى لم يعد لديها بكاء ، وصار وجهها كوجه الجدة تجعدا .

وعندئذ صعب حالها على والدى ، فأخذ يحايلها ويطيب من خاطرها :

— نحن اتينا به وباستطاعتنا ان نأتى بغيره ..

قال :

— جاءنا على كبر ، وكنا سنموت قبل ان نتم تنشئته .

قال :

— وهل الأحياء سعداء ؟؟

٧ - الأميرة

.. لكنه بعد كل هذا الكلام المطيب انهار فجأة وبكى -
وكنا في قارب الموتى نسير شرقا - وأخذ يهذى :

- لا يعيش الجميل ، لا يعيش ، فان أصبح قبيحا عاش .

نظر للنعش الضئيل وكانت الحداة تحوم فوق المرفأ :

- لا توهب الحياة الا لناقص الجمال .

ملأت الدموع عينيه :

- يولد الجميل وفيه بذرة الدمامة ، فهو لم يعد كامل
الحسن ، وهو يموت لنعيش دونه .

بللت الدموع جفنيه ، ربت الجار على كتفيه ، لم احتمل
ذلك ، نظرت الى النهر اسفلنا ، فرأيت ظلى وظلال الرجال
تتموج من فوق المويجات .. وكان القارب يفرق هذه المويجات
الى شطرين ، وجاءنى صوت أبى :

- القبح فى الأم والأب .. والقبح لا يلد الا القبح ، وأن
انجبنا الحسن فكيف يعيش ؟ !

وبعدها ظل صامتا لا ينطق . وطفن زمجرة آلات القارب
على صوت أنفاسه المجهدة ، لكنها لم تقدر على حجب
عويل أمى .

كانت أمى فى الشرفة الشرقية ، تنظر إلينا تعول وتولول -
ولم تكن جدتى بجوارها - والنسوة يجذبنها الى الداخل ، لكنها
تقاوم ونصف جذعها مائل خارج السور .

- غامت الدنيا فى عيني ، لكنى رغم المسافة رايت الدموع تنهال
من عينيها فوق الخدين ساحبة معها قطرات العرق ، رايتها
نساوطة الى مياه النيل القائمة ، يلمع فى الشمس وهى تتساقط
الى النهر العريض .

فتذكرتها وهى امرأة جميلة ، ناضجة الحسن - وكنت
طفلا تبهرنى كل الأشياء - لاحظت ان النهر عند الجفاف تظهر
فى وسطه جزر صغيرة يزرعونها خيارا وبطيخا ، وكانوا يتركون
البطيخ يكبر ويتضخم لتحصل الواحد منه الى حجم قدرة
المياه - وكان هذا يعجبني - وكانت فرق الكسافة تقيم معسكرات
المبيت فى هذه الجزر ويجلسون فى دائرة من حول الفوانيس
يتسامرون - ويظل الأمر كذلك شهورا قليلة ، بعدها تسود مياه
النيل فيهجر المزارعون الجزر ويفيض النهر ويرتفع ويأتى الى
جدر منزلنا يضربها ، وبقترب سطحه من شرفنا .

سألت أمى مبهورا عن سر هذا الفيضان فأخذتني الى
حجرها وداعبت شعري الخشن بأناملها - وكنت أحب ذلك -
وحكت لى عن أميرة فرعونية اسمها ايزيس ، كانت تحب زوجها
الجميل الطيب ، لكن حدث أن دبر له أخوه الخبيث حيلة شريرة ،
وقنله ومزق جثته قطعاً نثرها فى أنحاء البلاد ، فحزنت الزوجة
على حبيبنا وصارت تبكى ولا تكف عن البكاء ، ودموعها تنسال
دون توقف ، وتسيل لتتجمع وتزايد وتنحدر الى النهر حتى
حدث الفيضان ، فارتوت الأرض ونبت الزرع واكل الأحياء ..

.. وكنت أغالب النوم ، وكانت أمى تقول ان الأميرة ظلت
تفعل ذلك بانتظام فى نفس الموعد من كل عام ، وأن موسم

الفيضان هو موسم البكاء عند ايزيس ، ومياه النهر هي دموعها
الغزيرة ..

.. وكانت أصوات غناء شجية تأتي من بعيد ، وكف أمي
بذلك ظهري : وساقها تهتزان بى هزات منتظمة ، ورائحة
صدرها فى أنفى ، وكانت النجوم فوقها ناصعة متألقة ، وكان
وجهها لطيفا باسم بلا تجاعيد .

بعض المنحنيات

● منحني القمة

ازداد ظهري غوصا في مسند المقعد الوثير ، كانت السيارة
تمرق صاعدة تل المقطم ، منحنية عن الطريق الأفقى ، مخلفة
من ورائها حى القلعة ، والطريق الى فوق وعر ، كثير التعاريج ،
لكنى لم اشعر بمطباته ، والسيارة تتسلقه مكتومة الزمجره ،
وسامى يفودها في هدوء وعلى وجهه بسمة باهتة ، ربما كان
يسترجع بعض ايام الماضى .

تأملت القاهرة ، رغم اننا في أول الليل الا اننى ميزتها
راقدة في اتساع ، وجميعها في مدى الرؤية ، ونحن نعلو عنها
ونرتفع ، ومقابر الموتى تأتى من تحتنا ، وعند قمة التل تلوح
مدينة المفطم ، قلت لسامى :

— تسكن في مكان له هدوء القمر

ضحك : وخيل لى ان بضحكته رنة ساخرة :

— لم تخلص بعد من نزعتك الخيالية !

— لماذا اذن سكنت هناك ؟؟

— رأت زوجتى ذلك فوافقتها

وبعد برهة سألتنى :

— هل تظن ان شجرة الكافور ما زالت قائمة ؟؟

— اظن ذلك

— اذن فاسمك مازال مخطدا !!

تأكدت من السخربة فى ضحكته ، وكنا فى المرحلة الابتدائية
عندما رأتى منهمكا فى حفر اسمى على جذع هذه الشجرة ،
وسألتنى عن السبب ، أشرت الى أطلال الآثار فى وادى الكلا ،
قائلا اننى افعل مثلما فعل الفراعنة ، فمط شفتيه عجباً ومضى
يلقى الفروع بالطوب ليسقط ثمرها ويأكله .

ومنذ تزامن الدراسة لم أقابله ، وعندما لقيته مصادفة
كدت أحسده على المنصب الذى قفز اليه (ولما سألتنى عن نفسى
أجبتة فى صوت خفيض) .. ودعانى الى منزله فى قمة القاهرة
ليعرفنى بزوجته ، ومن قبل ان أراها خمنت انها سوف تكون
رائعة الحسن .

اتحشر الطريق بين مرتفعين ، فارتد صوت المتحرك من
فوق الصخور ليتضاعف فى أذنى :

— وعربة الأسطى صابر ، اتظنها ما زالت تسير ؟؟

— من المؤكد انها تسير .

— اظنها اعتق عربة تلب فوق سطح الأرض !!

بطيئة لكنها أكيدة الوصول ، بخط سير واحد لا تغيره أبدا ، من قربتنا الى حدود المركز جيئة وذهابا ، حتى تندرنا بانها لو تركت في آخر الطريق بمفردها لعرفت كيف تعود دون سائق ، ولا اظن احدا غير عم صابر قادرا على قيادتها ، فكل جزء فيها أصبح من اختراعه الخاص ، القرملة تقوم بعمل ضاغط البنزين وضاغط البنزين يقوم بعمل القرملة ، ولدنا فوجدناها بصاحبها ، الذي فشلت دائما في تقدير عمره ، وعندما تجرات وسألته اكتفى بتأكيد انه اقوى منى ومن كل الراكبين معى ، اكتظ رأسه بالعديد من الحكايات والذكريات التى تعتقت فى رأسه فساح الواقع على الخيال ، يعرف الأيام بالمناسبات ، يوم زواج أو ظهور أو مولد أو يوم التطعيم ضد الكوليرا ، أو يوم ان أكل الولد مسعود اللحم الضأن لأول مرة ! .. وكنا ننحشر فى عربته للوصول الى ثانوية المركز والعودة منها .. لكن سامى لم يكن يركبها معنا ، كان يذهب الى المدرسة ويعود منها فى سيارة والده ، ويخرج من داره بعدنا ويصل الى المدرسة قبلنا .

٢ - منحنى الجراد

« منحنى خطر - هدىء السرعة » .. لكنه لم يهدئها ، وزعقت الاطارات محتكة بالأسفلت الخشن ، وعادت الى ذهني عربة عم صابر ، وهى تنهادى مخترقة وادى الكلا ، خطر لأحد كباش الفجر أن يلحق بها وينطح مؤخرتها بقرنيه الملقوفين ، مما أغرقنا فى ضحك لا آخر له ، ومما أغضب عم صابر ، فأوقف عربته وصرخ قينا أن ننزل وأن نبحث لنا عن سيارة أخرى ، وظللنا نحاوله ونتملقه راجينه أن يحكى لنا قصته مع زوجة

الموظف الانجليزى ، وكيف انها أعجبت به وبفحولته ، وكنا نعرف
ان ذلك يسعده جدا ، وكنا نحن أيضا نحب سماعها ، فأدار
المحرك ونهادت العربّة على صوت يقول :

— حدث ذلك فى عام الجراد الأجرب ، وهو الذى يأتى من
الصحراء ، فهو ان جاء من فوق الوادى يكون لونه أخضر اللون ،
أما الذى يأتى عابرا الصحراء فيجىء فى لون الرمال ، لكن كل
الجراد تراه فى السماء وهو سد عين الشمس أسود اللون .
والجراد الأصفر يتحول الى الأخضر بمجرد ان يأكل زرع الفلاحين .

— لماذا يا عم صابر ؟ !

— لأن الزرع الذى يأكله أخضر اللون .

هزنا رؤوسنا دون اعتراض ، فقال :

— الجراد الذى جاء بعد موت سعد باشا زغلول بثلاثة
أو أربعة أعوام كان لعينا ، لونه أخضر لأنه أتى على الخضرة فى
طريقه ، فأدخل الفلاحين فى كرب وضيق جعلهم يقترضون من
المرايين الخواجات بالربا الفاحش ، وكان هؤلاء النصابون
منتشرين فى كل القرى من فرنساوية على يونان على انجليز على
أتراك ، لم يكن فيهم أى مصرى لأن المصريين فقراء .

ثم صمت عندما سبقنا سامى فى سيارة والده ، والتى أبطأ
عم صابر حتى يبتعد غبارها والى ان استحثه مصطفى من المقعد
الخلفى ، مطالبا بالدخول فى حكاية المرأة الانجليزية ، فانتعشت
ملامحه بطريقة لم تقدر كل التجاعيد على اخفائها ، وأخذ يقول :

— كانت امرأة كالبطة البيضاء التى أطعمت جيدا .

اعتدلنا جميعا ، والذين كانوا فى الخلف مالوا الى الامام .

— كان وجه زوجها فى لون عرف الديك الرومى ، اما هى فكانت بيضاء ، ممثلة وليست سمينة ، وطويلة وشعرها فى لون القمح ، وكان الجراد يهدد البلاد ، جراد اصفر من الصحراء ؟ !

— كان ذلك بعد معاهدة ٣٦ بحوالى الحول ، امرت الحكومة بعمل تجريدة من اهالى اربع قرى لايقاف الجراد عند حدود الصحراء ولتطفيه مرة اخرى اليها ، وكانت قريتنا من هذه القرى ، وجاء الرجل الانجليزى من البندر ليشراف على التجريدة ، ومعه زوجته للفسحة — كان الانجليز يحكمون مصر ويهمهم ان يكون محصولها وفرا — وكانت امهاتكم لم تحمل بكم بعد عندما اشتركت فى نقل الاهالى .

هتف سيد :

— كل الناس ؟ !

— عدا ثلاث عائلات تعرفونهم ، منهم عائلة هذا الولد سامى الذى سبقنا فى سيارة والده .

بصق الى الطريق :

— كان اجر النفر قرش صاغ فى اليوم ، وانهمك الرجال فى حفر الخنادق ثم فى اطلاق الدخان الكثيف مع صياح النسوة ، بينما الأطفال يحركون النباتات وافرع الأشجار ، والقصد من كل ذلك هو اطلاق الجراد وتخويله كى يعود الى الصحراء ثانية ، وقد ضايق الضجيج والدخان المرأة الانجليزية ، فأمرنى زوجها بكلام ركيك ان آخذها لأفرجها على آثار الفراعنة ، ومضيت بها .
تنحني ابن المقدس حنا بجوارى فلكرته بكوعى كى يصمت .

— ولما ابتعدنا عن الدخان والصراخ شعرت بشيء يلمس
قفاي ، ظننتها جرادة هاربة ، لكن اللمسة كانت ناعمة ، وكانت
من أصابع المرأة ، ففهمت غرضها وركنت العربية وأخذتها بين
الخصوص .

صفق رياض :

— عم صابن يا جن !!

— كانت قوبة الجسد ومعطرة وامتعتني كثيرا ، لكن عند
عودتنا انقلبت المتعة غما ، اذ وجدنا فلاحا تعول ملطخة رأسها
بالطين وامامها طفلا منهوش الجسد !! كانت قد غفلت عنه أثناء
العمل ، فحط عليه الجراد وظل ينهش بدنه الصغير ، وبكاؤه
يضيع وسط الضجيج والصخب ! وعندما تنبّهت اليه أمه كان
قد مات ولم يكن هناك من يداويه ، وقد ألهب عويل الأم غضب
الفلاحين فانهالوا على الجراد حتى هج ونجحت التجربة .

— وأين ذهب بعد الصحراء ؟؟

احتار :

— ذهب الى حيث جاء .

وعدت أسأله عن الانجليزية وان كان لم يرها بعد ذلك ،
فقال :

— ظللت أحمل البيض والزبدة والدجاج الى سكنها
بالبندر ، وكان رجلها كثير الغياب بالقاهرة .

وكان في كل مرة يضيف الى قصته حواشي وتفاصيل لم
يات ذكرها من قبل ! .. تأملنا الغيطان المنبسطة وسألته ان
كانت المراد قد أنجبت منه فأجاب :

— كانت عاقرا ، وقد فشل معها الأطباء ، وعندما افهمتها بأن الفلاحة العاقر عندنا تلد اذا لمست صنم الفرعون ، جاءت خلسة من وراء زوجها ولمسته .

— وهل ولدت ؟؟

— قال لى شيخ كبير ان ذلك مستحيل لأن صنم الفرعون يولد نسوة الفلاحين فقط ، ولا يولد أبدا نسوة الخواجات .

٣ — منحنى الجهول

سرعان ما نكائف ظلام الليل وأخفى تماما المقابر أسلفنا ، وتحولت القاهرة الى نقط مضيئة منتظمة فى خطوط أو متناثرة على ارتفاعات شتى ، لكنى عدت أرى الأوز يسبح فوق مياه الترعة ، بينما عم صابر يحكى لنا عن زوجة المرابى ، قال ان زوجها كان روميا والذي قبله كان شركسيا .

سأله حسين محتارا :

— شركسيا من أى بلد ؟؟

— من بلاد الشركس ، اما هو فقد كان روميا من بلاد الروم ، وكان يقرض الستين قرشا أول الشهر ليستعيدها جنيها كاملا فى آخره .

— هذه سرقة !

— كان الفلاح فى عوز دائم ، فائناء الحرب العظمى حدث ان زاد سعر القطن بطريقة مربحة جدا ، جعلت معظم الفلاحين يزرعون أراضهم قطننا فى الحول التالى ، منصرفين تماما عن زراعة الحبوب ، وإيامها كانت سوق القطن مجنونة ، اليوم

القنطار بمائة ريال وغدا بعشرين !! فتخرب بيوت ويشل رجال ،
ولذلك لجئوا الى السلف ، ومن بقرضهم غير المرايين ؟ ! بنك
التسليف كان يقرض كبار المزارعين فقط ، وكان هذا المرابي
الرومي طماعا بقلب كالحجر ، بينما دين الفلاح يتراكم بالفائدة
المركبة ، وان كان في الأصل جنيها يصير بعد شهر جنيهين ،
وبعد شهرين اربعة ، وطبعا عجز معظم الفلاحين عن الدفع ،
فحجز الرجل على دوابهم ، لكنه قبل اليوم المحدد لبيع البهائم
سقط في الخلاء بعيار نارى اصابه في القلب تماما ، وظل ملقى
مكانه فوق التراب .

— من قتله ؟؟

— جاءت الحكومة ، وحط الجميع اقوالهم ، وسألوني
مع من سألوا ، وقلت لهم اننى لا اعرف شيئا ولا اشك في احد ،
تعجبوا : فهل قتل الرومي نفسه ؟ ! .. قلت لهم ان الله وحده
يعلم ، وفي النهاية قيدوا الحادث ضد مجهول !

— ولكن من قتله ؟

— المجهول .. قالت النيابة ان الذى قتله هو الفاعل
المجهول .

نسحكنا ، قال :

— القرية جميعها كانت تعرف الفاعل ! .. لكن حتى
الرومية نفسها لم تحزن على زوجها ، كان عندها كعدمه وكانت
نختار من تسبان القرية من يعجبها ، وتأخذه الى دارها وتجعله
يستحم ثم تأخذه الى سريرها لغرض غير خاف .

— وزوجها ؟؟

— كان يحب المال فقط ، وقد جربت هي الكثيرين من
أهل البندر ومن الروم والشركس والانجليز ، فلم يعجبها سوى
الفلاحين .

تخابث عويس بقصد إيقاعه :

— وهل كانت البلهارسيا منتشرة أيامها بين الفلاحين ؟ !
— طبعاً .

— وهل كانوا يشكون من الفقر ، ضعفاء لا يأكلون جيداً ؟ !
وجم برهة ، ثم قال في عصبية :
— قلت ان الرومية كانت تطعم من تختاره ببطء كاملة .
مازحته :

— فهل أكلت من بطها ؟؟

ضحك ، ثم دار بعربته مع انحناء الطريق ، الذي كان
ينحني مع انحناء التربة .

٤ — منحني كلب الوادي

أضاء سامي مصباحي السيارة فسقط نورها على الصخور
الجانبية ، واوحات المرور تشير الى منحني قريب ، ورأيت
فيه مفارة كبيرة ، وقات انها تنفع مكننا لبعض الوحوش
أو لعصابة من اللصوص .. لكن المدهش حقاً هو اصرار عم صابر
على فساد الزوجة الانجليزية وزوجة المراهبي ، ومن بعدهما زوجة
عرفان باشا ، وجميعهم ممن أذلوا الفلاحين !! .. فهل هو نوع
من التعويض ونوع من الانتقام المعنوي .

جاءت سيارة في طريقنا وسقط نورها على وجهينا ، لكن
سامى لم يخفض من سرعته . وفي برهة النور ضيق من عينيه ،
ثم سرعان ما راح وجهه في الظلام وسألنى :

— لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟؟

ربما لضالة راتبى (اكنى لم أخبره بذلك) وسمعتة يضحك
بضحكة غريبة :

— هل تعقدت من صنف البنات ؟ !

فهمت قصده ، وعاد يقول مجاملا :

— كان ذلك فى الماضى ، ولم نكن أياما سيئة ، معى فى
ذلك ؟؟

وكان يقصد حادثة التلميذة سناء ذات الفم الواسع ، وكنت
قد صادقتها ، وكثيرا ما تفسحت معها على الترفة خارج حدود
المركز ، وكان هو يعرف علاقتى بها ، وكانت المظاهرات أيامها
كثيرة ، وكنا نهتف بسقوط من نشاء وبنحية من نشاء . وكانت
الحكومة قد فتحت كوبرى عباس وطلبة الجامعة من فوقه فقتلوا
العشرات منهم — ولا اذكر جيدا ان كان ذلك فى عهد « النقراشى »
أما فى عهد « عبد الهادى كلب الوادى » — الذى اذكره اننا قمنا
بمظاهرة احتجاج كان سامى معنا فيها ، لكنه ما أن لمح البنات
سناء حتى تلكأ وانسحب ، ولم يخطر على بالى انه لاحق بها
الا بعد ان عاملتنى فى جفاء ، وبعد أن ضبطتهما خارجين معا
من سينما المركز ، حيث ارتبكت هى أما هو فقد غمز لى بعينه
اليمنى ، وفى اليوم التالى أخبرنى ان لقبلاها طعم الشهد رغم
سعة فمها !!

تأملت لوحة السرعة المضاءة ودائرة عداد البنزين ، وسهمى
الانحراف الى اليمين والى اليسار ، واحد أخضر والآخر أحمر :
وخيل لى ان منحنيات الطريق قد زاد عددها ، ونوجست من
العتمة الكثيفة وتوقعت الهوة عند كل منحنى حيث أعرف ان فى
القاع مقابر الموتى .

• - قمة الكف

كما توقعت تماما وجدت زوجته انثى ساحرة ، داعب هواء
المقطم شعرها فستمت عطرها الرائع ، باغتتنى بعينيها وهى
تعطينى كاسا ، فاخذت أرنسف منه وأنا أتأمل أضواء القاهرة
من تحت اقدامنا : بإمكان رجل واحد من هذا الارتفاع أن يهزم
العشرات عن السفح .

ثم حكيت لهما - بعد الكأس الثالثة - اننى ، ومنذ هاجرت
الى القاهرة ، وكلما شعرت برغبة فى حك راحتى اليمنى توقعت
زيارة مفاجئة من أحد أهالى قربتى ، فابتسم سامى ، ورفعت
الزوجة حاجبها دهشة :

- وهل تصدق فراستك ؟ !

- على وجه العموم .

مالت بجسدها تجاهى فى بسملة آسرة ، غمزة فى كل خد :

- لعلك تجيد قراءة الكف أيضا ؟؟

ظهر كفها فى بطن كفى ، ناعمة تجرحها أقل خدشة ،
ارتجفت وبحثت فى ذهنى عما يقال فى قراءة الكف .. بينما
سامى يقول :

— المؤكد ان هناك علاقة وثيقة بين رغبتك فى حك كفك وبين دورتك الدموية وأعصابك وآخر وجبة تناولتها وحالتك النفسية ، تماما مثل رفة العين ، ولكن الأكيد أيضا انه لا علاقة لها اطلاقا بزيارة أحبابك ، فهل تؤمن بالخرافات ؟ !

— لنقل مثلا شفافية ، أو بقايا من نقاء ريفى داخلى .

لكنها عادت تتحدانى بانساعى عينيها فتنبهت الى كفها .
فى كفى .. قلت :

— يقول كفك ان العمر مديد والحظ سعيد وان أسعد أيامك هو الخميس .

— النهار منه ام الليل ؟؟

ثم بضحكة مستخفة :

— هل رأيت سكرتيرة زوجى الحسناء ؟ !

لا توجد امرأة تفوقك حسنا ، قلت ذلك فى سرى :

— اما أسعد ألوانك فهو البرتقالى ، وأسعد أرقامك هو رقم خمسة ، وهذا خط القلب وسأقراه لك .

زمت شفتيها :

— الا هذا

— أسرار ؟؟

— دع خط القلب فى حاله !

ولما سحبت كفها رأيت كفى العريض ، خشنا ، باهت
الخطوط قصير الأصابع .. وفى فصل ٢ علمى خامس مددته

فانهالت عصا المدرس فوقه ، وكانت كراسات الانشاء قد وزعت وفوجئت بدرجة سامى أعلى من درجتى فهتفت بان هذا ظلم !! فعضب المدرس وضربنى بالعصا على كفى ، جلست اتمتم فى عناد بان موضوعى افضل من موضوع سامى فضربنى ثانية .

ضممت قبضتى بشدة ، فلت للزوجة :

— ذكرينى فى يوم لاحق أن اقرا لك الفنجان .

فتناثرت ضحكاتها فى اجواء المقطم ، وبعثرها الهواء الى سواد القاهرة المترامية تم سمعت عواء خافتا يأتى من بعيد واصطكاك بعض النوافذ ، وعندما رجعت بظهرى الى الوراء رأيت ساقيا : جميلة هذه المرأة ، كيف احتكرت لنفسها كل هذا الحسن ؟ ! لو رآها عم صابر لتناقص اعجابه بالزوجة الانجليزية وبالرومية وبامراة عرفان باشا !! فهل خطفها سامى من رجل آخر ؟ ! .. كنت اظل محتفظا بتفوقى طوال العام الدراسى ، وفى الشهرين الأخيرين يشرح له كل مدرس الأجزاء الهامة التى منها الأسئلة فقط ، ويدفع والده بسخاء ، وينتهى الأمر بتفوقه هو !!

كان الهواء منعشا ، وتحدث سامى قليلا عن احوال البلاد وتوقعاته ، وعن رحلاته التى قام بها فى الخارج ، وذكر الآراء فى السياسة الدولية ثم سخر من موظف لديه هاجمه فى اجتماع عام للمؤسسة متهما اياه باحتلال منصب لا يستحقه — ورأيت فى السماء نقطة خضراء مضيئة تتحرك فى صمت ، إدركت انها مركبة فضاء تدور حول الأرض — فشربت بلعة جديدة من الخمر ، ولما سألتنى سامى عن احوالى فى العمل أفلت لسانى ، وشكوت له من رئيسى ، فوعد بأن يوصيه خيرا بى ، وعزت على

نفسى وفكرت ان اخبره بأننى فى غنى عن توصياته ، لولا أننى سمعت حفيف ثوبها وهى تناولنى كأسا جديدة ، فتأملت ذراعيها وعنفها ، وتصورت بشرتها ملساء عطرها ، وسرت التهيئة الى مفاصلى - وكان المقعد مريحا - وتغلغل الخدر الى كل رأسى ، وشطح خيالى فرايتها تتبادى داخلة الى شقتى ، ثم الى حضنى - وأشم عطرها - وتفك أزرار بيجامتى ، وهى شرهة ، وهى تهمس بأن سامى لم يقدر أبدا على اشباعها بمثل ما أفعل ، وتوشوش مأخوذة : بأننى وحدى القادر على ارضائها ، أنا وحدى ، وليس سامى .

٦ - جميع المنحنيات - هابطة

.. لكنى تنبهت على أصبع سامى أمام عينى :

- نحب ان نعرف ما دار فى هذا الرأس ؟ ! الى ابن شردت بأفكارك ؟ !

الهواء ، لم أنظر فى عينيه :

- الى قريننا .

هز رأسه ، ويبدو انه عاد بقول بانها لم تكن أياها سيئة وبأن المدينة لم تغلح فى تغييرى ، وغاص الدم من كل وجهى وبردت أطرافى ، وصار مذاق الخمر فى فمى مرارا ، فألقيت نظرة اخيرة من فوق ، وكانت الزوجة تبتسم فى ود محمرة الشفتين ، وتضاعفت المראה فى فمى وشجرت بضرورة انصرافى ، وكان سامى مهذبا اذ نهض معى متوجها الى سيارته وهو يقول :

- سوف اهبط بك .

جميلة مثلها

● النظر

الوعاء الصغير الصدى يمتلئ ، يرتفع مهتزا مع ارتعاشة الكف المعروفة ، ثم يميل لتسكب منه المياه القائمة ، يمتلئ ، ثم يعلو بطيئا مرتعشا ثم يسكب الى النهر ، يحاول المراكبي العجوز أن ينزح المياه من قاع القارب ، تقيس عيناه ارتفاعها ، متفرضا غائص القدمين في مياه الرشح ، محنى الظهر فوق قاربه الصغير المربوط بحبل ليفى بال الى وتد مثبت على الشاطئ قرب اقدامنا واسفل قدمي سمر المهترئين في توتر عصبي .

بللت الرطوبة ملابسنا فالتصقت بأجسادنا - ولا نسمة هواء - والعجوز في محاولاته الرتيبة غير المنتهية ، كأنه لا يلحظ عدم نقصان الرشح في قاربه ! .. من قبل ان نأتى وهو يحاول نزحها بكوزه القديم ، تأملت كفه المعروقة المرتعشة .، ولاحظت تساوى سطحى الماء داخل وخارج القارب !!

● من جميع الجهات

فجأة زام سمير ساخطا :

— غير معقول !! عبث ما يفعله هذا العجوز المعتوه !!

ثم صاح مناديا :

— يا ريس ، يا ريس الا تلاحظ ؟ ! ماتنزحه يتسرب
ثانية !! كف عن هذا ، كف .

نظر اليه العجوز متأنيا ثم عاد الى فعله فزاد حنق سمير
وآدار مقعده بحركة غاضبة معطيا ظهره للمراكبي ، احتسى
الرشفة الأخيرة من قهوته ثم عادت الهزة المتوترة في قدميه ثانية .
ومنذ جاء الى جلستنا لاحظنا ضيقة ، سألناه عما يحنقه فانكر
ذلك بطريقته الهازئة :

— أنا على العكس تماما ، فقد نما الى علمي هذا الصباح
من عليم ببواطن الأمور ، ان الحياة جميلة ، الحاضر فيها
افضل من الماضي ، والمستقبل اكثر اشراقا من الحاضر ،
أبلغني بذلك الرجل ذو المقعد الوثير الدوار ، ولذلك تروني
متفائلا ، وهانذا ابتسم .

ثم وضع ابتسامة على شفتيه ، ولم نعلق على كلامه اذ
كان صوته قد تهدج ، وكنا نعرف مشاكله في العمل ، طلب منه
رئيسه في الجريدة ان يكف عن النغمة الزاعقة في مقالاته ، وان
يكتب مثلما يكتبون ، فرفض سمير (وقال لنا : كيف اكتب
مثله وأنا لست هو ؟ !) .. فاتهمه رئيسه بانه يكتب كلاما
لا يقرؤه احد (وقال لنا سمير : أولا ليس عنده دليل على هذا
الزعم) ! (وكان منفعلا فلم يقل لنا ثانيا) .. وقال لرئيسه :

— اننا لو نصبنا منصة عالية في اوسع ميادين القاهرة ،
ووضعنا من فوقها احدى الفوازي وتركناها ترعش اردادها
فان الميدان سيمتلئ فورا بالناس ، وسيتعطل المرور طالما
هذه المرأة تهز وسطها ، فهل تريد منى ان اهز وسط قلمي ؟ !

وقال لنا :

حملق الرجل نحوى ثم ادار مقعده الوثير الدوار ،
فارئيسى مقعد وثير دوار استخدمه كى يعطينى ظهره ، وكما
كرهته من وجهه فقد كرهته من قفاه ، اننى امقته من جميع
الجهات .

ثم ظل فى عصبيته حتى نقل مقعده وجعل ظهره الى
المراكبى ، ولم يتكلم وتركناه فى صمته .

● المياه الراكدة

اما فريد مبروك فقد مكث وقتا يرمق سمر بنظراته الرصينة
(كنا نفيظه ذاكرين انه يبالغ فى رزائنه لتعويض القصر فى
قامته) ثم اخرج من جيبه جواز سفره وقلب صفحاته وتأكد
من وجود تأشيرة الخروج فى احداها ، اغلقه فى عناية واعاده
الى جيبه ، وكانت جلستنا فى الاصل لوداعه بسبب قرب
هجرته .

نظر الى سمر ثانية ثم الى المراكبى ومحاولاته غير
المجدية ، ثم تاهت عيناه الى مياه النيل شبه الراكدة ، ورايت
على وجهه مسحة اسى ، وبدأ واضحا عزوفه عن الكلام .

● نزوة عابرة

هتف اسامة :

- بالأمس فقط نجوت من وطأة الامتحانات والليلة احب
ان اسمع كلاما عن العشيق والعشاق .. وهذا الرجل
القادم يحب .

تلفتنا خلفنا فراينا حسين يهبط الى الكازينو في بطاء ،
واشعة الغروب تعطي وجهه لونا شاحبا ، وكنا نعرف ان له
قصة حب مع فتاة لطيفة قمحية اللون طويلة القامة ، ظل يعاند
حبها ويقاومه لفترة وانتهى بأن نوى الزواج منها رغم قراره
السابق بعدم الزواج نهائيا .

بادره اسامه :

- انت لمسة النور في هذه الجلسة القاتمة ، حدثنا ايها
العاشق عن حبك العظيم .

افتعل ضحكة قطعها ثم قال :

- انسوا كل ذلك ، كانت نزوة خرجت منها مستعيدا
حريتي .

دهشت وسألته ان كان يقصد انهما قد افترقا ؟ ! ..
فارتجفت وجنتاه ويبدو انه فشل في افتعال ابتسامة اخرى ،
ويظهر انه عاد يقول انها كانت نزوة عابرة . لكنى اقتربت منه :

- ما الخبر ؟

زاغت نظراته .

- ودعتها بالأمس .

— أسافرت ؟
— وداع الفراق
همست محتارا :
— يقينى انك أحببتها ، فماذا حدث ؟ !
ارتعش الثقاب فى يده وانطفا دون أن يشعل سيجارته :
— ادركت اننى لن أسعدها
— وجبكما ؟
— كان سيتبدد مع وطأة الأيام
وضع الجرسون أمامه كوب ليمون نظر اليه ولم يتناوله ،
وعندما حاول العودة الى الحديث اختنق صوته .. فتركناه
لصمته الحزين .

● بعيدا عن الشرق الأوسط

طلب اسامه سيجارة فقدمت له واحدة ، رأى ماركتها
فرفضها قائلا :
— هذا هو النوع الذى يفضلهُ أبى .
ثم التقط واحدة من علبة حسين ، بينما امتدت يد فريد
مبروك لتحسس جواز السفر فى جيبه ، وعيناه لا تتركان مياه
النيل ، حيث امتد ظل الكوبرى فوقها والشمس قد زاد ميلها
ناحية الغرب .
سيطر الصمت على الجلسة عدا تقيق الضفادع وهمسات
خافتة لبعض الجالسين عن قرب .

فاخذ ضجرى يتزايد ، لذلك تنفست ارتياحا عندما وصل
حجازى ، أخيرا جاء ظريف الشلة الذى لاحظ اغتمام حسين ،
ولما عرف السبب عاتبه مازحا :

- احزن لأنك لن تتزوج ، كان الله فى عونى أنا وقد
نجحت وتزوجت حبيبتي !!

ضحكت واسامه معه ، لكن حسينا لم يتبدل ، وابتسم
سمير . . وعندما انضمت اليها سعاد وطفلتها خرج فريد مبروك
عن رصانته لينهمك فى مداعبة الابنة ، بينما حاول اسامة أن
يفتح حديثا عن الشرق الأوسط فلم يتجاوب معه أحد .

● بين قوسين

عندئذ صاح حجازى :

- سوف اخفف عنكم هذا الجو الكئيب بحكاية مدهشة .

قال :

- لزوجتى هيام رغم انها زوجتى ! ملاحظات ذكية تفاجئنى
بها من حين لآخر ، ومنذ أسبوعين اخبرتنى باحدى هذه
الملاحظات العجيبة ، قالت انا نستيقظ كل يوم فى الصباح
الباكر ، ندخل الحمام ونتناول فطورنا على عجل ، ونرتدى
ملابسنا فى هرواة ، وعيوننا ترقب الساعة من لحظة لأخرى
فى عصبية ، ثم نهول خارجين والنوم لم يغادرنا لنتزاحم مع
باقى الناس عند ركوب الأتوبيس ندفعهم ويدفعوننا ، متوجهين
الى مقار أعمالنا حتى لا نتأخر عن التوقيع فى دفتر الحضور
دقيقة واحدة والا كان لفت النظر والتعرض للخصم من المرتب
وبعد هذه المجهودات الجبارة نتجخ فى الجلوس الى مكاتبنا

تعمل به ؛ وبالفعل رصدوا المبالغ اللازمة للطلاء من الخارج والداخل ؛ اذ ان داخل المبنى صار متهدما ومثيرا للاكتئاب ، وكالعادة تلكات الأمور حتى نفدت الأموال بعد طلاء الجدران الخارجية وحدها !! وظل الداخل على حاله !!

قلت معلقا :

— وما هو العجب في ذلك ؟ ! هاكم قاعدة أخرى : سر من رأى واكتأب من دخل !

● ورد النيل

سأل فريد مبروك سعاد عن أحوال زوجها ، وإن كان مازال قويا جسورا أم أن الشيخوخة المبكرة قد لحقت به ؟؟ فهزت كتفها في غير مبالاة :

— لم يعد الرجل الذى كان !

دهشت ، وكنا بين لحظات الليل والنهار :

— لكن راتبه زاد فجأة بقفزة واسعة ؟ !

مطت شفيتها ثم تلعثمت باحثة عن كلمات ملائمة لم تقلها وإنما تشاغل بطفلتها التى انزلت من مقعدها متوجهة الى حافة النهر .. فنهضت سعاد وسحبته من كفها محذرة اياها من هذا النهر الذى يبتلع البنات الجميلات !! .. ثم التقطت حقيبتها من امامنا وهى تقول :

— سئمت طفلى منكم ، سأختلى بها على ترايزة خالية .

ومع هبوط الليل غادر المراكبى العجوز قاربه ، وماء الرشح كما كان ، وتحامل صاعدا في بطء نحو الشوارع ، وزاغت.

عيناي الى المياه ، كسر السد العالي من حدة الأمواج ، فصارت صفحتها قريبة من الركود ، وموجات واهنة تتلجلج في موضعها مخفية اتجاهها ، فسكنت انعكاسات الأنوار ، وسمعت تنهيدة بجوارى ، ولما رأى حجازى ان سمر وفريد مبروك واسامة وحسين قد سهموا راغبين عن الكلام ضاع منه مرحة ولزم الصمت كذلك .

● أحاول جاهدا وبكل طاقتى

ومع ركود الماء والهواء تحول تقيق الضفادع وحديث التراييزات المجاورة الى أصوات مبهمة غير واضحة ، تباعدت ليحل محلها صوت صديقتى منى ، ثم بدأت أرى صورتها ووجهها الهادىء اللطيف ، فراغنى فيه أسى عميق يطل من عينين واسعتين قليلتى الانغلاق .

وكانت قد زارتنى فى مقر عملى - بلا مساحيق كماداتها - سحبت مقعدا وجلست قرب مكتبى ، وقلت لى نفسى باننى على استعداد للارتباط بها . وعندما تكلمت كانت فى غاية الهدوء ، حدثتنى عن نيتها فى طلب اجازة طويلة من عملها ، فقلت لها ان هذا غير مضر ، ازدردت قرص الصداع ثم اعربت عن رغبتها فى الرحيل الى مكان لم تحدده بعد . ثم ظلت تتأمل كوب الماء وهى تحدثنى عن فيلم عجيب شاهدته مؤخرا ، ولخصت لى حكايته ، بأن البطل وهو فيلسوف وقور تفاهم مع زوجته اللطيفة التى تحبه ، واتفقا على الانتحار ، وبالفعل نفذا فكرتهما فى شجاعة كاملة ، فأماتا اطفالهما الثلاثة بأقراص منومة ثم انتحرا بعد ذلك لينتهى الفيلم .

رق صوتها الخافت في عذوبة آسرة :

— كانت اللقطة الأخيرة جميلة بديعة بالحزن ، جميع الأسرة مستلقية في طمانينة ، الأب والأم وفوق وجهيهما مسحة من ابتسامة وادعة .

ترقرقت لحظات صمت ثم سألتني فجأة :

— ألم تفكر في الانتحار يوما ؟؟

تحدرت في الإجابة . قالت في هدوء :

— عن نفسي فقد راودتني هذه الفكرة أكثر من مرة .

قلت متصنعا الوقار :

— ان أكثر الناس تحدثا عن الانتحار هم أكثرهم تمسكا بالحياة .

تمتت مستاءة في هدوء مقلق :

— أرجوك لا تدعى الحكمة معي !

فأخذت أصابعي تعبت في الأوراق أمامي ، وشعرت بساقى تهتزتان في هزات عصبية (وشعرت بها تراقب وجهي ، لكنني لم أنظر إليها) .. تذكرت هدوء صوتها فارتعت بشدة وأخذت طوال باقى زيارتها القصيرة أحاول جاعدا وبكل طاقتي اقناعها بأن جميلة مثلها يجب أن تعيش .

● على الرغم

تنهد حجازى ثم قال لفريد مبروك بصوت واثق :

— الأكيد المؤكد والذى لا شك فيه ، ان هذه الجلسة سوف تتذكرها كثيرا في غربتك ، وان هذا النهر سوف تشتاق اليه أكثر .

للذكرى

كانت الشمس نائمة واهل البيت لم يستيقظوا بعد عندما
صحا الجد من نومه ، فقام بترتيب سريره ، ويروى زرعته
اللبلاب في الأضيض الكبير منزعجا من أوراقها الذابلة ، ثم تشاغل
بتأمل عسكري الداورية في نهاية نوبته وبعض المسرعين الى قطار
الفجر .

وعندما علت الشمس وفرشت الطريق ملأ الجد ساعة
الحائط وكانت السادسة والنصف تقريبا فقدمها نصف ساعة
كى يوقظ اهل البيت ، لكنهم كانوا يعرفون لعبته فاستيقظوا
حسب ساعاتهم الخاصة : الابن وزوجة الابن التى اخذت اللبن
من البائع وقامت بغليه ، بينما الجد يوقظ حفيذه الذى كان
يحب ملازمته ويرى فيه نبوغا مبكرا على ولد مثله فى العاشرة .

وعندما ملأت السيارات بدخانها وضجيجها الشارع العمومى
كان الأب والأم قد توجهتا الى عملهما والحفيد قد هروا الى

مدرسته ، فجلس الجد وحيدا يطالع الجريدة بادئا بصفحة
الوفيات فصحة الحوادث واخيرا اخبار الصفحة الاولى ،
ولما فرغ ذهب الى مقهى الناصية وجلس مع بعض رفقاء السن ،
وتحدثوا عن الماضى وتعجب معهم من الأجيال الجديدة ومن
غلاء المعيشة ، ولما عبرت جنازة أحد الموتى من امامهم سألوا
عن اسمه وظلوا يتحدثون عن أصله وفصله وممتلكاته ، وعن عمره
الذى عاشه والمرضى الذى مات به ، غير أن الجد لم يشاركهم
وقد أحس بانقباض شديد شاعرا بشيخوخته وبثقل أعوامها ،
فتحامل الى المنزل حيث قبع وحيدا حتى عاد ابنه وزوجة ابنه
ثم حفيده الذى لقي بكتبه ثم تناول غداءه على عجل وهو
لا يكاد يجلس فى مقعده ليجرى هابطا الى أقرانه اللاعبين أسفل
البيت متقافزين الكرة فيما بينهم .

بعد صمت طلب الجد - فجأة - من ابنه الاستعداد للذهاب
الى المصورتى لالتقاط صورة تذكارية تضمهم جميعا ، وحاول
الابن تأجيل التنفيذ لكن الجد أصر قائلاً انه يريد صورة
للذكرى .. فرضخ الابن على مضض للرجبة الطارئة وقد لاحظ
رنة الأسى فى صوت الشيخ ، وتبرمت الزوجة وكانت مجعدة
تريد أن تستريح .

لكنهم فى النهاية كانوا أمام آلة التصوير فوق أربعة مقاعد
متجاورة : الجد فى كامل ملابسه بالكرافتة العتيقة ، والابن
متضايق وقد اضطر الى مجاراته رغم حرارة الجو ، والزوجة
مستسلمة والحفيد أكثر ضيقاً لا يكف عن القلقلة وقد سحبوه
سحباً من وسط اللعب مع أصحابه وأحاطوا عنقه بكرافتة صغيرة
لم يألّفها من قبل .

نظر الابن الى ابيه فوجده مشرباً بعنقه في جلسة صارمة
فقلده ، وغمز الى زوجته ان تفعل مثلها ففعلت بعد ان بذلت
مجهودا كبيرا في تثبيت ولدها على نفس الوضع ، ثم اراح
الجد كفيه فوق ركبتيه مكملًا جلسة التصوير ، ففعل مثله الابن
ثم الزوجة التي لا حظت هذا التعديل من نفسها ونفذته منتظرة
ان يقلدهم الولد ، فلما لم يفعل أخذت كفيه بعصبية ووضعتهم
على فخذه ، غير انه أبعدهما ضجرا فأعادتهما وفي النهاية
رضخ متمللاً .

وبعد ان صار الأربعة في وضع التصوير انهمك المصور في
إضافة لمسات الاضاءة الأخيرة ، وقبل ان ينتهى منها كان زهق
الحفيد قد تضاعف فتحرك بغية الانصراف ، لكن الأم نهته
وثبتت وضعه على شاكلة أوضاعهم ، وتوعدته بالضرب ان هو
تحرك قبل التقاط الصورة ، وعاد المصور يستعد بينما ضيق
الولد يتزايد واحساسه بخنقة الكرافطة يتضاخم فمد يده في
عصبية وفكها ، وتوقف المصور مستاء ، واغتاضت الأم وشعر
زوجها بالحرج ، واستفزع الجد هذا الخروج عن الوضع !!

بسرعة أعادت الأم ربط الكرافطة من حول عنق الولد
وكررت وعيدها له بالضربات ان هو كسر سكون اللقطة .. ثم
عادوا الى وضع الثبات محاكين جلسة الجد .

وعندما هم المصور بالتقاط الصورة لاحظ التجهم على
الوجوه فطالب بإبتسامات خفيفة .. وفي حلق وضع الجد
إبتسامة من فوق تجاعيده الفائرة ، ثم الابن ، ثم رسمت الزوجة
إبتسامتها الخاصة ، بينما الحفيد على وشك الانفجار بكاء

وقد تذكر انهم حرموه من لعب الكرة مع رفاقه ، وخايلوه والحوأ
عليه طويلا بالابتسام .

وفي الوهلة التى خيل فيها للمصور ان الحفيد قد امثل
وابتسم سارع بلقط الصورة ، لكنه عندما حمضها وطبعها
وكبرها وجد الدموع تملأ عينيه .. ورغم انه لجأ الى الرتوش
الا أن لمعة الدموع فى عيني الولد ظلت واضحة الى جانب ثلاث
ابتسامات مصطنعة لوالديه ولجده .

شكاوى ملاك الموت الفصيح

- ١ -

الظلام يحيطه من كل صوب ، الصدر يلهث . وصوت
المطر ينهمر في الخارج .. قال في بسمه تودد :

- اتعرفنى ؟؟

قربت الشمعة منه : الملبس انيق ، الملمح وسيم ! وانحناءة
مهذبة كشفت عن سترة بللها المطر .. قال في توجس :

- اتخافنى ؟ !

أطرقت صامتا مداريا لهب الشمعة بكفى عن الهواء
الساقت .. فهمس في أسي :

- تخشاني اذن !!

شكله ليس كما في الرسوم ، ومازال يلهث - العجيب
انه يلهث ! - قلت :

- الطابق مرتفع ، لماذا لم تستعمل المصعد ؟ !

نظرة رصينة منه الى الشمعة ذكرتنى بانقطاع التيار الكهربائى . برفت عيناه :

- لعلك كنت تترقبنى ؟ !

تضاعف صوت القطرات الثقيلة ، هزرت رأسى منكرا قال :

- لا تفزع ، انها زيارة ودية ، لا اكثر .

تراجعت على مضض مفسحا له الباب .

- ٢ -

الشمعة بيننا فوق التراييزة الواطئة ، أحدثت ظلا لأنفه وسوادا فى تجويفى العينين وهبوطى الخدين وبقعة عند الفم - صار وجهه كما فى الرسوم - دق قلبى رهبة .. عاد يقول :

- لعلك كنت تترقبنى ؟؟

انكرت بهزة رأس عصبية ، والظلام كثيف خارج الشرفة ، وخياله لا ينعكس فوق الزجاج !

عند اول تساقط المطر توهمت سماع ثلاث نقرات فوق شيش النافذة ، فتحته واجفا فلم أجد أحدا غير المطر الفزير ، ثم انقطع تيار الكهرباء وانسحب النور من لمبات المنازل والشوارع فشعرت بالتوتر ، ثم دوى الرعد ولم يكن فى السماء برق فدام الظلام ، رعد بلا برق فتملكتنى رعشة كبيرة ، وظللت اتحسس طريقى حتى عثرت على موضع الولاة ثم الشمعة التى تنصهر الآن ، فلما سمعت طرقات على الباب كذبت أذنى لأنها كانت ثلاث طرقات أيضا ، ثلاث دقات .

مددت يدي بعلبة السجائر .

— سيجارة؟؟

— لا ادخن

— هل أعد لك قهوة؟؟

— لا أشربها

— شاي؟؟

لا أشرب جميع المنبهات

بحافظ على أعصابه !! — ولكن هل له أعصاب؟؟ —
سألته :

— شيء مثلج اذن؟؟

— المثلجات تلف الأسنان

ويحرص على أسنانه !! — فهل له أسنان أيضا ؟! — خرج
صوتي مرعشا :

— فاي شيء أقدمه لك؟؟

— لا نقلق ، مجرد وقت للحديث

— احساس بالملل اذن !!

أشعلت شمعة اضافية فصار له ظلان فوق الحائط ،
وتعجبت ان كان هو أيضا يشعر بالملل مثلنا .. لكنى جاملته :

— تحت أمرك

قال :

٦٥:

(م ه - الوليف)

- فلنبدا بالسؤال التقليدي والكلام يجر بعضه ، كيف ترى الحياة ؟؟

- الحياة ؟ !

- نعم الحياة

احترت بماذا اجيب ، قلت :

- لا بأس ، وهذا هو الجواب التقليدي

- والجواب الحقيقي

انسال زذاذ المطر متعرجا فوق الزجاج وقلت :

- من أعرفهم مأزومين مهزومين ، ومن لا أعرفهم يتشاكون

همسا أو جهارا من مر الأيام

- الجميع ؟ !

أومات ..

- كل الرجال وكل النساء ؟ !

- نعم .. تقريبا ، صارت الحياة نارا ولا نار جهنم

- غريبة !!

فكرت ان أسأله عن جهنم ان كان قد رآها ، لكنني اكملت :

- المصائب تقع كل يوم ومصائب الغد لم تأت بعد ، واكتظت

الأرض بأمراض العصر وهي كثيرة .

- أحقا ؟ !

— منها على سبيل المثال غلاء المعيشة والانفجار السكاني
وازمات المواصلات والمساكن ، وتناقص الغذاء وتزايد الضجيج
والدخان والأربسة والحروب .

قاطعنى فى سأم ليكمل فى رتابة :

— ومنها أيضا انكماش الخب بين الناس وطرده الزيف
للحقيقة ، واحساس الفرد بانه نكرة تحسم جلائل الأمور فى
غيابه ، وتطاحن الأجيال وقمع الكبار للصغار ، والقنوط وضغط
الأحذية الثقيلة .

زادت دهشتى ، وزاد ضجره وهو يردد :

— ومعظم الناس تعميهم نفاهاة اللحظة الراهنة ،
ما يسمعونها اليوم تكرر لما سمعوه بالأمس ، وأحدث مشاهداتهم
تكرر لأقدمها ، ركود ورتابة ، وهذا هو حال البشر ، يتوهمون
انهم يمارسون دورا وهم فى الحقيقة بلا دور !!

— انت تعرف كل شئ فلماذا تسأل ؟ ! هذا هو حال
البشر ؟

فتح كفيه فى حيرة :

— فالمنطقى اذن ان يرحبوا بى ، اليس كذلك ؟ !

— ٣ —

لم أرد وكانت السمعة الأولى قد قاربت الدبول فتشأقلت
باشعال الثالثة ، ومع ارتعاشة يدي اهتز له ظلا ثالثا باهتا ،
لكنى لم أقدر على تمييز عينيه ! .. وقال سأمان شاكيا :

- قبل أن أحيثك قابلت آخرين من شتى الأعمار والأجناس ، قالوا لى نفس كلامك بشبيه عباراتك ، فهل معنى هذا ان جميع الناس تعساء ؟ !

- انها الحياة وغرير من يكابر .

- المتزوجون منهم والعزاب ؟ !

- المتزوجون يعانون السأم والندم وفتور العاطفة وذبول الرغبة ، والعزاب تضجرهم برودة الوحدة وتوهان العاطفة وحصار التقاليد السخيفة لهم .

- § -

هز راسه امتعاضا وتنبهت الى ان المطر قد كف ، عدا قطرات ثقيلة ظلت تتساقط فى تواتر ممل ، يبدو انها من افريز الشرفة العلوية .. صوت قطرة فبرهة صمت .. ثم قطرة .. ثم ذبلت السمعة الاولى وترنج لهبها وانطقات ، وصارت ظلاله اثنين ، وهمس :

- تلك صورة شديدة القتامة للحياة !

- بل بشعة ، وقد نشرت الجرائد بعض الصور لفتيان ظهرت عليهم دلائل الشبخوخة المبكرة ، فشابت شعورهم وتجعدت وجوههم وانحنت ظهورهم رغم انهم عند العشرين !

- اعرف هؤلاء الفتيان الشيوخ وقد زرت واحدا منهم ، ولكن هل انا المسئول عن كل هذا ؟ !

- لا تندهش ان قلت لك ان الحياة صارت هى المرض ، والموت هو الشفاء كمجرى الماء للتائه فى الصحراء .

تشاكى جسده مهتزا :

- فهل تعنون ذلك جيدا ؟ !

ارتبكت وبردت اطرافى ، وكان يحملق بشدة نحوى
فارتجفت .

- ٥ -

.. بينما النقرات الرتيبة فى الخارج : قطرة .. فضمت ..
ثم قطرة .. ثم سألتى فى انفعال اليم :

- لم تجبنى : هل انا المسئول عن حياتكم هذه التى
تسميها فظيعة وكئيبة ؟ !

انكرت بهزة رأس متوجسة ، فقرب الشمعة من وجهه -
ارتجفت - وسأل :

- هل خلقتى مربعة منفرة ؟ !

انكرت بهزة مرتعشة ، وسمعت قطرة خافتة تبعها صمت
ممدود .. ثم أخذ يسعل شرقان - هل أصبح معتل الصحة ؟ ! -
واحضرت له كوب ماء نظر اليه ولم يشرب ، والشمعة ترتجف
فى يده ، وانسال المنصهر منها على كفه منزلقا الى الأرض ، دق
قلبى رهبة لولا انه تساءل شاكيا :

- ان لم يكن هذا او ذاك فلماذا اذن يمتنى جميع الناس
ولماذا يرضعون أطفالهم كرهى ؟ !

قلت اعزيه :

- لعلك واهم !

تباكى :

- كيف اكون واهما ولقد زرت أحد هؤلاء الفنانين الشيوخ
الذين تحدثت عنهم ، وكان كما وصفته مجعد الوجه شائب
الشعر غائر العينين وفي نفسية منهارة ، ورغم كل ذلك فما أن
رأني حتى أصيب بنفس ما أصابك عند رؤيتي : ذعر وانظرات
كارهة وتحفز للمقاومة ، ولم اكن أبغى منه سوى رفقة سهرة !!

حملق نحوى فلزمت الحذر متراجعا الى ظهر المقعد ..
والقطرات تتلاشى وانفاسى تتسارع .

- ٦ -

.. ثم أعاد الشمعة في عصبية فانطفأت ، وبقيت الواطئة ،
وللفور عاد الظلام الى تجاوب عيني وفمه وهبوطى خديه ،
وناح يشكو ، وأنا ألث :

- كيف اكون واهما وانتم ترسموننى فى الصور بتلك
الهيئة البشعة ، مشوها كالهيكمل العظمى ، برأس فى شكل
الجمجمة ، ثم تضعون فى يدي منجل الحصاد الكئيب ؟ ! كم
انتم قساة ايها الناس !! كم انتم غلاظ !!

وكان الظلام قد حط ، وقد تهدل كل جسده ، فتصيبت
مرقا باردا ، وضباب رمادى يفشى عيني .

- ٧ -

ثم ساد صمت ثقيل عدا صوت نحيبه المكنون .. و ..

دموع

مع اقتراب النهار من نهايته ، سارع الاله رع الذى خلق نفسه بنفسه الى اداء مهمته اليومية ، بأن اغمض عينه الشمس ، ليعم الظلام فوق أنحاء الأرض . . حيث كان شاب نحيل يتباطأ فى الدخول الى داره ، اذ كان يعرف ان سحارة الخبز خالية من الطعام ، وكان جائعا ولم يكن معه ما يحضر به اكلا ، ولم يكن فى سراجيه زيت ليضئ المكان فتحسب طريقه الى فرشته واستلقى عليها منهكا محاولا النوم ، لكن معدته الخاوية منعتة ، وحاول ان يشغل نفسه بالتفكير فى مواضيع شتى عله ينسى جوعه فلم يقدر على التركيز ، واخذ يبتهل الى الاله قائلا :

— اى رع يا من خلقت نار الحياة وانهار المياه ، معدتى الخاوية تملأ راسى بالام الصداغ فاشملنى بعطفك ، انت يا من انشأ الأيام والساعات وجعلت التناسل ، صراخ معدتى يطن فى اذنى فاشملنى بعطفك وارسل برحمة النعاس الى عينى . .

وظل يتقلب في رقدته متأملا حاله وحال الناس ، وخطرت على باله أسئلة محيرة لم يحسمها بأجوبة مقنعة ، وطال الظلام وظن ان الليل الداويل لن ينجلي ، فخشى أن يكون رع قد أسرف في احتساء جعته الالهية وغفى وغفل عن فتح عينه المشمسة .

لكن هواجسه تبددت عندما فتح الاله عينه فتسلل ضوء النهار ، وصاحت دبكة الفجر موقظة الدواب والزواحف ، ورحل سلطان النوم عن اعين الناس فراحوا يفادرون دبارهم ، وعند ذاك هجر الشاب فرسته ، وتوجه الى عمه الكهل ، فوجده جالسا امام داره نحيفا شديد الشحوب والسمرة والتجاعيد ، جلس الى جواره ، وبعد ان حياه وأبدى احترامه سألته :

— يا عمى الطب ، لماذا خلق الاله الانسان ؟؟

تأمله الشيخ برهة ثم رد في ابتسار :

— لأنه حدث ان بكى الاله رع فخلق البشر من دموعه .

طفحت مرارة الشاب :

— ولماذا لم يخلقنا دون الحاجة الى الطعام ؟ !

ادرك الشيخ ان ابن اخيه لم يوفق بعد في العثور على عمل جديد ، ولاحظ عليه هزال الجوع ، وحز في قلبه انه لا يملك ما يطعمه به .. وهتف الشاب :

— ان كان لا بد للاله ان يبكى وان يخلق البشر من دموعه فلماذا جعلهم فقراء واغنياء ؟ !

تلفت الشيخ حوله في حذر ، وكان يخاف ان يكون هناك من ينقل الكلام الى مبساع الفرعون الفارشن جناحيه على الوجهين

القبلى والبحرى ، او الى اسماع كهنة المعبد المبجلين الفارقين فى خيرات الاله الفانية ، فلم يشأ أن يتكلم .. بينما كان الحزن قد غلب الشاب فسالت دموعه على وجنتيه ، ولما تساقطت فوق ظهر كفه نظر اليها وقال متحسرا :

— اما دموعنا نحن فهى لا تخلق شيئا !!

بعد حين خرج الشيخ عن صمته مخفضا من صوته :

— منفردين لا تخلق دموع البشر شيئا ، اما مجتمعين فيمكنها أن تفعل وأن تغير .

وظن الشاب أن العم قد عاد يتكلم بالاحاجى كعادته كلما شاء انهاء الحديث ، فنهض وسار على شاطئ النيل دون هدف ، وعند حدود المدينة وجد نفسه قريبا من قصر الفرعون المرهوب ، ونلصص بنظراته الأنسية الى حديقته فرأى الأميرات والوصيفات تحت ظلال ريش النعام ، والشعب باد عليهن ، فحدث نفسه : « لكن الفرعون ليس مثل البشر فهو منحدر من نسل رع وليس من دموعه » .. ثم اضطر الى الابتعاد متعثرا تطارده نظرات الحراس المستريبة .

وبينما أشعة الاله الحارقة تلهب نافوخه ، وخواء المعدة يعصر ماء الرؤية من عينيه ، اذا به يشاهد الأشياء تفرق فى نصوص شديد ، والسماء تنفرج عن أصناف من الطعام للذبة برائحة شهية — وكان النهر زاخرا بالتماسيح من مختلف الأحجام — وتابع المسير طويلا حتى خارت ساقاه فتوقف وانهار فى مكانه وبدنه يرتجف برعشة عجيبة .

وعندما كان زورق الشمس فى السماء يسبح بالاله صوب الغرب ، خرج من النهر تماسيح كبير نفص الماء عن جسده

الضخم ، ثم استرخى على الشاطئ متثابا وهو يرمق الشاب
بنظرات كسول ، وقد تجمعت حول عينيه عدة قطرات بدت
كالدموع .. وخرجت كذلك من قصر الفرعون محفة ملكية ،
يحملها أربعة من العبيد وبداخلها أجمل أميرات القصر ، وكانت
تهوى مشاهدة مياه النهر وقد اصطبغت بذهب الغروب ، وقد
ألف ان تجد المكان خالبا الا من التماسيح ، لكنها هذه المرة
وجدت انسانا يجلس في مواجهة التماسيح ، والاثنان يرمقان
بعضهما ، ولاحظت ان التماسيح بتثاءب وانه في تثاؤبه يقترب
من الانسان ، وان قرفصة هذا الانسان تعكس حزنا مريرا
ويأسا كبيرا .

وقد رآها الشاب وهي ترنو اليه في عطف ، وهي توقف
المحفة وتنساب نحوه كالطيف الرقيق ، وتداعب شعره في حنان ،
فابتسم لها وهو يظن ان ما به حلم لأن جسده كان مازال يرتجف
وكانها رعشة الحمى .. لكنها اخذته الى المحفة التي حملها
العبيد الأربعة الى القصر ، وهناك شاهد عن قرب الوصفات
بأجسادهن الجميلة والشبع باد عليهن ، ودخل مخبز القصر
وراقته رائحة الخبز ، وزار المطبخ الملكي فوجد من الطعام
ما ملأ معدته بأشهى المذاق ، وتمنى لو أرسل بعضا الى عمه
النحيف . ثم دخل معصر الجعة ، ورشف قدرا منها وخمن ان
لذة مذاقها لا تفوقها لذة ابة جعة أخرى ما عدا جعة الاله رع
بالطبع .. وبعد ذلك جعلته الأميرة يستحم ويتعطر ، ثم اخذته
الى غرفتها الرائعة ، ولاحظ أنها جميلة وقوية وفي صحة جيدة ،
وان شذى عطرها الملكي بدبعا .. وعند الفجر نام وهي في
حضنه ، وبعد ظهر اليوم التالى استيقظا على مهل ، سارع هو
بزيارة المطبخ مرة ثانية حيث ملأ معدته متدوقا من كل وعاء ،

ثم هروا الى معصر الجعة وشرب .. وقبل الغروب لاحظ أن
الأميرة تتجمل وتتزين استعدادا للخروج ، وفهم أنها خارجة في
نزهتها المقيبية ، وتوقع أن تجد عند ضفة النهر شابا حزينا
يائسا فتعطف عليه وتحضره الى قصر أبيها الفرعون الموقر فيفقد
هو مكانه ، لذلك تجرا وطلب منها عدم الخروج ، واستهولت
سموها جرائته ، وعندما أصرت عبيدها بضربه ، فتكالبوا عليه
منفذين ارادتها التي لا ترد ، ثم حملوه الى الشاطئ حيث القوه .

فعاادت الرجفة تنتاب جسده المتقرفص ، وملأت الدموع
عينيه ، بينما التمساح المتثائب يزحف بطيئا ناحيته ، وعندما
دنا منه انقض عليه بفمه الواسع .. وبعد أن ابتلع جميع بدنه
شعر بالعطش ، فنزل الى النهر حيث ارتوى ، ثم عاد يسترخى
فوق الشاطئ وقد تجمعت حول عينيه بضعة قطرات ، بدت
تحت اشعة المغيب كالدموع الذهبية .. بينما عند أقصى غروب
الأفق كان الاله رع الذي لم يولد ولا يموت يسارع باغماض
عينه ليعم الظلام فوق أرجاء المعمورة .

رحيل

جاءنى الرنين ..

كصوت مبهم فى حلم ، كهاتف من مكان ناء سحيق ، اقترب
رويدا حتى علا فتقلبت فى نومى ، وتأكدت أنه جرس الباب .

تسالت فى خفة كى لا اوقف زوجتى ، واضأت نور الصالة
وسالت :

— من ؟؟

جاءنى جوابه :

— أنا ..

لم اتنبه الى رنة الحزن ، وان كان الصوت شبيه صوته .
فتحت الباب فوجدته :

— اخى الأصفر !!

احتضنته في شوق ، أم يبادلني الحزن وظلت ذراعاه
متهدلتين الى جانبه .. لكنى رحبت به :

— يا ألف اهلا والف سهلا ..

همس :

— اهلا بك ..

صدمتني الأحزان المرتعشة مع رنين صوته .. تراجع
اتأمله لكن زوجتى خرجت من غرفة النوم تلملم ثوبها .. ارتبك
واعتذر عن ايقاظها . كررت ترحيبها وسارت نحو باب المطبخ :

— سأعد لك العشاء ، لابد أنك جائع .

قال :

— لا . أشكرك ..

قلت له :

— بعد سفرة طويلة يجوع المسافر .

قال :

— بعد سفرة كثيفة تنسد شهية المسافر .

ثم توجه زائع البصر صوب غرفته ، فأسرعت واضأتها له .
وقف عند مدخلها متفحصا : على حالها كما تركها منذ سنوات ..
رفت على جانب فمه نصف بسمة اسيانة ، وساجت عناه الى
كتبه القديمة داخل المكتبة ، وصورة له خلف زجاجها يضحك
مرحاً وسط زملاء رحلة مدرسية .. ثم تقدم الى الشماعة
حيث بنطلونه الرمادي البالي ، وتحسس الشرخ في زجاج
النافذة .. استدار ونظر طويلا الى صورة الكبش الأبيض القافر

الى الهواء من فوق الصخرة الكبيرة - وكان هو الذى علقها -
ثم مال ونظر تحت السرير وسحب التيشبب الجلدى ، نفخ
التراب من فوقه وجلس يخلع نعليه .. ولما صاح زوجتى
من الصالة بان المعتاء قد أعد قال :

- ليست لى رغبة .

فجاءت وغيرت له ملاءة السرير وظلت تلح عليه بالأكل
فكرر كلامه بعدم رغبته ، اسمعته بعض عبارات الترحيب
واستأذنت لتنام وبقيت أنا معه .

استلقى على ظهره ناظرا الى سقف الغرفة ، وكان صوت
مذياع الجيران يصل إلينا واضحا ، قلت له :

- جميل ان تزورنا بعد كل هذه الأعوام ..

أوما بهزة واحدة . سألته :

- كيف حال العاصمة ؟؟

مط شفتيه . قلت :

- عل أحوالك كانت حسنة ؟؟

ابتسامة قانطة عند جانبي فمه .. وساد الصمت بيننا ،
وسمعت ضحكات كثيرة مصدرها راديو الجيران . سألته :

- هل تذكر ليلى ؟

قرب من حاجبيه . قلت :

- لقد تزوجت وسمنت وصار شكلها بشعا . انقذك منها
ذلك الذى تزوجها .

ظل عازفا من الكلام . بعد صمت قلت :

- في الأسبوع الماضى زرت قبر أبينا فوجدته منبوشا
والعظام منثورة ، وعثرت على آثار أقدام بعض الدئاب او الضباع ،
ولم أجد فائدة من ابلاغ الشرطة .

الصمت لفترة أطول ، عدا الضحكات فى مذياع الجيران .
سأله :

- هل احضر لك الترايزستور ؟؟ فى المذياع تمثيلية
هزلية ..

رفض ذلك . قلت :

- اراك حزينا ؟ !

-

راعنى امتقاع وجهه . كررت :

- ان التمثيلية فى المذياع تضحك !!

ان صوته :

- اعمل معروفا . اتركنى الآن ..

لم تهن على مغادرته . اقتربت منه :

- ليس حالك على ما يرام ؟ ! هل احضر لك طبيبا ؟ !

هز رأسه رفضا فاهتز السرير .

- أتمر بأزمة مالية ؟؟

الابتسامة البائسة . هتفت :

- ان كانت النقود فانا فى خدمتك .
- تحركت شفتاه لكنى لم اسمع صوتا . سألت :
- ماذا تقول ؟؟
- همس :
- اقول شكرا ..
- اهى مشكلة عاطفية اذن ؟؟
- لم ينطق . ملت نحوه :
- لاشيء يستحق الألم فى هذا العالم .. ان كان حزنك
من اجل فتاة غادرة فالجماليات كثيرات والى فتاة تتمناك
وتسعد بك ..
- خرج صوته مكلوما :
- ارجوك اتركنى الآن ..
- امتاعب فى العمل ؟؟
- هزة عصبية نافية . احترت :
- ان كان المال والحب والعمل على ما يرام فمن أين
تأتى الأحزان اذن ؟ !
- توسل هامسا :
- ارجوك دعنى بمفردى ..
- ألا تريد أن تتكلم ؟ !
-

— أرجوك تكلم ..

—

— الا تريد ان تقول شيئا ؟ !

ابتلت عيناه . الحفت :

— ليس لديك ما تقوله ؟ !

— تعب انا . اتركنى وحيدا ..

— قل .. الكلام يريحك ..

نقد الصبر في صوته :

— اعمل معروفا ..

فتركته يستريح وقلت 'الصباح رباح .. وقبل ان اطفىء
النور شاهدته يتأمل صورة الكبش الأبيض المنساب في قفزته
الرشيقة الى فراغ الصورة ، ثملقى بكفيه فوق صدره
وحملق في سقف الغرفة .

استلقيت الى جوار زوجتي مهموما مكدودا ، ارادت ان
تحادثني عن مشاكلها مع تلاميذها ومع ناظر المدرسة ، فلم ارد
عليها .. سكنت حيناً ثم سكنت الى من الباعة ومن الاسعار .
وقالت ان كل شيء صار مقرفا ، فلزمت الصمت .. سكنت
وقتا آخر ثم تنهدت ويبدو انها قالت بان الانسان عجيب حقا
صعد الى الفضاء ولم يهزم الامراض ، لم أجبها وابتعدت عنها
فكفت عن الكلام .. وعدت أفكر في عزوف أخى عن الحديث
وعن الطعام ، وتذكرت أمي وهي تهتف حائقة : « الولد
الشیطان !! غافلني مرة أخرى وذهب يلعب عند الفجر !! » ..

ثم وهى تطلب منى أن احضره لها . فتوجهت جنوبا ووجدته
عند المعبد القديم منكوش الشعر يتقافز مع الماعز ويحاورها
بين الكلا ومن حول اصنام الفراعنة المتهمة .

انتهى الضحك فى مدياع الجيران ، وبعد موجز الأخبار بدأ
السلام الجمهورى بعزف ، لكن الصمت عم قبل نهايته ، فبدأت
اسمع صوت انفاسى المضطربة .. تقلبت زوجتى وسألتنى :

– إيجافيك النوم ؟؟

تنهدت ولم انطق التصقت بى موشوشة :

– جربت من قبل وسيلة ناجحة للنوم ، حاولها الآن ..

ثم احاطتنى بذراعيها ومدت أناملها تعبت فى شعر صدرى .
استدردت نحوها وشممت رائحتها وشعرت بثدييها فى صدرى .
جامعتها ، وبعد أن فرغت سألتها ان كانت قد تناولت حبة
منع الحمل ؟ ! فزامت واعطتنى ظهرها وانكمشت على نفسها ..

وعند الصباح توجهت اليه .. فتحت بابه فى هدوء ،
فوجدته فى نفس رقدته ، محمقا فى سقف الغرفة بكفيه فوق
صدره ! .. ارتعت : كانت عيناه محمرتين ووجهه شديد
الصفرة وتنفسه طويلا بطيئا ، والغطاء لم يمس جسده !! ..
سألته :

– ألم تنم ؟؟

–

توسلت اليه أن يحادثنى :

– ماذا فعلو بك ؟ ! ألا تتكلم ؟ !

ظل ساكنا .

— الا تقول شيئا ؟ !

رمشت عيناه .

— تكلم أرجوك ..

فطلب منى كوب ماء . اندهشت : على الريق ؟ ! .. فكرر رجاءه وأحضرت له ، وتحامل في نصف جلسة وازدرد بلعة واحدة ، استلقى بعدها .. وسألته ان كان يذكر ضاربة الودع؟؟ فاتجهت عيناه نحوى لكنه لم يكن ينظر الى ، قلت محاولا الابتسام :

— ضاربة الودع الفجرية التي قرأت لك طالعك ثم أعطتك الحجاب ؟ !

تحركت شفتاه ، لكنى لم اسمع همسة واحدة .. فتهدج صوتى وهتفت :

— ماذا فعلوا بى ؟ ! ماذا فعلوا بك ؟ !

وعندما أغمض عينيه عادنى صوت أمى تصيح متبرمة :
« لا فائدة فى هذا الولد ، غافلنى كعادته وذهب يلعب عند الفجر » !!

امتلات عيناى بالدموع ورأيت الكبش الأبيض يسبح بعيدا عن الصخرة السوداء ، وشعره المتهدل يتموج منسابا أسفل ذقنه وبطنه ، وبياضه يروح ويشحب بطيئا ليزوب فى بياض الفراغ الناصع .

النظرة فالابتسامة . . والعمر القصير

- مصرى ؟؟

- نعم

ازاحت شعرها الذهبى ، غائصة فى عينى :

- يعجبنى لون عينيك ، أهو بنى ؟؟

- اظن ذلك

اربكتنى زرقة عينها ، مالت نحوى مبتسمة :

- فانت من بلد الأهرامات وأبو الهول ، أهو جدك ؟؟

- من ؟؟

- أبو الهول .

- أبو الهول أسد له وجه انسان !!

- وهل هناك جد أروع من هذا ؟ !

- وهل هناك شفاة ابدع من هذه ؟ !
 سحرتنى حيوتها . قلت :
- كان زهوهم الأكبر انهم من نسل الملوك الحكماء
 — من هم ؟؟
 — جدودى القدماء
 نضارة بلا مساحيق ، وصفاء مريح ، وطيبة ..
 سألتنى :
- لماذا تكلمت معى ؟؟
 — رأيتك تنظرين لى أكثر من مرة فتشجعت وخاطبتك
 — وهل محادثة الآخرين تحتاج الى شجاعة ؟ !
 — مجالستك انت تحتاج الى شجاعة .
 — لابد اننى مخيفة ؟ !
 — بل لائىك جميلة ورقيقة
 بسمه راضية ، وعيناها لا تفارقنى ، فهربت بنظراتى الى
 عاملة المقهى والزبائن واكواب الشاى وزجاجات البيرة ، وسمعتها
 تقول :
- امتلا المكان بدخان السجائر ، فهل نخرج لنتمشى ؟؟
 النور الأخضر ، وعبرنا الحديقة الفسيحة ، حيث الزهور
 والنافورات ، والأطفال فى ركنهم الخاص بالمراجيح والزلاقات ..
 قالت :
- تعجبنى ابتسامتك ، لماذا لا تبسّم دوما ؟؟

- تعجبني عيناك ، لماذا لا تنظرين لى دوما ؟؟

واجهتنى بنظرة ثابتة ، متراجعة أمامى بنفس مشيتى ،
والى أن لامست المقعد الخشبى فجلست ، وجاورتها ،
واستدارت ، فعدت أهرب من زرقة عينيها .. قالت فى مرح :

- لا تدع امرأة تنفرد بعينيك طويلا ، ألم يحذروك من
هذا ؟ !

- من ؟؟

- جدودك الملوك الحكماء !!

- أظنهم قالوه فى جلسة خاصة

تشاغلتنى عنى بأحد الأطفال ، راحت تداعبه وتلاعبه
وتقبله وتلاعبه ، ثم سلمته الى أمه وجاءتنى متوردة ، تقترح
زيارة أثر قريب .. قالت تغريبنى :

- شيدته جدودى البسطاء منذ مائتى عام

لم اتحمس ، قالت :

- الآن جدودى لم يكونوا ملوكا أو حكماء ؟ !

- بل لأن دارنا فى الصعيد له نفس العمر تقريبا

- هكذا اذن ، نسيت انك من مصر !

عيناها .. قالت :

- قبل أن تجالسنى كنت تكتب بطاقة لشخص ما ،
أكانت لزوجتك ؟؟

- ليست لى زوجة

— حبيبة اذن ؟؟

— صديقة

مسكت معصمى تنظر الى الساعة :

— يمكنك الآن اكمالها ، يجب ان اعود الى عملى فورا

— وبعد العمل ؟؟

— ان كنت تعنى ان نلتقى بعد ذلك فانا غير مرتبطة

مضت .. وتسكمت وقتا دون هدف ، الناس من حولي
مسرعون ، عدا ثنائيات المحبين ، بالنضارة والصفاء ، وشابة
عند الناصية حائرة النظرة بين ساعة المعصم والترقب فى اتجاه
معين ، لاح منه صديقها اليافع ، فاندفعت تقبله ، متدفقة
وهو واثق .. لاحظت اننى الوحيد الذى يراقبهما ، فشعرت
بالخجل والبلاهة ، واستدرت منصرفا ، ورحت انتشى بالحسن
والتناغم ، والتلاؤم بين الناس والأشياء ، جاءت على ذهنى
شوارع القاهرة فأبعدتها على الفور .

مع اقتراب الموعد توجهت الى مكان اللقاء ، جلست انظر
الى ساعتى مشتاقا ، وعندما مددت يدى الى جيبى وجدت
البطاقة الناقصة ، فقلت املا الوقت باكمالها ، قرأت المكتوب :

« خطيبتى العزيزة ، اكتب لك بمجرد وصولى ، كما
وعدتك » .

امسكت القلم افكر ، وتذكرت لقاء الوداع ، وكفى خطيبتى
فى صدرى ، تصدان رغبتى فى تقبيلها ! .. والخيبة فى وجهها

وانا أحدثها عن شقتى ، قالت : « غرفتان فقط ؟ ! هذا امر
جديد على اسرتنا !! » .. ثم صدت رغبتى الصادقة بكفيها !!

تأكدت من هروب الكلمات ، ركنت القلم والبطاقة ،
ووجدتني افكر فيمن انظرها ، والتي لم اعرف اسمها بعد ،
شاعرا بشوق عجيب اليها وحنين !

احمر وجهي مع بسمه مجيئها ، ولمحت هي البطاقة
فتمعنت فيها محتارة :

- تكتبون من اليمين الى اليسار ؟؟

- نعم

- يبدو كالرسم ، هل تأخرت عليك ؟؟

- في موعدك تماما

تأملت الخط :

- يبدو انك لم تكمل بطاقة صديقتك ؟ !

- خطيبتى

- قلت انها صديقتك ؟؟

- كذبت

- واين الدبلة ، الا تستعملونها ؟؟

- مع المفاتيح في السلسلة

- ولماذا الكذب ؟ !

- أطرقت خجلا . قالت فى سماحة :
- هل خشيت الا اقابلك الآن ؟؟
- أظن ذلك
- لم تكذب اذن ، كنت تحرص على ، وهذه رقة منك
- أحسست بتجاعيدى الدقيقة تتلاشى
- شاهدت رموشها يمشا رمشا .. وضعت أمامى علبة
- صغيرة :
- كولونيا لبعء الحلاقة
- لى ؟؟
- لن تكون لى !!
- ابتسمت مأخوذا . قالت :
- كم تعجبنى ابتسامتك !!
- أشكرك على هذه الهدية الرقيقة
- رقيقة وماكرة ، كى تتذكرنى بعد حلاقة كل صباح
- تأملت شفتيها ، فاشمت خدى :
- وقد تداوم على استعمال هذا النوع
- سألتها :
- لماذا لم تتزوجى حتى الآن ؟؟
- كدت أفعها مرتين ، لكنى فشلت

– أمر مؤسف

– لماذا ؟ ! ان تكتشف عدم التوافق قبل الزواج افضل
من ان تفجع به بعده .. أليس كذلك ؟؟

– .. !!

– الا توافقني ان اكتشاف عدم التوافق قبل الزواج
افضل واصدق ؟ !

– طبعا طبعا ..

اشاحت بيدها متذكرة :

– اوه .. نسيت انكم تهتمون كثيرا بالغشاء !!

بعد العشاء ، بدأت الموسيقى بالرقصات الهادئة ،
البطيئة .. ومعظم الراقصين من كبار السن وعدد قليل من
الصغار ، الكبار منضبطون تماما مع الايقاع ، خطوة وخطوتان
حسب القواعد والأصول ، أما رقص الصغار فأربع أباد تحتوى
جسدين متآلفين .

دعتنى الى الرقص .. واحتوتنى ناعمة ، النظرة فى النظرة،
ثم الخد على الخد ، شمتنى وشممتها وتساوت حرارة جسدينا،
الخطوات بطيئة والأحاسيس نشطة ، حلوة متفاهمة .

التهب الايقاع وجن ، فتى أرعن ، فاشتعل جسدها ،
واتقدت نظراتها ، وخلت الساحة تماما للشباب ، متقاربين تأججا
ومزاجا ، كأنهم راقص واحد وراقصة .. شرد ذهنى الى
جلسات المقاهى والشيخة والطاولة ، لكنها أعادتني هاتفة :

— ابتسم

ابتسمت فلتمت خدى .

وجاءت الاستراحة وجلسنا الى المائدة ، والى احاديث
التعارف ، عن حياتها وعن حياتى .. وانخطفت السهرة ، من
رقص هادىء رزين ، الى لهث صاحب مشحون ، الى جلسات
ناعمة هنية ، واخذنا الوقت صدقا وتلقائيا ..

جاءتنى من الحمام كالطيف ، وديعة حانية ، مشتاقة
كاننى حبيب عمرها ، تؤكد النظرة بلمسة الأنامل .. وفى نفس
الاشراقة كان التدفق ، منها ومنى ، ولهفتها فواحة الأنوثة ،
وقد نقص طولها بمقدار حداثها المخلوع .

لحظات وامضة وزالت ربكتى ، وطافت هى بى الى
أحاسيس عذبة نقية ، خالية من التصنع فأشعرتنى كأننى حبيبها
فى لقاء أول ، عشيقها فى تفاهم متجدد ، زوجها فى شهر العسل ،
كاننى رفيق سنواتها الحلوة والمرة .

فى الصباح الباكر راقبتها ترتدى ، وتزين فى بساطة
وخفة . أقت لى قبلة عبر المرأة ، سألتها :

— متى نلتقى ؟؟

— فى نفس موعد الغداء

تناولت حقيبتها :

— هذا ان شعرت بحنين لى ورغبة

لثمتنى :

— وأنا بدورى سانتظرك ان شعرت بلهفة اليك وشوق

عند الباب قالت :

— اذا لم يجد احدنا الآخر فلا داعى لأن يجهد نفسه فى

البحث عنه ..

انصرفت .. وراقبتها من النافذة تعبر الحديقة ،
وتغيب .. ثم رابت اما تؤرجح طفيلتها فوق الأرجوحة ، ثم الطفلة
بدورها تؤرجح دميتهما ، لتمضى بعد ذلك فى أعقاب أمها ،
ووجدت نفسى أهتف فى أسى : « أين أنت يا شوقى بك ؟؟
يا شاعر النظرة فالإتسامة فالوعد فاللقاء ؟ ! هانذا قد عشت
تجربة شهورك المبددة فى يوم واحد ، دون افتعال ، دون وقت
ضائع ، دون صد كفين » .

بعد الحلاقة تذكرت هدية الكولونيا .. وعلى مائدة الافطار
اكتشفت ان البطاقة مازالت فى جيبى ناقصة ، وانى لم ادون
التاريخ فى بدايتها !! .. سجلته ، ثم رحت أفكر ان كان هناك
كلام يمكن ان أضيفه ، فلم أجد سوى ثلاث كلمات : « الناس
هنا يعيشون .. »



الأيام التالية

لا يذكر البداية

يلوم نفسه لأنه لم يحدد مواعده في وقت مبكر ، لماذا بعد الظهر واليوم عطلة ؟ !

يعود الى جريدة الصباح محاولا القراءة لكنه لا يقدر على التركيز ، يقرأ طالعه اليوم ويبتسم ، ويركن الجريدة ليتابع خطوات زوجته المنشغلة في شئون البيت ، لا تعلق بقدميها كثيرا عند السير ، وانبعاجات عديدة أثقلت جسدها ترهلا ..

يسمع صوت « السيفون » ، ثم يرى ابنه الكبير يخرج من دورة المياه وفي يده احدى الروايات ، يتأمل نحافته وابيضاض وجهه ويتعجب . تأتي ابنته الصغيرة لتجلس لصقا به ، تعبث بالجريدة بعض الوقت ثم تترك لخيالها العنان منطلقة في أسئلتها المحلقة المربكة .. على عكس المرات السابقة لا يستجيب لها ، ويضيق بثرائها وبحلولها الغريبة التي تقترحها لأعسر المشاكل العالمية والكونية .

يدخل الحمام ليحلق ذقنه . على غير عادته ينظر طويلا الى المرأة . يطالعها وجه شاحب اللون وأنف مستطيل ، ويكتشف تجاعيد خفية صغيرة تحصر بينها فما لا يعلوه شارب .. وبقعتين سوداوين فوق كل منهما عين جاحظة تحملقان نحوه !!

يخرج الى الطريق - حتى اللسان رأى به بعض التسققات المصفرة !! أصبحت مفاصل الساق اليسرى تؤلمه - يجد على المقهى شاة العجائز المبكرين فينظر الى ساعته ، ويفكر ان كان يجلس مربيهم ام يسرع الى حفلة الصباح للفيلم الهندي ..

سرعان ما يسود الظلام في صالة العرض ، وتبدأ الجريدة الاخبارية . يخرج علبة السجائر ليشعل واحدة .. قال له الطبيب : اظمئي أنت بخير ، لكنه أمره بالاقبال من التدخين ، فيعيد العلبة ، يرى في الجريدة لقطة لأحد السفراء الأجانب يقدم اوراق اعتماده الى رئيس الجمهورية .. ثم لقطة لصاروخ يهبط فوق سطح القمر ليقلع منه نائبة عائدا ، يدهش جدا ويثنى في سره على عظمة هذا العمل .. ثم يشاهد فقرة مصورة في هيئة الأمم المتحدة لم يفهم نماما المقصود منها .. وبعد ذلك تطالعها بعض الوجوه الصفرة فيرجح أنهم اما من اليابان او من الصين ثم يكتشف أنهم من فيننام ، فيعرب للجالس الى جواره عن شدة اعجابه بكفاح هؤلاء الناس ، لكن جاره بهز رأسه في اقتضاب وعزوف عن الكلام .. ويتعرب بضيق شديد عندما ينهض هذا الجار لينزوى في اقصى الصف ! .. ويجد نفسه يشعل سيجارة رغما عن اوامر الطبيب ورغما عن تعليمات ادارة السينما .

بعد الاستراحة والاعلانات يبدأ الفيلم الكبير . قالوا له في المكتب : انه فيلم ظريف بالألوان الطبيعية ، وانه من أطول

الأفلام الهندية ، وبه رقصات مسلية وأغان كثيرة ممتعة الى جانب أنه يحكى عن حياة بعض المساكين الشرفاء .. وطوال مدة العرض ، لم يمنعه استمتاعه بتكييف الهواء من أن يحزن في حرارة وصدق على فقراء الهند حزنا شديدا .

يخرج من السينما وقد قرب موعده المنشود . يستقل إحدى سيارات التاكسي مخبرا السائق عن وجهته ، يستعيد السائق اسم المكان فبؤكده له .

في الطريق يتساءل : متى كانت أول مرة فكر فيها في هذا المشروع ؟ ! لكنه يأخذ في مراقبة السائرين : تسبقهم الأقدام اليمنى مع الأيدي اليسرى ، ثم تتبادل معها تلقائيا الأقدام اليسرى والأيدي اليمنى ، يتكرر ذلك دائما طالما هم سائرون!! . يتسم ابتسامة نصفية تكتمل عند رؤيته لبعض الأطفال يلعبون .. وتمتلئ نظراته بالاعجاب من بعض النساء الصغيرات ، يهمس في شيء من الحسرة والأسى : أنيقات وفتيات ... وبعد قليل يضيق صدره من رؤية بعض الأماكن القذرة البائسة .

يخف ضجيج المدينة .. ثم يحيط الخلاء بالطريق من الجانبين . وقال الطبيب : عليك ألا تجهد اعصابك كثيرا ... ثم يترامى عن قرب المكان المنشود ، خفيضا كالحامهجورا .. فمتى فكر في الابتعاد عن مكان الأجداد ؟ !

عند نهاية أسفلت الطريق يتوقف به التاكسي ويسأله السائق ان كان سيعود فيرد في غصبة مباغتة :

— طبعا يا أخى ..

— آسف يا سيدى .. أقصد هل ستعود سريعا حتى
انتظرك ؟؟

— كما تحب .. لن اغيب طويلا ..

وتدوس قدماه فوق التراب .

عند نهاية الحارة الترابية يجد المقاول فى انتظاره مبتسما
مرحبا ، يتقدمه ليريه الطريق . لا احياء غيرهما والشمس حامية
والظلال قليلة ، معظم البنايات من حوله واطية لا تعلو كثيرا عن
سطح الأرض ، بعضها عال فاخر الى حد كبير .. طليت الغالبية
بالجير الأبيض وزركش القليل فى بذخ ظاهر .. يتسم فى داخله :
الفوارق الطبقيّة حتى الرمق الأخير ! .. يتجهم وجهه فى قسوة :
التقطيبة هى المظهر الملائم لهذا المكان .. لكن كيف بدأت فكرة
هذا المشروع ومتى كانت أول مرة ؟ !

يتوقف المقاول فيسأله :

— هنا ؟؟

— نعم . موقع ممتاز كما ترى .

يتأمل مساحة الأرض الصغيرة الخالية ، تقرب من مساحة
غرفة الأولاد .

يندهش :

— لكنها لن تكون فسيحة ؟ !

— بل فسيحة بما يكفى يا سيدى ..

ربما .. وقد تكون غرفة الأولاد بادية الضيق لازدحامها
بالأثاث . المقاول يسأل :

- وای لون تفضل ؟؟
- ماذا ؟ !
- ابيض !م ازرق ام سماوى ؟؟ .. جارك هنا جعل اللون فى الداخل بنيا ..
- البنى كئيب ، انا ارتاح الى لون السماء .
- اختيار ينم عن الدوق .
- !شكرك .
- بدون المقاول ملاحظاته فى نوتة صغيرة نم يقول :
- لكن جارك هذا طلى السقف فقط بلون السماء ..
- اريد السقف والجدران ..
- فهل تريد آية رسوم على السقف ؟؟
- ما الداعى ؟ !
- هو رسم بعض النجوم وأربعة ملائكة يبتسمون . مسألة مزاج ..
- اريده بلا رسوم .
- فهل تريد بعض التماثيل ؟؟
- للملائكة أيضا ؟ !
- يمكن أن تكون للملائكة ، ويمكن أن نجهز لك تماثلا نصفيا أو بالحجم الكامل .
- لا داعى ...

... فسوف أتواجد بنفسى .. وعندما كان طفلا سمع
أخاه الأكبر يقول :

((ماما ماتت ، ماما ماتت)) .. ثم رآه ينتحب باكيا فبكى
مثله ، وبعد ذلك صعد الى سطح الدار وطارد الدجاجة الفيومي
.. لكنه بعد سنوات انفرد بالبنت فتحية فزقها في أحد أركان
السطح وأخذ يقبلها ويصت بثدييها الصغيرين ، وقاومته يومها
بضراوة ، لكنها صعدت معه في الأيام التالية .

المقاول يسأل :

- وفي الخارج ؟؟ أى لون تفضل ؟؟

- الأبيض .

- بالزيت أم بالجير ؟؟

- الأفضل بالرخام .

- يكلف كثيرا .

- أبيض بالزيت .

- عظيم .. واللافتة ؟؟

- أية لافتة ؟ !

- لابد أن نضع لافتة بالاسم . جارك هناك كتب عدة

آيات على الرخامة وتحتها حفر اسمه ..

- فلتحفر الاسم فقط ..

يفاجأ بوجود كلب أسود كبير ، يتودد اليهما بهزات ذيله
المتسخ بالطين ، يلقيه المقاول بطوبة ثم يعود ويبتسم ابتسامة
العمل :

— اعطني الصيفة من فضلك حتى اكلف الخطاط
بتجهيزها .

— فلنقل مثلا .. فليكتب اسمى فقط ، لا اكثر ولا اقل .

متى كانت اول مرة فكر فيها في الابتعاد عن مكان الأجداد ؟ !

— باللون الأسود أم المذهب ؟؟

— الأسود اليق .

— تريده بالخط الكوفي أم بالنسخ أم بالرقعة ؟؟

— بالرفعة .. أعتقد بالنسخ أفضل .

— أجمل وأسهل في القراءة ..

— السهولة مطلوبة في هذه الأحوال .

يرمق القاوول وهو بومىء فى جدية ، ثم تتحول عيناه الى
امراة وحيدة فى سواد ، تقف خاشعة فى مواجهة احد الأبنية :
زوج أم ابن أم أخ أم حبيب ؟؟ .. يشرذ ذهنه الى زوجته : من
سيكون الأول ؟؟ لا توحى تجاعيدها ونسبة الشيب فى رأسها
بأنها سوف تكون البادية .. يهز كتفيه : العلم فى الغيب ، وعندما
كان صغيرا كان يظن أن الموت يأتى للآخرين فقط ، أما الآن ! ..
(فجأة يجد نفسه وقد فارق الحياة توا ، وهو مكفن فى ثوب
أبيض وزوجته تبكيه بكاء مرا وهى فى لباس يشبه السارى
الهندي ، بينما العمال فى الساحة يعدون الخطب والوقوف استعدادا
لحرق جسده ، بينما واحد منهم يتأمل جسد الأملة الحزينة) .

يعود الى وجه القاوول ليجد أن ابتسامة العمل قد عادت
الى وجهه وهو يقول :

- نحن ننفذ بكل دقة طلبات الزبائن يا سيدى ..

- هذا واضح ..

- فلا تتضايق من كثرة أسئلتى ..

- أبدا أبدا .

(ثم يرى زوجته تبكى حزينة أمام قارورة صغيرة بها رمان
كل جسده) .. الا ان المقاول بسأله :

- فهل تحب ان نزرع حوضا صغيرا من الزهور أمام
الباب ؟؟

- لا يضر .. ولكن من سيعاه ؟؟

- سندبر ذلك .

- حسن .

- فأى نوع من الزهور تحب ان نزرع ؟؟

- لا افهم فى الأنواع ، أريده وردا بألوان جميلة ورائحة
عطرة .

- هذا له سعر وهذا له سعر ، لكن الفرق ليس كبيرا .

- لون جميل برائحة عطرة .

- سنفعل لك ذلك ، فهل تريد نباتات متسلقة ؟؟

- لبلاب ؟؟

- لبلاب أو فضيية ، فى شهور قليلة يمكن لشجرتين ان
تغطى اوراقهما كل البناية .

يوميء في ملل : الخضرة طيبة . يتابع النوتة وهي تعود الى الجيب .. ويذكر نفسه بالمانجو ، عليه أن يتابع - وهو في طريق العودة - بعضا منها للأولاد ، زاد سعرها كثيرا عن سعر آخر مرة اشتراها ، لكنه سوف يتابع منها ما يكفي أسرته ، الأولاد يحبون المانجو ، خاصة البنت الصغيرة ذات الأسئلة المربكة ، تظل في شرفة البيت تراقب الشارع حتى تراه قادما فتلهل بأعلى صوتها : « بابا عاد .. بابا عاد .. » .

يرجع الى وجه المقاول فيجد ابتسامته التي لا تتغير ، وفمه يقول :

- سوف ننفذ كل ذلك على اكمل وجه يا سيدى ..

(ومن فوره يتخيل البناء مشيدا مظلما وقد ثبتت الالفة باسمه واسم أسرته) - ورأى قفصه الصدرى وهيكله العظمى في صورة غريبة ، فلما أنزل صورة الأشعة عشى الضوء عينيه ، وعندما استبان له وجه الطبيب رآه يبتسم قائلا : « اطمئن . عليك فقط بالاقبال من التدخين والابتعاد عن الاجهاد وتجنب النرفزة ومناطق الضجيج » - فقط !!

يشعر بانتقباض قاس وبدوار خفيف . يبادر قائلا :

- اشكرك . يمكننى الآن أن أمضى ..

- سؤال آخر من فضلك

- تفضيل ؟؟

- القفل ؟؟

- ماذا ؟ !

- طبعا نشتري للباب قفلا ثقيلا متينا ؟
- وما الداعى ؟ !
- لصوص هذه الأيام يتاجرون فى كل شىء .
- يتسم مستسلما مزمعا الانصراف :
- لن يسرقونى !!
- غير ان المقاول يقطب فى جدية :
- سيدى .. كلية الطب تقع قريبا جدا من هذا المكان .

نوفمبر ١٩٧٠

الوباء الرمدى

كان ما رأيته غريبا حقا !! لم أر مثله من قبل ، رغم اننى
رأيت الكثير .

كنت منصرفا عقب ان انهيت زيارتى للمدرسة الثانوية
بالمدينة ، وحدث ان دق جرس الانصراف ، وبدأ التلاميذ
يهربون خارجين من فصولهم صاخبين مهللين .. لكننى لاحظت
ان تلاميذ فصل ثانية علمى خامس كانوا أسرع التلاميذ هرولة ،
فرادى ، وفى هدوء مريب !! وقد تشاغل كل واحد منهم عن
باقى زملائه بترتيب كتبه !! .. وليس هذا هو الأمر الغريب الذى
لفت نظرى ، العجيب حقا ان معظم تلاميذ الفصل كانوا يضعون
فوق عيونهم نظارات سوداء !!

لأول وهلة ظننتهم مكفوفين الا انهم كانوا يعرفون طريقهم
جيذا .. قلت ربما « وباء رمدى » ، سألت الاخصائى
الاجتماعى فقال :

- هذا الفصل الآن اهدأ فصول المدرسة ..
- وقبل ذلك : هل كانوا يضعون هذه النظارات السوداء ؟؟
- على الإطلاق ..
- مددت زيارتي لعدة ايام وقد صممت على معرفة الحقيقة ،
فتقمصتني شخصية المحقق ..

● ماذا قال الطالب فتحي عمار ؟؟ :

- سر الباب . اندفع الناظر . كنت اجلس في الصف
الامامي . وقفنا . رايت خدشين في ذقنه حديث الحلاقة .
جلسنا . قفز بطنه نحوى بشدة (في البداية قال : قفز كرشه
نحوى بشدة ، ثم استدرك وقال : قفز بطنه) فسمعت صوته
نهرنا في حدة : « ثانية علمي خامس . كل المدرسين اشتكوا لى
منكم » . ارتج بطنه متذبذبا منتفخا مسحوبا حسب عنف
التستائم . دار علينا بضربنا بالخيزرانة . واحدا بعد الآخر .
اربع ضربات اكل تلمبذ . قسمت الضربات ، اثنتين على الكف
اليسرى واثنتين على الكف اليمنى . كان في عنفوان قوته معى
لأنه بدأ بى ..

- ما سبب هذا العقاب في رايك ؟؟

- لا اعرف

- لا تعرف ؟ !

- حتى الآن لا اعرف

- لماذا تستخدم هذه النظارة السوداء ؟؟

— لأنها تناسب وجهى .

— ألم نحاول أن تسأل عن سبب هذا العقاب ؟؟

— لماذا أسأل وأنا قد عوقبت بالفعل ! .

● ماذا قال الطالب حامد الأشقر ؟؟ :

— غاظنى أن الناظر يضربنى بلا سبب ، مددت له يدى ،
وكان قد ضرب صفا كاملا ، ضربنى مرتين على كفى اليمنى ،
وانتظر أن أنقل اليه كفى اليسرى ككل التلاميذ لكنى لم أفعل .
ضرب الثالثة فلم أغير كفى وظللت مركزا عينى فى عينيه فهبطت
الضربة الرابعة عنيفة مفرقة عصية ..

— آه .. حسن ..

— ما هو الحسن فى ذلك ؟ !

— لا شئ ، ولكن ما سبب كل ذلك فى رأيك ؟؟

— قال ان المدسين قد شكونا اليه .

— ولماذا فعلوا ذلك ؟؟

— لا اعرف .. لا أعتقد ..

— سؤال آخر : لماذا صممت على تلقى الضربات الأربع
على كف واحدة ؟؟

— قبلى صرخ الولد اشرف حتى من قبل أن تلمسه
العصا ، تماما كالأطفال ، وأردت أن أثبت للناظر أن هناك
رجالا .

- هل كنت تستعمل هذه النظارة ؟؟
- ماذا ؟؟
- هل كنت تستعمل هذه النظارة من قبل ؟؟
- لا ..
- لماذا اشتريتها ؟؟
- أعجبتني ..
- ألا يوجد سبب آخر ؟؟
- أبدا .. أعجبتني فاشتريتها .

● الطالب عماد اسماعيل :

- عندما جاء دورى فى الضرب رفضت مد يدي . قلت :
- ان القانون يمنع الضرب .
- التفت الناظر الى المدرس وقال له : « هذا الولد يتحدث عن القانون !! » .. ثم اوقفنى عند السبورة فوقفت . كانت حصة كيمياء عن المركب والمخلوط ..
- وهل هناك فرق بين الكلمتين ؟؟
- طبعا .. المخلوط يتكون من عدة عناصر ليس بينها تفاعل ، ويظل كل عنصر فيه محتفظا بخواصه دون تفسير .. اما المركب فهو نتج من التفاعل الكيميائى بين عنصرين او اكثر .
- فهمت فهمت ، المركب فيه تفاعل اما المخلوط فمجرد تجاود .

— شىء مثل هذا . المهم أن الناظر بعد أن انتهى من ضرب كل الفصل أمرهم بالوقوف ثم اختار الخمسة الطوال فيهم وأخرجهم إلى جوارى .. لكن المدرس همس إليه فعاد واستثنى من بيننا رسمى الديب ، أسمعت عن والده ؟؟

— سمعت ..

— قلت للناظر : لماذا نحن ؟ ! .. قال : أنتم مفصولون .. قلت له : هل لأننا طوال القامة ؟ ! قال : أخرجوا .. قلت له : ولكن رسمى الديب أطول وأعرض منا !! فصرخ وقال : لا تعودوا إلا ومعكم أولياء أموركم .

— وبعد ؟؟

— خرجنا إلى الشارع ..

— هل تشعر بمرض فى إحدى عينيك ؟؟

— لا .. لماذا تسأل ؟ !

● الطالب حسين أحمد سامى :

(علمت فيما بعد أن اسمه الحقيقى : حسين على سراج) .

— فى الفصل قلت للناظر : لكننى ضربت دون أن اعترض فلماذا تفصلنى ؟ ! .. وفى الشارع قلت لعماد اسماعيل : لولا سلاطة لسانك لما حدث كل ذلك ، كنا ضربنا وانتهى الأمر .. فغضب عماد وانهمنى بالجبن .. فقلت له أن يكف عن تصرفات المراهقين ..

— كم عمرك ؟؟

— أكبر منه بعامين .

- لماذا تضع هذه النظارة القاتمة؟؟
- عندى حساسية ضد الضوء القوى .
- طيب ، نعود لحكايتنا ..
- كدنا أن نتشاجر نحن الخمسة . لكننا رأينا أحد تلاميذ الفصل يقفز ما فوق السور . نم نانيا بم نالنا حتى تجمع معظم الفصل ما عدا أربعة أو خمسة منهم رسمى الديب المستثنى ..
- أعرف والده؟؟
- سمعت عنه ..
- وعرفنا ان نادر طه مبروك هو الذى أقنعهم بالتضامن معنا ..
- ما رأيك فى نادر طه مبروك؟؟
- لا أحبه .
- ولكنه حرض الفصل من أجلكم ؟ !
- لا أحبه .
- هل هو متفوق فى الدراسة عنك؟؟
- ليس لذلك ..
- اذن؟؟
- عندما حدثت الوشاية فيما بعد من بعض التلاميذ لدى الناظر ، حدث أن رآنى نادر أخرج من غرفة الناظر فأشاع فى الفصل أنتى جاسوس الادارة ..
- لا يبدو عليك ذلك ..

- شكراً .
- هل من الممكن أن أتفرج على نظارتك ؟؟
- تفضل ..
- .. عيناك جميلتان ، فلماذا تخفيهما بهذه النظارة القاتمة ؟!
- قلت لك عندي حساسية ..
- أحقا .. كانت هناك وشاية اذن ؟؟
- وأنا أشك في أربعة تلاميذ أولهم نادر ، ابن الفلاح الخبيث ..
- وماذا كنت تفعل لدى الناظر ؟؟
- كنت أقدم له طلبا لاعفائي من رسوم مجلس الآباء ..
- والدى فقير .

● السيد/ طه مبروك :

(فلاح - والد نادر)

- لا أحب النزول الى المركز ، ولا استريح الى أهل البنادر .
- واكره دخول مكاتب الحكومة ، لذلك فقد تضايقت عندما جاءني استدعاء من ناظر مدرسة نادر .
- نزلت المركز وتوجهت الى المدرسة الى غرفة الناظر ، فرحب بى الرجل ، وطلب لى القهوة ، ثم الكازوزة ، وظل يمتدحني قائلا بأنه عرف أننى رجل طيب وفى حالى ، وبأنى أصلى الفرض فى وقته .. فلما دهشت قال انه سأل المدرسين عنى .. زادت دهشتى ، ولكنى سكت ، وقلت فى بالى ربما كان بالمدرسة أحد المدرسين من أبناء قريتنا ولا أعرف .. ثم كلمنى عن نادر ابنى ، قال انه ولد نبيه ..

قلت له اننى عرفت ذلك من حادثة حصلت له عندما كان صبيا صغيرا ، وكنا فى انتظار القطار على رصيف السكة الحديد بالمركز ، ونظر نادر فرأى السلك المجاور للرصيف يهتز فهتف بان القطار قادم ، نظرت فلم أرى شيئا ، لكن بعد قليل جاء القطار بالفعل !! . ومن يومها قررت ادخاله المدارس ، فلما انتهى الابتدائى دفعت له اشتراكا فى قطار الركاب حتى يتوجه الى المدرسة الثانوية بالمركز .. ابتسم الناظر - مثلك هكذا - ثم قال لى : انت النموذج الصالح للأب المكافح ، فحجب من هذا الفول .. تم قال انه استدعانى من أجل مستقبل ولدى . وفى الحقيقة فقد أعجبنى هذا الناظر ..

- هل أخبرت ولدك بما دار بينك وبين الناظر ؟؟

- طبعا . قلت له : عملت زعيما على آخر الزمن فخابك أصحابك ووشوا بك لدى الناظر ، وقالوا له : انك انت المحرض الذى ضحك عليهم !!

- فماذا كان رد فعله ؟؟

- بهت وجهه ، وظل صامتا عدة أيام لا يأكل الا القليل .. حتى عادوا الى المدرسة ليفاجئنى بعد عدة أيام بأنه يريد ان يشتري نظارة سوداء !! .. لم أعارضه ، وقلت لعل ذلك يخفف من أحزانه .

● ولى أمر الطالب حامد الأشقر :

- رغم أنه أضال أخوانه جسدا ، فقد تلقى الضربات الأربع على كف واحدة .. أنا عمه ، ولى أمره ، توفى والده فصرت

الوصى عليه ، بعد شهور يستطيع أن يستقل عني أن أراد ...
شأى أم قهوة ؟؟

— شكرا .. حدثنى عن مقابلتك للناظر ..

— هذه المدرسة من أقدم المدارس بالمحافظة كلها ، كان
أول ناظر لها انجليزيا ، كان يسير بعد الظهر فى الشوارع بينطلون
قصير ، أحمر الوجه والفخذين لكن كل أهل المركز كانوا يهابونه ..

— كان ذلك فى الماضى ..

— طبعا . أيام الملك ، ثم جاء من بعده نظار مصريون
كثيرون ، وشهادة لله فان الناظر الحالى هو أفضلهم ..
كازوزة ؟؟

— شكرا .. حدثنى عن المقابلة ..

— اكتشف أنه يعرف عني كل شيء . قال انه سمع من كل
الناس عن طبيبتى وعن أسرتنا ، وانه يريد مصلحة ابن أخى ..
— ماذا قال عنه ؟؟

— قال انه فتى مراهق ، وان من فى سنه يكون شغوقا بحب
التزعم والمشاعبة ، وان هذا الكلام هو نفس ما يقوله علماء
النفس .. ثم أسر لى بكل الوقائع ، وقال ان بعض التلاميذ ممن
يتظاهرون بصداقة ابن أخى هم الذين أخبروه بذلك ، سرا ..
ثم أخبرنى أيضا بأن البوليس حذره من هؤلاء التلاميذ .

— هل ذكر لك الأسماء ؟؟

— لم أسأله . وشكرت له ثقته بى ، فهو لم يفعل ذلك مع
أحد غيرى .

– وكيف تصرفت مع ابن أخيك ؟؟

– نصحنى الناظر بالآعامله بالشدة ، وانما بالتفاهم .
قلت لحامد : كدت تضحى بمستقبلك من أجل أصحابك فانظر
ماذا كان ردهم لجميلك !! .. ثم أفهمته أن كل انسان فى هذا
الزمان لا يعيش الا لنفسه ، وكل واحد تكفيه همومه ، فلا احد
يحمل هم أحد .. اليس كذلك ؟؟

● الطالب أ . س . د . :

(طنب عدم ذكر اسمه بالكامل) .
– من رأى فتحى أن الواشين هم : احمد وعباس
ومجدى .. ومن رأى احمد أن الخائن : اما مجدى أو فاروق ..
ويقول حسين – وأنا اثق فى آرائه – أن الواشين هم : نادر
وسامى وعلى .. أما أنا فقد أصبحت أركز شكوكى فى سبعة
تلاميذ ، ثلاثة منهم على الأقل هم الجبناء الخونة .. وفى جميع
هذه الأحوال فهناك عدد من الواشين غير المعروفين بالتحديد
حتى الآن .

– ما رأيك فى الناظر ؟؟

– سيدى أنا لا اعرفك ..

– يمكنك أن تثق بى .. ما رأيك ؟؟

– سيدى .. لا رأى لى .

● الطالب نادر طه مبروك :

– يصل قطارى من القرية الى المركز فى وقت مبكر عن
موعد بدء الدراسة ، وبذلك يكون أمامى وقت أقابل فيه عددا

كبرا من التلاميذ . كنت أسأل نفسي كلما جاءت عيني على
أحدهم : أهو واحد من الواشين ؟؟ وعندئذ لا تبقى نظراتي في
نظراته .. لذلك تجنبت كل التلاميذ ، ولاحظت أنهم يفعلون
المثل .

— شيء قاس !

— بل فظيع . اخلطنا في الفناء .. قلنا : « السلام
عليكم » ورددنا : « وعليكم السلام ورحمة الله » .. أكثر من
ذلك لم نتكلم .. فقط عندما يسأل أحدهم في ملل بصوت بارد
غريب عن موعد انتهاء الحصة . لاحظت أن عيون الجميع تلعب
لعبة المراوغة ، لا تتلاقى أبدا .. أبدا .. عاملت بعضهم بمجرد
الريبة والشك وبعضهم بيقين قاتل . أصبح جرس الانصراف عندي
هو أجمل ما في اليوم كله . الابتسامات تحولت الى شيء غريب
لم أنصاعده من قبل يظهر قسرا على الشفاه ..

— ألم تحاول أن تعاتب أحدهم ؟؟

— حاولت مع سمير جاري في المقعد . أول مرة تكلمت معه
هبطت نظراته الى الأرض ، تاني مرة لاذت عيناه بما وراء ظهري ،
وفي المرة الثالثة صمد هو لنظراتي .. فتجنبتة أنا ..

❁ الناظر يتكلم :

— بعد أن قفزوا كالقروود من فوق السور وخرجوا الى
السارح ، النفوا وجاءوا أسفل حجرتي وظلوا ينادون :
« أبو كرش ، أبو كرش » .. ولما اختلست النظر اليهم من وراء
السيس هتفوا : « شايفينك ، شايفينك » .. الملاعين
الفساد !! .. لكن النظام استتب حتى النهاية .

— ألم تتساءل عن سر النظارات السوداء ؟؟
— لاحظت ذلك في البداية . ومن رأى أن هذه النظارات
ضرورية في مناخ شمس ساطعة حارقة كشمس مصر ، أنا نفسى
أضع نظارة سوداء كما ترى . هل أنت معى فى ذلك ؟؟

—

— وعلى كل حال فقد فعلت ما فعلت من أجل صالح
الجميع : النظام ، وأولياء الأمور ، والمدرسين .. وأبنائى
الطلبة .

يونيو ١٩٧٠

غمزة العين

لم نصل الى جواب اكيد ..

وكانت هذه اول مرة نعرف فيها أن فتحية ما زالت بكرا ،
وان امها فرضت عليها رقابة قوية وأصرت على بقائها هكذا حتى
تكمل السادسة عشرة ..

— وبعد ذلك ؟؟

قال سمير :

— وبعد ذلك تنزل الى السوق مثل امها .

شعرت بضيق :

— فكم عمر فتحية الآن ؟؟

قال سمير :

— امامها شهران لتكمل عامها السادس عشر .

قال فهمى :

- ثلاثة أسابيع فقط .

وقال حسين :

- بل عام كامل رغم دوران الجسد .

لم نصل الى جواب اكيد وانتهت الفسحة .

بلحاهم وذئوبهم الحمراء وبنطالوناتهم القصيرة ساروا في الصباح المبكر ، بمخلاتهم فوق ظهورهم يتأملون البيوت القديمة في جنوب البلدة .. سياح فقراء قال سمير :

- وهكذا يجوبون العالم بأقل النفقات ، حتى وصلوا الى بلدتنا هذه التائهة في مجاهل الصعيد !!

تأملنا البنت النحيفة معهم بصدورها الصغير وشفتيها الرقيقتين ..

- حتى الجنس لديهم صار كالمأكول والمنسرب ، لا يعقدونه ..

توقفوا طويلا امام احدى البنايات العتيقة ، يحملقون فيها مبهورين . توقفنا ان يتجهوا الى حيث آثار الفراعنة في ارض المابد ، فسحبني سمير صوب الحارة الضيقة المقابلة :

- اليوم نختر طريقنا الى المدرسة .

سرنا بين صفين من البيوت المفتوحة الأبواب ، مداخها مساحات من العتمة العظيمة . سمير ما زال مبهورا :

- لاشك في أن ذلك يؤثر على شخصياتهم ، طلبة فرنسا مثلا أجبروا حركتهم على الاستقالة منذ سنوات ، طبعاً . تذكر ذلك ؟؟

لكن الحيوان الصغير عبر الحارة ركضا في لونه الرمادى
فهتفت :

— هل رايتہ ؟ !

ابتسم سمير وقال :

— الا تعرفها ؟ ! انها « العرسة » التى تعيش على مص
دماء الدواجن ..

ثم ضحك وقال موضحا :

— انها « دراكولا الدجاج » ينقض على عنق الدجاجة يعرف
جيدا مكان عرقها ، ولا يتركها الا جسدا بلا دماء ..

— لنخرج الى اقرب شارع مرصوف ..

— هناك مفاجأة ..

— لنترك هذه الحارة ..

قال :

— سوف اريك فتحة .

اخذنى من حوار طويلة متعرجة الى اخرى قصيرة متعددة ،
وكانت البيوت متشابهة والوجوه متقاربة والرائحة واحدة ،
وصار الشمال كالجنوب والشرق كالغرب ، وضاعت منى
الاتجاهات ، واحسست بالرطوبة تتسلل الى بدنى ، فمشيت كما
يمشى سمير ... فتحة هذه التى تدور من حولها همسات
التلاميذ ، والتى سمعت عن امها الكثير .

في طابور الصباح انهمك الناظر في القاء تعليماته اليومية ،
لكن حسين همس لى بان « ام فتحة » هذه خيرة في مهنة

الامتاع ، كل زبائننا من كبار الموظفين ووجد من أثرياء الريف . .
وفوق الدرج الصاعد الى الفصل قال فهى أنها ثائية السهور
جدا . . لذلك أكد لنا مهدوح فى معمل الكيمياء أن أحدا منا - حتى
من تلاميذ السنوات الأعلى - لم يضاجعها ، ومن قال غير ذلك
لا تصدقه .

لكرنى سمير :

- انظر . .

طبق الفول فى يدها وتحت ابطها عدد من الأرغفة ، على
عكس كل البنات فى بلدنا ليست فتحة سمراء أو قمحاوية
اللون وانما شديدة البياض نظيفة ، قفازة النظرات ، تمشى
تتضحك مع المارة .

حملت نحوها . همس سمير :

- رائعة من جميع زوايا الرؤية اليها ، اليس كذلك ؟؟

تسمرت مأخوذا وكانت ترمقنى مبتسمة ، فجذبني
بالحاح :

- حذار ، جميلة لكنها شرسة .

فى عذوبة شديدة - ولدعشتنا - غمرت لى باحدى عينيها -
فشهق سمير . . وفى نعومة بالغة - وقبل أن تختفى فى عتمه
دارها - التفتت نحوى وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى ،
فدام الصمت لحظات ثم وضع سمير كتبه تحت ابطه ليضرب
كفا بكف :

- انها تحلق وتبتسم لكل التلاميذ ، لكن ان حاول

أحدهم مفازلها شتمته هو وأمه ومن خلفوه .. لكنها معك
انت - انت !! - لم تفعل ذلك !!

في فناء المدرسة وأثناء المسحة الصغيرة خيل الى أن معظم
التلاميذ يعرفون واقعة الفزة ، فشعرت بالزهو . وأمام الباب
الخارجي تعجب أحمد :

- مع أنك لا بالجميل ولا بالوسيم !

وفي الأيام التالية تعودت خطواتي على الوصول قرب دارها
في نفس وفي خرزجها لشراء الإفطار - كما تعودت هي أن
تأتيني في أحلامي - وصار طريق الحوارى هو طريقى في كل الأيام،
وصرت أعرف تفاصيله بكل دقة :

في الإنشاء الأولى أجد الدار التي يكشف طلاؤها القديم
عن الطوب اللبن ، ثم أسمع الصوت الرجالي الذي ينهر إحدى
النسوة ولم أسمعها ترد عليه أبدا ، ثم أرى البيت حديث الطلاب
الذي « حج صاحبه وزار قبر النبي المختار » .. بعد ذلك أعبر
مثلث الشمس المتسلسل الى الأرض لأقرأ التحذير التالي :
« ممنوع لصق الاعلانات بأمر الحكومة » لكن بجواره عدة اعلانات
انتخابية لمرشحين عن الفئات المختلفة ، وبخط رديء : « يعيش
فريق الصقر الأسود : الكابتن منصور » .. وتعودت على رؤية
العريسة تجرى وتقفز فوق بقع الطين ، ومرة رأيت قطا يطارد
أحداها لكنها اختفت في جحر ضيق الفتحة .. وكلما رأيت
دجاجة ملقاة في الحارة متخشب الجسد متقلصة الأصابع زرقاء
البشرة عند البطن والصدر ، وكلما رأيت الجرح الفائر في
عنقها وخط الدماء المتجمد حول منقارها تخيلت الموقف : يكون
الوقت ليلا وتكون الدجاجة نائمة ، وتستيقظ على عنقها في قم

العرسة فلا تقدر الا على الصياح المكتوم ، وفي بطنه تتسرب
دماؤها فتحس بخدر ووهن وتتقوس أصابعها ويزرق جسدها .

لكنى فى نهاية كل ذلك أجد ابتسامة فتحية . انظر صوبها
فقط ، أحيانا نسعدنى بابتسائها ، أحيانا أخرى لا تشعر بى ،
مرات ثلاثة منيات ، أنها ستسبى فانكحشت فى نفي ، ومرة
شاهدتها تلتقط فردة شبيبها وتجرى مطاردة عرسة رمادية
اللون ، فصعدت الدماء الى وجيها لتضاعف من حلاوتها مئات
المرات ، فبرننى وجعلت دمايى تنسحب من وجوى ، وظل وجهها
يلازمنى طوال الدروس الأولى .

وكلما تخيلت اقتراب عمرها من السادسة عشرة شعرت
بحزن غريب مبهوم ، كأننى مقبل على فقدان شيء عزيز .. حتى
قال سمير ذات يوم هازئا أن شابا اسمه « أشرف متولى » عرض
عليها الزواج رغم تقينه من سيرة أمها . شعرت بالارتياح لكن
سمير سخر من كل ذلك فكرهته .

رايت « أم فتحة » فرايت الشعر الذهبى واضح الصبغة ،
ورائت التحايد وقد غزت العنق الرخامى ، والخطوط الفائرة
وقد ظهرت فى الجبهة الناصعة ، ولحم الذراعين وقد ترهل ..

اشترنا السندويشات من الكنتين وعلق سمير :

— انلك فان زبائننا أخذوا يطالبون بالبنات عوضا عنها ،
لكن الأم قالت لرجالها المتلففين : « ليس قبل أن تبلغ عاموس
السادس عشر » .

فتوقفنا عن المضغ ، وكانت هذه أول مرة نعرف فيها أن
فتحية ما زالت بكرا !

لم نصل الى جواب اكيد .. وتساءلت انا ان كان من الممكن أن يحدث شيء ما خلال الوقت المتبقى : كان تفر من أمها وتعمل كآية بنت أخرى ، كان تتزوج من « أشرف متولى » هذا ومثات البنات يعيشن مع أمثاله في دعة ، الا أنهم سخروا منى ، قالوا انه ضئيل المرتب نحيف الجسد ضعيف البنية ولن يرضى فتحية من جميع النواحي .. تم تحدثوا عن ذلك المحظوظ المنتظر ، واتفقوا على حتمية أن يدفع مبلغا عظيما . قال أحمد مفسرا :

— لا تحدث أول مرة الا مرة واحدة ، سجلوا هذه الحكمة في كرايسكم .

ونحن نبتعد عن المدرسة صوب النبل رشح سمر لهذه القبطنة نائب المأمور ، قال ان زواجه ليس دليلا كافيا على حسن سيره وسلوكه .. لكن حسين أصر على طبيب الصحة لأن أمثالها في حاجة انى نوع خاص من الخدمات الطبية ، فرد سمر المناكف: انيا بالمال يمكنها استئجار أبرع الأطباء .. وفكر مهدوح في مهندس المحالج وسيارته الجميلة .. ثم فى سميد المزارع الذى يمتلك الحد الأقصى من القدادين .. ولما فحصوا وضع مفتش التموين وقدرته على امدادها بما يشح من السوق أكد فهمى ان فتحية لو ترك لها الاختيار فسوف تختار كابتن فريق كرم القدم .

تعالت الأصوات واحتدت ، وكل واحد يذكر مميزات مرشحه .. وفى وسط كل ذلك استبعدوا أسماء أخرى اما بسبب كبر السن واما بسبب شائعات عن أصحابها بعجزهم الجنسى المبكر واما بسبب نقص المال برغم الفحولة .

تركنا الشارع ، مخترقين ارض الكلا اختصارا للسافة :
وفكرت انا في صمت : او فتحة صديقتى لأقنعها بالزواج من
« اشرف متولى » هذا - وقلة الدخل ليست عيبا - على أن
تنفصل هي عن امها وبنفل هو نفسه الى اية مدينة اخرى بعيدا
عن كل هؤلاء الناس .

(في المساء وقبل ان انام زارتنى فتحة الحبية ورقدت
بجوارى .. وبعد قليل اختطفتها في آخر لحظة من بين برائن
هؤلاء الرجال الوحوش ولقنتهم درسا قاسيا لن ينسوه .. وبعد
ذلك بقليل ايضا تكنت بطريقة ما من جدل عامها السادس عشر
يتأخر وينأى في الجيء حتى انتهيت انا من تعاليمى في الثانوى ثم
الجامعة وتوظفت وتزوجتها رغم معارضة أمرتى ، وقبلت شفتيها
الطريتين في قبلة ناعمة وعشت معها في سعادة هائلة لتبدأ عامها
السادس عشر ...)

... لكنى في الصباح عندما فتحت عيني ووضعت راسي
تحت ماء الصنبور البارد تمنيت لها - أسفا - أن تموت .

قرب الامتحان اختفى الكلام تماما عن فتحة وعريسها
الموعود وعن امها ورجالها . واثناء الامتحانات كنا نتحدث في طريق
العودة عن افضل الحلول لكل سؤال . اختلفنا كثيرا حول
اجابات المواد النظرية كاللغات ، لكننا في الرياضيات والعلوم لم
نختلف ، وعقب امتحان الكيمياء وبينما نحن نبحث عن الجواب
الصحيح لاحدى المعادلات اذ بسمير يهتف بفتة :

- منذ ثلاثة ايام ، اطال الله بقائكم ، بلغت فتحة السادسة
عشرة ..

فضول ثقيل . سأل سعيد :

– وهل حدث الأمر ؟؟

تحرك فم سمير :

– في الليلة التالية مباشرة ..

– اكيد ؟؟

برقت عيناه . التهبت جفوني . سأل سعيد في ليقة :

– فمن نالها ؟؟ من الأول ؟؟

شعرت بأناملى مثلجة وبجسدى ثقيل فوق ساقى ،
وسمعت صوتى يرتعش فى داخلى : وهل تفرق ؟ !

أغسطس ١٩٧٠

المنام

ولأنها البنت الوحيدة التى انفتحت لها قلبى ، فقد كانت
رغبتي أن ألتقى بها وحدها ، أن اتحدث معها على حريتي . كنت
قد جهزت كلاما كثيرا معظمه رقيق ، وكله صدق ودفء .
لكنها جاءت ومعها احدى زميلاتهما ، فتكونت الجلسة من ثلاثة .
ارتبكت . صارت زميلتها بينى وبينها . لم يعد من المناسب ان
أقول لها ما كنت أود ، ربما كنت قد نسيت . ما يقال لواحد
لا يقال لاثنتين ، ويختلف الكلام حسب عدد الجالسين وأنواعهم .

جلسنا نثرثر فى أمور عديدة ، ونظارفنا كثيرا ، وقصصنا
بعض الملح .. لكننا أكثر من ذلك لم نقل .. وعلمت أن اسم
الصديقة سعاد .

قالت نبيلة انها أصبحت تتعب سريعا من صعود الدرج
هذه الأيام ، فردت صديقتها بأن هذه أعراض الشيخوخة ..
كانت تظن أن هذه نكتة ، لكننا مع ذلك ضحكنا .

وصفت نبيلة آخر فيلم شاهدته بأنه ليس بفيلم على الإطلاق ، ثم تساءلت عن سبب تدهور السينما لدينا ؟؟

— وهل السينما لوحدها ؟ !

قالت الصديقة ، مؤكدة ان العلة تكمن في مسنونا الحضارى كدولة نامية .. فعقلت أنا بأن سينما العالم الثالث صارت تهز الدنيا الآن .

وحدث خلال الجلسة ان التقت عيناى بعينى نبيلة ، كنت أريد أن أنقل بعضا من شعورى نحوها — ان لم يكن باللسان فبالعين — لكنها كانت تسارع بالنظر الى صديقتها .. فكتب أعود مهزوما للمشاركة فى الكلام .

مساء اليوم التالى جاءنى أحد الأصدقاء مع زوجته . وأخذانى الى ملهى « ميرى لاند » اللىلى فى مصر الجديدة .. وكان هناك قوم كثيرون ، ألححت زوجة صديقى بأن معظمهم من الشخصيات المعروفة وأبنائهم ، ثم عادت تتابع الفرقة الموسيقية التى تعزف الألحان الغربية .. وكان كل ما حولنا : تأنق فى الثياب تلطف فى تناول العشاء ، وتبسم عند احتساء المشروبات .

بدأ الرقص فوق الدائرة المخصصة لذلك . ذهب صديقى ليراقص زوجته ، وصرت وحيدا ، بينما كل من فى الدائرة : امرأة ورجل ، فتى وفتاة ، والموسيقى ناعمة وبطيئة والجمع ملتصقون .

تمتعت برؤية وجوه النساء من فوق اكتاف الرجال ومن جوار أفضيتهم .. وكانت الأرجل منظمة ومقيدة فى حركاتها :

كرهت هذا التماثل ، وكانت كل الخطوات متزامنة حسب ايقاع العزف البطيء ، ولم يعجبني هذا البطء .

وعندما انقلبت الموسيقى عنيفة وسريعة ، انسحب من الساحة كبار السن ، وتدفق اليها عدد كبير من الشباب . ادهشني ذلك في البداية ، فلما تأملت الرقصة لاحظت أنه لا توجد قاعدة محددة لحركاتها ، ولاحظت أن الراقصين لا يلتصقون وانما يواجه الفتى راقصته عينا في عين ، كل الأجسام تهتز وتتكهرب لكن لم تكن هناك قاعدة ، ولم تكن الموسيقى تتسلط على الخطوات ..

أعجبني كل ذلك ، وقلت ان أى انسان يقدر على هذا الرقص ، فقط يصعد الى الحلبة ويستسلم للاحساس بالراقصين من حوله .. وتمنيت لو كانت معي نبيلة - كنت أجلس وحيدا - ورغم حدة الموسيقى كانت الاضاءة خافتة ، وأزواج الراقصين من أمامي باسمين ، فلهزنى كل ذلك وأنعشنى ، وكان الدخان يملأ المكان ، وفوق كل ترابيزة شمعة مشتعلة ...

(ولما نظرت الى جوارى وجدت نبيلة في ثوبها الأبيض الذى يشبه الفراء ، وكانت تبتسم وكانت أحلى من كل الأوقات ، وصعدنا الى الحلبة واندسنا بين الراقصين ، وسرعان ما سرت روح الرقص فى جسدنا - وكان جسدى خفيفا جدا - واندمجنا مع الجميع ، وسمعت تنفسهم ولهتهم ، وشممت عرقهم وعطرهم ، وشاهدت السعادة فى عيونهم ، ومارسنا الحركة معهم ، وكان هذا عظيما ، وكانت نبيلة تواجهنى وكنت أواجهها ، ولم تفادر نظراتها وجهى ، وقلت لها كل ما أريده فكانت تنزل بنظراتها الى شفتى ..)

غير أن الموسيقى أبطأت وعادت رتيبة ، فانسحب الصغار وصعد العجائز وعاد صديقى وزوجته ، فافقت ، وكانت الدماء فى وجهيهما . وقبل أن نعود لأحاديثنا الاستطراذية واعدت نفسى بأن أحكى قصة هذا الحلم الى نبيلة ، وذلك فى الموعد القادم .

... لكنها جاءت ومعها زميل لها طويل اسمه مهدي ، كان يقترب من وجهها عندما يوجه حديثه اليها ، وكان يفعل ذلك بنظرة جسورة وابتسامة صلفة ، وأذكر أنه لما جلس انشنت ساقاه أمامه كأرجل العنكبوت .

كانت نبيلة ترتدى فستانا قصيرا ، فأعجبني منظر سافيتها ولاحظت خلوهما من الشعر أو آثاره ، وصرنا نتكلم ، ونسيت الكلام اللطيف الذى كنت قد جهزته لنبيلة ، وحتى قصة سهرتى السابقة لما حكيتها اكتفيت بنصفها ، ولم أذكر كلمة واحدة عن حلمى القصير بالرقص معها ، وبدلا من ذلك مضيت أروى قصة ملفقة : فقلت اننى عدت بذاكرتى الى قريننا بالصعيد ، حيث رأيت نفسى طفلا حافيا وسط العيال نلقى بالطوب الى النخلة ليتساقط بلحها ، ونظارى كل كلب نراه بالعضى والجريد . تم تذكرت حقن الباهارسيا الكئيبة التى أدمت جسدى الضعيف ، وتصورت أبى جالسا أمام الدار يشرب الشاي الأسود ويتسكو من معاملة موظفى الزراعة ومن تغيب طبيب الوحدة ، ويقف احتراما لمروور الضباط .. ورأيت طابور الصباح فى مدرسة المركز ونحن نحى العلم ونهتف للجمهورية .. وفى مطلع الفجر تصورت أمى وهى تستيقظ لتحمى الفرن للخبيز ، وتخيلت أنها لو رأتنى فى ذلك الملهى لأصابت الدهشة عينيها بالشلل ..

ضحكت نبيلة من ذلك ، وارتعشت ساقاً مهدى في رعشات عصبية ، وقلت له ان هذه السهرة نموذج مصفر لسهرات الطبقة الجديدة ، ثم سألته عن رأيه فيهم فhez كتفيه دون اهتمام .

تماكرت نبيلة وسألتنى عن دفع الحساب ؟؟ فقلت لها :
— تعرفين ان راتبى لا يكفى الا لايجار الشقة وللأكل
الضرورى ..

ولما أضفت :

— وللإقتراض فى آخر الشهر .

اعتبرا ذلك نكتة فضحكا ، لكنى هذه المرة لم أقدر على المشاركة .

أذكر ان الصمت تخلل هذا اللقاء عدة مرات . يكون الصمت بين اثنين متوادين صمتا عن الكلام المسموع فقط ، أما الصمت بيننا نحن الثلاثة فقد كان انكماشاً وعزواً .

وفى المرات التالية جاءت سعاد مع نبيلة .. وصار الصمت يطول .. ويتعدد .

فى اللقاء الذى جاء بعد ذلك تأخرتا عن الموعد عشر دقائق .. وهذه المرة لم اكن قد جهزت كلاماً أريد أن أقوله لنبيلة ، وقصصت عليهما نكتة مهذبة لكنها فى باطنها تحمل معنى بديهاً ، فوجمنا برهة ثم نظرنا لبعضهما وانفجرنا ضاحكتين .

وبعد النكتة جاء الصمت .. ثم تكلمت نبيلة .. ثم حدث صمت أطول .. وظلت اللعقة بين أصابعها تدور فى فنجان الشاى حتى بعد أن ذاب السكر ..

وكان النيل من اسفلنا ساكنا كسكون الهواء ، وكانت الضفادع تنق عند جسرہ .. ولاحظت نبيلة ان المياه تتذبذب في موجات ضئيلة . فقالت :

— يبدو ان هذه الموجات لا تفارق اماكنها !!

قلت :

— لكنها في الواقع متحركة ، لأن النيل ينبع من اواسط افريقيا ليصب في البحر المتوسط ، فهو اذن يجرى من الجنوب الى الشمال ، ولا بد انه متجه الآن صوب الشمال !!

قلت وانا امسح عرقى :

— ويتضح هذا لو ألقينا اليه شئ يطفو فوق سطحه .

قالت تسخر :

— انت غزير العلم ، علمتنى ما لم اكن اعرف !!

قلت لها :

— شكرا .

ثم قرأنا طالعنا في الجريدة — وكانت الضفادع تنق — وضايقنى بعض الشئ ان نبيلة ولدت في برج الدلو ولم تولد في برج الحوت الذى ولدت انا فيه ، أما سعاد فأظن ان برجها هو العذراء او ربما كان القوس .. وبمناسبة التنجيم والنجوم كلمتهما عن مقال قرأته حول غزو الفضاء ، رحنا بعده في سرحة تأمل طويلة ، تهتدت فيها نبيلة وتوقعت سعاد انه سوف يأتى اليوم الذى يكشف الانسان فيه اكسير الحياة ويصبح كل الناس من الخالدين ، أردت تصنع الدهشة لكنى فضلت الكسل ..

ثم عادت سرحة التأمل .. وثأببت نبيلة ، وذكرت بعض المعلومات
عن تاريخ مصر اعتقد أن معظمها كان خاطئا .

تابعت طفلا صغيرا مضى يتعثر من خلف قطة سوداء رافعة
الذيل - وكان ذلك في اللقاء الذى كان ترتيبه قبل الأخير -
تحدثنا قليلا عن الشرق الأوسط وأزماته .. ثم قصت سعاد
علينا اسباب فسخا لخطوبتها الثانية ، وكانت قد قصتها في
لقاء سابق لكنى اخفيت .. كذلك حكى نبيلة النكتة الفاترة التى
سبق أن اضحكنا في أول لقاء ، واستطعت أن احصى في جانب
راسها ثلاث شعرات بيض .

وفي اللقاء الأخير : وقفت لهما مرحبا بأقل من نصف
الوقفة .. وبعد أن جلسنا سألت نبيلة عن أحوالها وصحتها -
فصرحت متبرمة :

- لا جديد

ثم قالت بأنها صارت تفكر جديا في الهجرة

وبعد الصمت عادت تتكلم عن أعراض الشيخوخة المبكرة
مرة أخرى .. وكنت مسترخيا في مقعدى ، وكنت أشعر بالخمول
يتحرك الى كل رأسى وجسدى .

سألت سعاد عن آخر ما قرأته ، فتمتمت :

- لائحة التوظيف

وسكتنا .. ثم سألتها عن أحوالها فثأببت :

- لا جديد

رحت أتأمل الجالسين عن قرب ، وبعد وقت نسيت نفسي
وبدأت أحكى - لأكر الصمت - عن ذكرياتي في فصل ثانية علمي
خامس ، غير أن سعاد نبهتني في صوت هادئ الى أنني رويت
هذه الذكريات من قبل ، فلم أكمل .. وبعد وقت تشاءت طويلا
لدرجة أن الدموع ملأت عيني .

بعد ذلك كان موعد لقائنا هو الصدفة .. وعندما لمحتها
سائرة هتفت باسمها ، فنظرت لى وابتسمت .. وحدث اذ ذاك
أن كان زميل لها يقف بسيارته قرب الرصيف ، فضغط على
« الكلاكس » ثلاث مرات . تنبّهت هي اليه ومن فورها توجهت
صوبه وكان وجهها جادا جدا .

واليوم عندما رأتني في طريقها أقبلت نحوي ، وكنت
مستاء جدا ، وحائقا : كيف تجاهلت صوتي البشرى واستجابت
لنبيه سيارته ؟ !

رغبت أن أرد لها بعض الالهانة ، وبحيث في ذهني عن كلام
قاس أوجهه اليها .. الا أنني - وفي هدوء مصطنع ، وبعد تحية
فاترة - تركتها ماضيا بخطوات متكبرة ، شامخا بأنفي راميا
بنظراتي الى الأفق البعيد .. لكن سرعان ما تهدل كل ذلك .

كان من الممكن أن نخلق أشياء جميلة .. معا .

فبراير ١٩٧١

المعدول والمقلوب

١ - مهاب :

(لكل دائرة مركز واحد - حقيقة هندسية) :

ولأن البكاء ليس من طبعى لذلك لم أبك ، حتى يوم أن مات أبى - وكنت صغيرا - بكته كل الأسرة عداى . ظلت متماسكا ثمانية أيام ، وفى اليوم التاسع - ودون أية مقدمات - انهزت باكيا . ولو حدث لى البكاء الآن لارتحت ، لكنى كتوم لا أشكو ولا أبكى . اتوقع أن يكون عمري قصيرا .

كان يشغلنى دائما ، الحب .. ليس من باب الهذر ولكن قلقا على مستقبل عمري . كنت أمضى حياتى منتظرا أن أصادف البنت التى أوجه نحوها أرق أحاسيسى ، والا فما فائدة هذه الأحاسيس ؟ ! .. وكنت أكلم نفسى أحيانا وأقول : اننى لو وجدتتها فسوف أحفظ من أجلها كل ما بقى من وقتى ، وسوف أكف عن التدخين حتى أوفر لها زوجا مناسبا ، وفى محنى وأوقات الشدة كنت أسأل المجهول : متى يكون هذا التلاقى ؟!

وكننت اتخيلها فى ذهنى بصورة مشوشة ، ثم اخترت لها
من كل فتاة أحلى ما يعجبنى ، مرة الشعر ومرة الصدر
والوسط ومرة عودها وشفتيها ، وقبل كل ذلك صوتها وخفة
ظلالها وحنوها .. ومع مرور الأيام تكونت ملامحها الرئيسية فى
صورة فتاة هادئة الجمال ، وأعدت نفسى بالأا أتركها تغلت منى
ان أنا قابلتها .

أحببت أن تكون قمحية اللون : ربما لأننى شبيت فى بيت
على نيل الصعيد وكان يسحرنى لون الطمى مطعما بأشعة
الغروب ، واخترت لشعرها ضفيرة طويلة وحيدة : وعلى ما أذكر
فقد كان شعر أُمى قصيرا أشعث ، وتصورت العينين سمكى
الاتساع : كنت أعبر النيل لأشاهد الأميرة الفرعونية فوق
جدار المعبد القديم ، يشدنى إليها جسد رقيق بثديين مشدودين ،
ووقفه حب من خلف مليكها وعينان واسعتان أخاذتان ، كلما
عبرت النيل وجدتها بدفء نظراتها .

وفى أحلام اليقظة كنت استحضرها ، بجمالها الجذاب
أصيل الزينة - أميرتى أنا - فأبدأ معها رحلة الحب ، اتخللها
بشجار ملء بالشجن من أجل نهاية هنية ، ان لرضى المحبوب
بعد سخطه لذة فى القلب لا تعدلها لذة - يجوز أن هذا التفكير
من فعل أفلامنا الرديئة - لكنى رأيتها دائما مقبلة نحوى فى إيقاع
العابدة المتعبدة .

كنت أنتظر أن أصادفها ، أن أجدها يوما ما أمامى ، فجأة
ودون مقدمات ، فى الشارع ، فى السينما فى الأتوبيس ، فى مكان
عملى ، كنت على ثقة من أنى سأتعرف عليها من أول وهلة ،
وعندئذ سيتم التفاهم فى سهولة ولقائية .

كنت مهيتا للحب .

والعجيب أن شيئا من هذا لا يوجد في نبيلة !!

شهور عديدة وأنا أعبرها دون أن التفت إليها . أحييها أو أبادلها بعض التعليقات أو المجاملات العابرة ، ولا شيء يزيد على ذلك . . كنت أنقر من شدة بياضها ، تزيده بطلاء تسرف فيه ، على الوجه ، وحول عنقها القصير تسرف فيه أحيانا ، شعرها ناعم ذهبي اللون ، جميل حقا لكنها كانت تخفيه تحت باروكة ذات لون سخيـف ولم يكن صوتها يعجبني ، ولم يكن منظرها يوحى بالدعة ، بل بكرة للمألوف يصل إلى حد التصنع ، وأنا أنقر من الافتعال .

لم تلفت نظري ولم تحاول ، حتى وجدتـها تعترض طريقي ، وكنت مسرعا . تركت صديقـتها سعاد ووقفت في سكتى بابتسامة عريضة ونظرة جسور . ابتسمت لها مجاملا ، شاعرا بالنفور من طلاء وجهها ، سألتها :

— لماذا تضعين هذا القناع ؟ !

فجاءت في اليوم التالي ببشرة طبيعية . لاحظت هالـتين سوداوين تحت عينيها ، ساءتـى منظرهما في البداية لكنها مع ذلك راقنتى ، ثم بدأت أتأملها وأعيد النظر .

عيناها ضيقتان لكن النظرات الجميلة تتراقص فهما بوفرة . لها جبهة عريضة ، فاقترحت أن تترك شعرها يتهدل طبيعيا ، وقلت :

— بقي أن تتخلصي من هذه الباروكة !

وجعلها شعرها المنساب في اليوم التالي تبدو أصفر عمرا ،
أحاط وجهها بهالة في لون الغروب ، لكن وجهها كان مشرقا ، وفي
خديها انبعثت أزاهير الجمال ، قلت ان ذلك رائع ، فأسعدتني
بأحلى ابتسامة رأيتها ، ثم تركتني وذهبت الى صديقتها سعاد .

خطر لى أنها أحلى بنت في المركز القومي للبحوث ، لكنني
تذكرت أن المطلق شيء غير علمي وأن أفعل التفضيل لا يستخدم
الا في البلاد المتخلفة ، فراجعت نفسي وقلت : ربما كانت من
أحلاهن .

ظلت ابتسامتها في عيني الى أن ركبت الأتوبيس ، حيث
وجدت نفسي أتابع فتى يغازل بنظراته فتاة قريبة ، تأملتهما ،
ولاحظت أن الفتى أتيق وسيم بل جميل وأن الفتاة قاسية الملامح
لولا ثدياها ! .. لذلك راودني خاطر غريب : انه لو أطال شعره
لصار أجمل منها ! وأنها لو قصرت شعرها وارتدت ملابس الرجال
لقلت انها شاب ولاشك .. ودفعني هذا الخاطر المدهش الى
تأمل وجود الناس : كان الرجل المواجه لى خشن المظهر ، لكنه
لما استدار ناظرا الى الشارع ظهر بروقيله رقيقا رقة
النساء !! .. وكانت المرأة المجاورة له عجوزا كل وجهها تجاعيد ،
ورأيت فوق وجنتيها شعيرات بيضا وتحت أنفها شاربا رهيفا
أهملت أزالته ، ابتسمت لنفسى وقلت : ها هي تعود الى أصلها
حسبما ذكرت كتب السماء ، جاء الرجل من التراب والى التراب
يعود ليغلق دائرة الحياة الخبيثة ، أما حواء فقد جاءت - كما
قيل - من ضلع في آدم فهي في الأصل رجل ، وهي عند
شيخوختها تعود الى أصلها وينبت لها الشارب والدقن ، فهي
أذن من الرجل والى الرجل تعود وبعد ذلك تموت وتصير الى
التراب .

حسدت نفسى على هذا الاكتشاف الطريف ، ثم وجدتنى
أعود بذهنى الى نبيلة ووجهها وصوتها ، وسيطرت على تفكيرى
حتى كدت أنسى محطتى !

كانت تستشيرنى فى مشاريعها الصغيرة فيحدث أن يتبقى
أحداها فى ذهنى حتى بعد أن أتركها ، وقد تلازمنى حتى المساء
وقبل أن أنام ، لأجد نفسى انتقل من المشكلة الى نبيلة نفسها ،
ومن فورى أستحضرها أمام عينى ، لتزورنى وتقضى معى فترات
طويلة ، بقميص نومها فتكون رائعة ، ويكون لونه أسود - مرة
رأيت طرفه من تحت فستانها وكان الهواء خماسينيا - ويشف
سواده عن بياض جسدها الجميل ، وينسال شعرها فوق
كتفها فى اصفرار ذهبى ، ويحدث فى الاضاءة الخافتة أن تترقق
هذه الألوان فى تمازج مدهش .

كانت تأتينى - أيضا - فوق صفحة الكتاب الذى أقرأه
فوق ورق القطن حيث أجرى أبحاثى على الدودة ، أحيانا تحت
المجهر فأتملى فى أعضائها كلا على حدة : العينين ، الأنف ،
العنق ، الفم ولم ترحنى ضمة شفيتها كأن فى مذاقها طعم المر .

كانت تدخلنى مع انغام الموسيقى التى أسمعها ، وأيقنت
أن صوتها ليس منفرا كما كنت أظن . قلت ان الانطباعة الأولى
غالبا ما تخطئ .

وصرت كلما رأيتها تهل نحوى بكيانها باشعاعات ابتسامتها
بإبحاءات نظراتها اهتف لنفسى :

- سوف تصير هذه الفتاة امرأتى .

وانقلب الاهتمام الى انغماس ، وتغير الحال ، وصار كل ما تفعله يهمنى ، والشئ يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ، تأسرنى ومقاتها الجانبية ، تلقانى مبتسمة فأسعد طوال اليوم تلقانى مهمومة فينشغل بالى ، وكنت أكره التجاعيد الكثيرة التى تظهر فجأة مع تقطيبتها .

أسعدنى تسللها الى جميع ما يشعر أو يفكر فى داخلى ، وصرت أفعل كل ما يسعدها ، فى الحقيقة حاولت أن أفعل ما يجعلها تحبنى وتلتصق بى ، كانت حمى .

تبادلنا كلاما كثيرا رقيقا . لم تكن الرقة فى الكلمات نفسها ، وانما فى نطقها ، فى النظرة المصاحبة لها ، وفى خلسة الخدين .. كلمة أحبك نفسها لم أقلها ولم تقلها ، قالتها التصرفات اليومية واللفتات الصغيرة وردود الأفعال العفوية ..

الا اننى كنت أثور على نفسى أحيانا : لماذا هذه البنت من كل بنات الدنيا ؟ ! ليست الأجمل وليست الحلم الذى راودنى!! وان كان ما بداخلى هو الحب فأمره عجيب فعلا ، انبساط زائد يعقبه ضيق غير مبرر .. وقلت : لن أتسرع بالارتباط بها حتى يواجه هذا الحب الأبام ويقوى بها ، هى مرة يجب أن تكون واحدة .

يأتى وقت يتمنى الانسان فيه أن يستريح من حرية الوحدة .

ومن خلالها تنبهت الى أن الانسان يطمع فيما ليس معه .. وأن التى تشد أنظاره ليست المرأة الأكثر جمالا ، وانما الأكثر

اختلافا وتفردا ، ولأن الشائع في القاهرة هن السمر والقمحيات من البنات ، لذلك فان رءوس الرجال كانت تستدير الى نبيلة أينما سارت ، شعرت بالزهو لأنها معي ، وشعرت بالفيرة لأنى أخشى من فقدها .. ومرة قلت فى بالى : سوف تملؤها هذه النظرات بالغرور ، ثم استدركت : ولكن من المؤكد أن هذا - بالفعل - حدث !!

أخفيت انقباضى ، وبعد أن ودعتها - وصدقتها سعاد - صار الانقباض دوارا ، كانت دائما محاطة بدائرة من رجال المركز حبتها عنى فلم أتنبه اليها ، وكانت صدقتها سعاد تقف خارج هذه الدائرة تحاول أن تجد ثغرة لها ، فلما دخلتها ظلت كل الأنظار مجذوبة الى وجه نبيلة .. هناك حقيقة هندسية : لا تكون لأية دائرة الا مركز واحد ..

أما أنا فقد شعرت بنبيلة فقط عندما خرجت من هذه الدائرة لتقتحم دائرة اهتمامى وتحتل نقطة المركز فيها ، لذلك فقد ضابقتنى كثيرا بصدقتها سعاد ، غالبا ما كانت تحضرها معها ! .. حزنت فى البداية لكنى التمسيت لها العذر : هى فى النجاة سليفة الأم والجدة - هكذا التمسيت لها الأعذار - وهى ما زالت تضعنى تحت التجربة والاختبار ، وعندما تتأكد من حبنى لها فسوف تتولى من نفسها ابعاد الثالث ، وكنت أعرف أن هناك حيلة للوصول الى ذلك ، هى أن أفتعل الاهتمام الحميم بسعاد كى تشعر بالخطر منها ، لكنى لم الجأ الى هذا الأسلوب لنفورى من الالتواء ، وفضلت أن أصارحها بعدم ارتياحى الى صديقتها ، وفعلت ذلك تلمححا ثم تصرّحا ثم جفاء .

كنت أجلس فى مواجهة نبيلة ، وعندما تتكلم سعاد - وهذا غير كثير - أجد نفسى أرد فى ابتسار وجانب جسدى لها ،

أما نبيلة فكانت تعذليها نصف اهتمامها ، حتى ابتسامتها كانت تقسمها بيننا ؛ نداعبني بعبارة وصديقتها بعبارة أخرى ، انشطر اللقاء الى نصف لي ونصف - وأحيانا أكثر - للصديقة .. فنفرت منها .

عجيب ان اغار على نبيلة من فتاة مثلها !

الى أن اقلت الزمام ، ووجدت نفسي أعامل سعاد هذه في غلظة واضحة . ظلت جامدة مكانها ولم تنصرف ، بابتسامته مصنوعة فوق وجه باهت شديد الشحوب - ولم أشعر نحوها بأدنى شفقة - وعندما ودعنا نبيلة لتصرف تركت أنا سعاد ولحقت بها ، فاستدارت نحوي بوجه متوتر كثير التجاعيد وهممت :

- هذا سلوك فظيع ، فظيع ..

وعلى مدى الطريق الى بيتها ، ظللت أداعبها وأحكي لها الطريف من حياتي حتى ابتسمت ، حتى تجاوبت وتركت كفها في كفي ، لكن قلبي انقبض عندما حدثتني عن والدها وقالت انها لم تحب رجلا من بعده ، ثم حكّت لي عن شفيها القديم برحلات المدرسة ، وعن رحلة السنة الثالثة في الجامعة ، وكانت مخصصة لدراسة التربة في منطقة أسوان ، وكادت نبيلة أن تكون البنت الوحيدة ، فعاملها المشرف برقة ، وقدم لها كل طالب الطف ما عنده من ابتسامات وجميع ما يعرف من معلومات وخبران جيولوجية .

أسفل بيتها هزت كتفيها وقالت بتواضع - لم يقنعني - أنها كانت ليمونة في بلد قرفانة ! .. ثم قطعت ابتسامتها فجأة وحملت في وجهي طويلا وتغافلت عن اقترابي الشديد منها

وثركتنى أقبل خدها فى لثمة سريعة ، وكان باردا وكانت جفونها ترتعش .

وحددنا موعدا فى اليوم التالى .

غير انها لم تأت . كانت لثمة الخد هى آخر تقارب بيننا .

رأيتها بعد ذلك فى سيارة زميلنا فريد - وهو الذى يبحث فى استخراج المواد الغذائية من البترول - وقد عادت الى طلائها وباروكتها !!

وعندما قابلتها فى المركز حيثنى ثم سرعان ما تشاغلتنى عنى ، ولما لم أنصرف نظرت الى وابتسمت ابتسامة حلوة ، أظن ذلك ، ولما لحق بها فريد أعطته الابتسامة الحلوة ، واندمجت معه فى حديث كان من الممكن أن أسمعه بوضوح : اذ أنها أبدت حماسها للون قميصه - كان فريد انيقا فعلا - ثم بلمسة سريعة أحكمت وضع ربطة عنقه ، وجعلت لا تنظر نحوى الا برمقات عشوائية لكنها مدققة ، فخطر على بالى أنها تعمل على اغاظتنى واثارة غيبتى ، وطاردتنى الحقيقة الهندسية :

بأن أية دائرة لا يكون لها الا مركز واحد .

قلت فى النهاية : هى بنت مصرية نكره الوضوح ، كان من نصيبى أن أراها وهى تتخلص من تنكرها ، وهى تخلع آخر مبتكرات الموضة وهى تلفظ تعليمها الجامعى وحديثها عن الزهور والموسيقى ، وتلقى بكل ذلك لأرى النقيض ، البنت المصرية لها حياتان : حياتها المعروضة للعلانية وأخرى خاصة بها تموت بسرها ، وانها تجعل من التعليم شهادة توظف تعطيتها عريسا أفضل !

حتى هذا الراى لم ارتح له ، ورايت انه وليد الفطسب ،
وراجعت نفسى متمردا على التعميم ، وصرت أخلق الأعذار فى
تخلفنا الحضارى .

لكن الأمر المؤكد لى الآن ان نبيلة تعيش حياتين ، بوجهين
مختلفين ، ولم يكتب لى التوفيق لفهم أى من الوجهين ، واكاد
أقول كليهما ، وان كانت تريد أن تهجرنى فلماذا تركتنى أقبلاها
آخر مرة ؟! .. مازال حبها فى قلبى ، فما دخل عسيرا لن يخرج
يسرا .

عادت أميرتى - بالأمس - الى زيارتى قبل النوم ، كانت
الخميرية واسعة العينين كما هى ، رقيقة الجسد مشدودة الثديين
يشبه بسمة على الخدين فيهما الطيبة والوفاء - دائما - طلبت
منى الا احزن لأن هذه الأمور تحدث فى جميع العصور .. وفى
الصباح بينما أدخل دورة المياه بجريدة الصباح فى يدى ، قلت
ان هذه الأميرة لا أكثر من نقش فوق حجر لا يتبدل .. وكانت
الجريدة مكتظة بكل الأخبار الشاذة من حروب وسرقات وخيانات،
ومقالات كلها تدليس ، واعلانات مبوبة لبضائع مهربة توحى
بسوق سوداء .

٢ - سعاد :

(الشاذ يخلق الشاذ)

وحدى على الرصيف ، والاتوبيس يتعد به وبها ، تركنى
كالهارب دون كلمة وداع ، من الجائز أن الناس لاحظوا ، كم
هو قاس ! شرير ! .. وكنت سأعطيه حنانا بلا حدود .

خدعنى انطباعى الأول . ظننته رقيقا طيبا ثم وجدته مثل
الآخرين ، بشعا مثل ملابسه ، كل الباحثين التفوا من حول
نبيلة ، حاصروها بغزلهم المكشوف والمستتر ، وهى ليست
الجميلة الوحيدة بالمركز ، لماذا هى بالذات ؟ !

كنت اظن نظرتها العجيبة هى السبب ، تسهم طويلا الى
كل رجل كانها تواعده ، ثم اكتشفت شرى وسوء ظنى ، فهى
كيلة البصر وبسبب عنادها ترفض استعمال النظارة ، ويضطرها
ذلك أن تقترب من وجه محدثها فى نظرة متفحصة تطول كى
تستوعب ملامحه (اظن أن الرجل يفسرها - بفروره وسخفه -
على أنها انجذاب اليه وانبهار به !!)

لكن نبيلة فى مواجهة الرجال أنثى كاملة . بسرعة مذهلة
استحوذت على مهابى ، وبدلت حاله وجعلته كالآخرين ! ألم
يكفها الجميع ! ؟ .. كان عليها أن تتركه لى ، شريرة مثله .

لكنه هو الذى تمادى فى الالتصاق بها ، وكان رقيقا معى
ثم صار فظا ، وكم صبرت عليه الى أن يئست منه . كنت
سأقمره بحبى وحنانى ، اننى مليئة بالحنان ! .. المجرم !!

أردت الابتعاد عنه وعنهما ، كان عليها أن تختار ، وكنت
سأقول لها رابى بصراحة ، ولم أفعل . حاولت مرات ، ثم رأيت
أن تجنبهما أسهل وأجدى ..

أخذتنى جانبا وقالت :

حبيبتى سعاد .

(قالت حبيبتى سعاد !!)

— حبيبتي سعاد ، أنا أحبك ، لماذا تباعدن عني ؟ !
نكست رأسي ، كنت مصممة على عدم مناقشة الموضوع
معه ، قادرة هي على اقناعي ، قالت :

— أخمن ما فعلته معي ، وجهت لي تهمة في شرك ولم
تخبريني بها ، ثم أقمت لي محاكمة في رأسك ، أنت فيها القاضية
وموجهة الاتهام ، وكان حكمك انني مدنية فغضبت مني !!

ذكية هي ، حتى في أبحاثها تعمل قليلا وتستوعب كثيرا ..
استطاعت فهم السبب . قالت :

— أحبك . وان ندع أي ثالث يتدخل بيننا .
وكانت رقيقة معي ، قالت :

— بيت خالك في مصر الجديدة بعيد عن المركز . اقضى فترة
الظهرة معي في الدقي ، بيتي هو بيتك ، وأمي هي أمك .

ورأيت صورة والدها في إطار أسود ، وفي غرفتها كانت له
صورة على الحائط وصورة أخرى بجوار كتبها .

ورحبت أمها بي وعطفت على كثيرا . قالت :

— أبعيدة عن أسرتك يا مسكينة ؟؟

فأجبتها بأنني أسافر اليهم في أجازاتي التي تزيد على
اليومين ، ثم شرد ذهني الى مهلب : تعبت من الغربة ومن الانزواء
في غرفة وحيدة ، حلمت بشقة كاملة ، خاصة بي ، أتحرك في كل
مكان فيها بحريتي . أطبخ ، أفلع عارية ، أغني أو أبكي كما
أشاء .. حلمت بشقتي الخاصة بي وبه ، ورأيت معي في نفس
المكان ، أرفع رأسي فأراه يهم بتقبيلي ، أحيانا ينهرني ، ويأتي

فى بطنى بطفلة جميلة تخفف عنه ماله حينما يقدم بنا الزواج .
الغبى !!

ساعة الغداء اطعمنى امها حتى اتخمت واشتقت الى
التمدد ، وعرضت نبيلة أن ارتدى أحد قمصانها ، لكنى تمددت
بفستانى (كم هى لطيفة) .. قبلتنى فى ود ثم استلقت الى
جوارى وتهدت :

— لن ندع ثالثا يفرق بيننا .

ثم اخذت اناملها تداعب شعرى (دغدغنى ذلك) حتى
شعرت بالنعاس وكدت انام ا ومن فوره جاءنى مهاب ، وكان
يبتسم ونام بجوارى واخذ يمرر اصبعه حول شفتى وتركته
يفعل ذلك وانا منتشية ، ثم اعتدل لأرى الحنين والحب فى عينيه
ووجهه يهبط نحوى ليقبلنى ويسعدنى ، ثم نهزته فى دلال كى
يلتفت لأناقته وقلت له ان ذقنه يشكشكنى ، فعادت شفتاه
تهبطان فوق شفتى) .

وعندما فتحت عينى وجدت نبيلة بيسمتها المشعة ودا
تقول :

— كالطفل الصغير نمت فى حضنى . كنت أسمع تنفسك
منتظما وقريرا .

ثم هبط وجهها نحوى فى حنو وحب وقبلتنى فشمت
رائحتها ..

وتعودت على قضاء ما بعد الظهر عندها ، انتظارا لموعده
عودتنا الى المركز .. ومرة اشتكت لى من الدكتور المشرف على
بحثها ، يعاملها بجفاء ويتهمها دائما بالدلع ، قالت أن تخصصه

فى الجيولوجيا طبعه بالتحجر ، وقالت انها تظن أيضا إن الأطباء رقيقو الغلب بسبب تعاملهم مع الانسان . لم اوافقها على هذه النظرية ، فأخذت تكرر تبرمها من الأستاذ ومن كل الرجال أيضا ، وصرحت بأنها تتمنى لو صارت رجلا لأن الرجل مازال هو الميمن على المرأة ومازال هو الأقوى فى المجتمع ، قالت :

— مهما تحدثنا عن المساواة فالكلمة العليا له ، فما بالك ونحن فى بلد متخلف !

ونهضت وأحضرت لى مجلة مطوية الأطراف مفتوحة عند صفحة معينة وقدمتها لى ، فرأيت صورتين متجاورتين : الأولى لفتاة متأنقة مسرفة فى تبرجها ، والثانية لنفس الفتاة بعد أن أجرت جراحة بسيطة حولتها الى رجل فقصت شعرها ونبت الشارب والذقن وكانت — أقصد وكان — متأنقا أيضا . . فقلت فى سرى ان الفوضى عمت العالم . الرجل ينقلب امرأة ، والمرأة تصير رجلا ، والأخ يقتل أخاه ، أنها دلالات الساعة ، والشاذ يخلق الشاذ .

همست نبيلة :

— حقيقة أود أن أصير رجلا ، أسيطر .

ومرة أخرى مكثت صامته ثم فجأة (ولا أدرى لماذا ؟ !) مزحت قائلة : ان الأرض مؤنث والماء مذكر لأن الماء هو الذى يروى الأرض ويجعلها تخرج الزرع ، وعلى ذلك فالعافر والعقيم تعتبران جنسا ثالثا لأنهما لا تنجبان . لم اوافقها على هذه الآراء أيضا (ولا أدرى ما الذى جعلنا نفكر هكذا !!) . . الا انها جاءت الى جوارى وجعلها ضيق السرير تلتصق بى ، وأخذت تداعبنى برقتها المحببة . كان الوقت صيفا وشممت عرقها

ورأيت مسام جلدها الأبيض ، وتأملت شعرها الأصفر البناعم ،
وقمت بفردة فصار طويلا غطى كتفيها وتهدل فوق صدرها
الناهد ، جميلة بالفعل هذه البنت ، أنثى .. ولهم حق - الرجل
وهذا المهاب - في أن يعشقوها .. أهاننى وتجاهل اقبالى عليه
وقفز اليها ، وأنا لا استحق ذلك .

قالت نبيلة :

- سأقاطعه من أجلك لو رغبت

(لو كنت مكانها لما فكرت في هذا الكلام ، ولاخترته هو
من غير تردد) .. لكنه أخذ يحايلنى ، من أجلها أخذ يحايلنى .
فعدنا نتقابل نحن الثلاثة ، وقالت لى :

- سأتركه فورا اذا طلبت منى ذلك .

لو كنت مكانها لتمسكت به ، لكنه تمسك بها ذليلا ، كيف
لم يدرك ؟ ! كيف لم يميز التى تحبه من التى تتسلى به ؟ ! مع
أن صيته فى المركز انه عبقرى عظيم فى أبحاثه ! فهل يكون
الانسان ذكيا فى العلم مغفلا فى أمور الحب ؟ !

صرت عاجزة عن فهم هؤلاء الرجال مع أنى كثيرا ما حلمت
بهم ، من قبل أن ينبت ثدياى وأنا مشغولة بهم ، طالما تخيلت
نفسى مع فتى جميل أنيق لا أذكر شكله جيدا ، يقابلنى أوقاتا
فى الخلاء بعيدا عن أعين الناس ، ويأخذنى فى قارب يهيم على
هواه تحت شمس دافئة وطيور تغرد من حولنا وحمامة بيضاء
تجط على الشراع ، وهو يحدثنى همسا عن حبه لى وكفه
تضغط كفى فى اشتياق ثم يميل لتهبط رغبته نحوى مع شفثيه
ليقبلنى فى لهفة .

وكم كنت خجولة عندما رأيت ابن خالى لأول مرة في
البيجامة (وكنت في بداية قدومي الى القاهرة للدراسة الجامعية،
وأفرد خالى غرفة لى في شقته) .. وكم زاد خجلى وحيائى
عندما شاهدته يخرج من غرفة نومه مستيقظا فى الصباح
وبيجامته مشعثة وشعره مرتبكا فوق جبينه ، كان رجلا - ليس
أبى أو أخى - ينهض من سرير ! .. وكم دق قلبى سريعا عندما
رأيتة يخرج من الحمام !! .. لكنى مع ذلك لم أحلم به رغم أنه
أجمل من مهاب الخشن الفظ !

وفى الجامعة كنت اتضايق من عيون التلاميذ (وأيضا كنت
أسعد بها) .. الا أن الفتى الجميل غير محدد الملامح ظل يراودنى
أثناء النوم ، وأحيانا أثناء ركوبى الأتوبيس رغم شدة الزحام
وضغط أجساد الركاب على جسدى .

لكنى أحببت سمر بمجرد أن فتح لى باب شقتهم ، سألته
عن أخته سميرة فأضاءت عيناه وهو يأخذنى إليها ، ثم ظل
يختلق الأعذار ليدخل إلينا ويبتسم لى - بعينيه الجميلتين -
ثم جلس معنا وأخذ يمازحنى ، واسترحت إليه ، وصرت أنا
أختلق الأعذار لزيارة أخته ، ثم قابلنى مرة عند خروجى من
المركز - قال انها الصدفة - ولم أمانع فى الذهاب معه الى
السينما ، وبعد خروجنا تسكعنا فى الطرقات سويا ، وظللت
سعيدة باقى اليوم ، لكنى فى المساء تنبهت الى نفسى ، كتبت
سأحبه ، والله كنت سأحبه وهو ليس من دينى ، وأنا غير مستعدة
للدخول فى المشاكل مع أسرتى وأسرته ومع الناس وفضولهم
اللزج وتزمتهم المريض ، تكفىتنى متاعب البحث الذى أعده ..
وظللت أياما كثيرة أقاوم عينيه وبسمته ، أطرده صوته من أذنى
وتلميحاته الغزلية من وجدانى ، كم قلقت ! .. قبل النوم كنت

أنوح باكياً : لماذا يا رب تفعل ذلك ؟ ! لغات متباينة وأديان
عديدة والجميع يتحفزون !! وكان يمكنك خلق التأخى !! ..
صار شذوذ الشيء هو القاعدة !

ابن خالى أيضا حام من حول غرفتى . يتحين هدوء
الشقة ويتقرب منى ، مرة جاءنى فى سكىنة الليل وكنت اذاكر
والجميع نيام وحاول تقبيلى ، رايت عينيه تحملقان رغبة من
وجه شاحب متوتر ، وعندما مد يديه يلمسنى شعرت برجفة
أصابه ، ولما نطق بكلمة أحبك كان الصوت جافا وشاذا
ولم يكن صوته أبدا ، ونفرت منه . لمست شفتاه عنقى لكنى
هددته بالصراخ ، فسكت ثم عاد الصوت الخائف يقول أحبك ،
ثم انسحب (وفى الصباح لم يقم عينيه فى عينى) .. ولو كان
دخل غرفتى فى هدوء وجلس بجوارى وهمس وائقا بكلمة أحبك
هذه ، لو فعل ما فعل بحس مرهف لربما لنت له ، لو هيانى
نفسيا وأدخلنى فى جو الغزل لربما تركته يقبلانى ، لكنه لم
يصل حتى الى رقة الطيور أو انقطط (تتبععت يوما قطا مكث
يطارد قطة لأكثر من عشر دقائق ، وكنت بشرفة دارنا فى البلدة ،
والقط يقترب ويهر ويقفز من حولها ويسبقها ويتخلف عنها حتى
رضيت واستكانت له . رايت أيضا الديك الرومى فوق سطح
دارنا ينفش ريشه ويدور حول أنثاه فى دورات غزلية . والحمام
والعصافير والماعز وكل الكائنات تفعل المثل ، الذكر يهيب
أنثاه بالأصوات ، بالحركات ، بالرائحة ، فلماذا لم يفعل ابن
خالى ؟ !) .. ووجدتنى فى العمل أترك ملاحظة تجربتى وأنوح
فى أعماقى بأن هذا الكون قد تم توزيعه بطريقة سيئة وسخيفة ،
لماذا لم يكن سمر شقيق سميرة هو ابن خالى ؟ ! اذن لانتهى
الأمر وأحببته وتزوجته ولصار هو رب شقتى التى يمكننى أن

أخلع فيها ثيابى دون حياء : والتى يمكنى أن أرتبها وأنسق
إثائها حسبما أريد وعلى هواى ، لكن الحال يأتى دائما
مقلوبا !!

احترت : لماذا يضعنى الله فى الوضع المعكوس ؟ ! ولماذا
يتركنى للمرة الثانية أحب رجلا غير مناسب ؟ ! هذه المرة
يحب أخرى لا تستاهله !! رجل شرير قاس رفض توددى وتركنى
أتسكع فى الطرقات وحيدة .

لن أعود الآن الى بيت خالى البعيد ، حالتى سيئة ، فأين
أذهب ؟ ! .. لن ادخل مرة أخرى شقة نبيلة ، والى ان أموت
لن ادخلها ، فلتتزوج ولتأكله ان شاءت ، ويمكنى قتل الوقت
الممل بالسير فى محاذاة النيل (وكم حلمت بفتاى فى مركب فوق
مياهه) .. ذلك النهر هو الذى جعلنى حاملة ، يمضى فى بطء
دون مفاجآت كحبة خائفة خاضعة ، لو كانت به الشلالات
والجنادل والتماسيح لاختلفت أحلامى ، لتبدلت من بطيئة وردبة
واقعية الى أخرى نشطة متحركة ، وربما كنت حلمت بأن الجنادل
قد شطر قاربى نصفين وبأننى قد صرت وشيكة الفرق لولا فتاى
الشجاع يسبح خلفى فى قوة باسلة وينتشلنى من براثن الشلال
الجارف ، فى آخر لحظة ينقذنى ثم يحيطنى بجسده ويهبط حنانه
مع شفتيه ليدفئنى ..

يا لخيبتى ! أعود ثانية للأحلام وأنا سائرة فى عز الحر .
وحيدة ، بنت حاملة تتخرج من كلية عملية !! الحال المقلوب
يطاردنى !!

ويوم أخذنا قارباً - هى وهو وأنا - لم تأت العصافير
لتفرد من فوقنا ولم تحط الحمامة البيضاء على الشراع (ولن

يكون في هذه المدينة الدخانية حمام أبيض في أى يوم من الأيام القادمة) . وبعد أقل من عشر دقائق كادت الشمس النارية أن تقتلنا (حتى الحقائق تختفى وتتحول الى مواقف للسيارات المزعجة) .. وكان كل خوفه عليها هي ولم يأبه بي ، وحاول بشتى الطرق أن يحجب الشمس عنها (ومرة كدت أختنق من عادمها) .. هذه الملعونة ، لا يعرف أن جسدها ناعم بالصنعة ؛ جسدى أملس بالخلقة ، وقد لمحت الشعر القصير نابتا في ساعديها وساقها ، رأيت ذلك بنفسى : أنهمكت هي أمامى (عصر اليوم الحار) ولأكثر من نصف ساعة في إزالة هذا الشعر الأصفر حتى صار بدننا خاليا منه .. رأيت بنفسى هذه العملية المرهقة .

ولما لمحتنى في المرأة أحملق دهشة ، قالت في بسمة شاحبة :

- يقول المثل : بارك الله في الرجل المشعر وفي المرأة الملساء ، جسديك ناعم فأنت مباركة .

تفحصت نفسها في المرأة وضحكت تخفى توترها :
- أما أنا فملعونة .

كان صوتها متهدجا فعطفت عليها وقلت بأن هذا مثل فيه تحيز ، اخترعته امرأة ملساء تكاية في الأخريات !! .. لكنى في سرى حمدت الله لأن جسدى كله أملس ، لست في حاجة لفعل ما تفعله ، أما هي فملعونة ، وأنا أكرهها وأكرهه ، ولتفرح به وقد قفز لاحقا بها ، ولن أدخل شقتها ثانية ، مهما اقتربت قدمائى من بيتها ، لن أذهب إليها والى أن أموت .. الملعونة ، نبيلة ..

(الضحك الزائد يسيل الدموع كالبكاء)

كثير من صخور التربة تتجاوز ولا تتفاعل مع بعضها ،
والقليل منها يتحد لينتج مركبا جديدا فيه خواص من الاثنين .

عندما وقف يودعنى تركته يلثم خدى ، لعله يظن أنه
غافلنى ؛ لكنى تركته يقترب منى ، وكنت سأدعه يقبل شفتى ،
كانت فكرة أن أهجره قد رسخت فى ذهنى ، وكنت أريد أن
أختبر أحاسيسى نحوه بصفة نهائية ، فعلت ذلك فى صدق ،
الا أن لثمته لم تتعد تلامس سطحين فى نفس درجة الحرارة ،
لم أشعر إلا بموقع اللمسة ولم يتعد أثرها أكثر من ذلك ، وظلت
نبضات قلبى فى سرعتها المعتادة وظلت دورتى الدموية فى سيرها
الطبيعى ، لم تنحسر الدماء من أطرافى أو تندفع الى رأسى ،
ولم يأتنى بالدوار اللذيذ ، فقلت لنفسى جسدى لا ينجذب الى
جسده ، من المؤكد اننى لا أحبه .

فتحت باب الشقة بفتاحى - سمعت صوت أمى آتيا من
المطبخ تئن من روماتيزم ساقها - وقررت فى نفسى أن أقاطع
هذا الرجل وأنهى علاقتى به . شعرت بدمعى ينسال فوق
خدى ، حزنا على شيء غامض فى داخلى يتخلخل ويتقلص ويموت ،
حبى لرجولة هذا الرجل وكان قد بدأ يشدنى الى عالم
كنت أنفر منه !

ولكن كيف حدث أن جذبنى طوال الفترة الماضية ؟ !

بنظرة من سعاد تنبعت اليه ، وكان يدخل الى حديقة
المركز . كنا نقف قرب المدخل ، فى وسط مجموعة من الزملاء

ترتفع ضحكاتهم بآراء مرحة ، وكان حسين يقول ان الحب وهم يخافه خيال مريض ، اوله هزل وآخره غم ! .. ضحكنا وتفاصح سامى : انما الحب اعوجاج هو علة نفسه ، لا يصلح معه نصح او افتاء .. فعلق عليه عوض : اطلبه لعدوك ، عقرة الحب مثل عقرة الكلب المسعور ! .. الوحيد الذى تكلم فى جدية وأسى كان ابراهيم ، قال ان الحب حالة عاطفية لا تعيش فى غير المناخ الموضوعى المناسب ! .. ثم لاحظ فريد أن جميع الواقفين غير متزوجين !! ، نظر فى عيني باصرار خبيث وقال :

— ومن واجب البعض أن يتزوج .

لذت بنظراتى الى سعاد لأجدها فى نظرة متوترة تتابع بها مهاب الذى عبر الحديقة ثم اختفى فى باب المبنى . قلت لنفسى لحظتها : يكاد وجهه أن يذكرنى بشىء ما او بانسان ما ..

لذلك اعترضت طريقه بعد الظهر ، ارتبك وتلعثم كطفل صغير وبدا فى لكمة البنت حديثة المراهقة ، فاستلطفته ، اكنى لم ارحمه وانتقدت طول ذقنه وقلة أناقته وبقع عجيبه تلتطخ اكدام قميصه : اغاب الظن أنها من فعل المواد الكيماوية ، ولما أخبرته بأن أحد المخترعين قد ابتكر جهازا لتصفيف شعر الرأس رخيص الثمن اسمه « المشط » احمر وجهه ومرر أصابعه بين شعره الأسود .. وكانت سعاد معى ، وكانت ترتبك بارتباكها !! وكلمها تحدثت تقلقلت نظراتها لتستقر على شفتيه !

وفى اليوم التالى بدا كأنه نسى كل ملاحظاتى ، جاء نعيسان وأظنه لم يغسل وجهه فتبعته حتى معمله — دون سعاد — ابتسم فى وجهى ورايته — ولا أدري لماذا ؟ ! — ساحرا .

حدثني كثيرا عن دودة القطن وتجاربه للقضاء عليها ،
وأراني في فخر وزهو دوده العقيم والذي قام بتعقيمه ، شارحا
أن تعقيم دود القطن هو السبيل الأمثل للفتك به اذ سينقرض
دون أجيال جديدة . حملت الى هذا الدود فوجدته أقوى
واضخم من المعتاد !!

ضحك وسأل :

— هل تعرفين سر قوة البغال ؟؟

هزئت كتفي . قال :

— ذلك انه جنس نالك ، عنين ، لا هو بالذكر ولا هو
بالأنثى .

حملت في عينيهِ :

— أهى قاعدة ؟؟

— ربما . .

— أتسرى اذن على الرجال الأقوياء ؟؟

فأبعد نظراته عني ، ومرة أخرى قلت انه يكاد يذكرني
بشيء ما ، لكن ما هو ؟؟

وفي الأتوبيس قال انه لجأ الى حيلة التعقيم هذه لأن
الدودة — بمرور الوقت — قويت مناعتها ضد المبيدات .
تفلسف قائلاً :

— هكذا حال الانسان مع سموم مدنيته ، يقلقه الضجيج
في البداية لكنه سرعان ما يألفه ، وسرعان ما يتأقلم مع الدخان
والزحام ، ويصبح الشاذ مألوا .

كان يكلمنى بصوت مرتفع ففوجئت براكين يدخلان معنا
فى الحديث ، لىندمىج هو معهما ويكاد ينسى وجودى !! .. لكنه
بعد ذلك تعلم كيف بتأنق ، وبانت عليه وسامة الرجال !

اهتم بى ونسى الآخرين ، لكنى لم أكن أريده أن يفعل ذلك
مع سعاد ، كان يتجاهلها بطريقة مؤلمة ، وأن حدثها ففى
اقتضاب وأحبابا فى جفاف .. نهته إلى ذلك أربع مرات : المرة
الأولى فعلتها فى حرص وبطريقة غير مباشرة ، والمرة الثانية
فى كلمات محددة وفى هدوء كبير ، ثم لفت نظره قائلة :

— فلتعلم أن الإهانة لسعاد أهانة لى .

كنت حاسمة ، وعندئذ حاول ممارسة الضغط على
مهددا بالقطيعة ، حذرتة :

— أرجوك : لا تضعنى فى موقف المفاضلة بينها وبينك .

الى أن قفز الى الأتوبيس لاحقا بى !! .. مبتعدا عن طفلى
الحبيبة التى وقفت على المحطة واجمة ، ومن المؤكد أنها
بكت ، ولولا اسراع الأتوبيس لقفزت أنا إليها . كان فظا :

— فظيع .

كررتها له ثلاث مرات ، فسكت لمسافة محطة كاملة ثم بدا
يحاول تلطيف الجو ، روى كل ما يعرفه من مفارقات مضحكة ،
قال نكتة ضحك لها حتى دمعت عيناه ، والاسراف فى الشئ
ينقلب الى الضد ، لذلك لم ابتسم .. وهربت من صوته الى
والدى ، فتدخلت البيوت أمام ناظرى ، ورأيت أبى ، الحبيب
الذى .. رحل وتركنى .. أواجه هؤلاء الناس .. الرجال ..
وكان قد داعب .. شعرى الأصفر .. وقال :

– أنت يا نبيلة أجمل ما جئت به الى الحياة

وعندما مرض ظل كلما جلست الى جواره ينظر الى وجهي
طويلا ، وكان اسمي هو آخر ما نطق به قبل ان يرحل ،
ويتركني .. للناس .. الرجال .. وحدي .. بأمي التي لا تغادر
المطبخ الا الى السرير لتأوه من روماتيزم الساق .. أما أبي
فكان يتسم دائما في وجهي ، حتى لو كان يتألم ، ويهمس :

– أنت اللمسة الرقيقة في حياتي ، الهمسة الناعمة .

وكان يعامل أُمي برقة ولا يمل من سماع شكواها ،
وكان يحب ان يدفعني الى البوح بشكواي كي استريح ، قلت له :

– أبحاثنا التي نجريها يقتلوننا فوق الأوراق ، فتحولنا
الى الكسل وشرب القهوة وقراءة الجرائد المملة !

قلت له :

– كرهت الفوضى والقناعة بالجهل وسوف أهاجر
يا أبي .

صمت طويلا ثم قال :

– ما يرضيك يرضيني ، لا أخشى عليك من أى مكان .
أنت بعشرة رجال .

فشعرت بالتوة وقلت في عناد :

– بالفعل أنا بعشرة رجال .

نبهني مهلب الى محطتي فنزلت من الأتوبيس وسرت الى
البيت وسار جوارى مكبلا حديثا يبدو أنه بدأه في الأتوبيس .

مد كفه ليمسك كفى فسحبتها ، ثم عدت أتركها له
لأجرب .

كنت أريد أن أصير طبيبة ، أدخل كلية الطب بدلا من
العلوم ، لكن مجموعى رمانى الى قسم الجيولوجيا والى التربة
والصخور والبازلت وطبقات الجير والرمل ، والخوف من آفات
الصحراء وضربة الشمس والدفانة ذات اللدغة القاتلة ، ومعرفة
العرق وطعم العطش . كنت أتمنى أن أصير طبيبة للولادة .
أخرج الأطفال من البطون ، البنات والبنين والتوائم ، لكن رغبتى
أجهضت ، ولا أدري لماذا رغبت فيها ، أما الآن فأنا لا أريد .

أسفل سلم البيت استدرت له مودعة ، وفجأة تذكرت :
أن وجهه ظل يذكرنى بصخور الجرانيت التى كنت أجري عليها
أبحاثى ، اللون ، قسوة الملامح ، اتساع الجبهة ، وهذا
الصدغ ! .. تفحصت لونه الجرانيتى وكان يقرب من وجهى ،
يريد أن يقبلنى ، وأردت أن أجرب تأثير قبلته ، لكنه كان
خائفا ، فرميت بنظري بعيدا عنه ففاقلنى وقبل خدى ! ثم
حاول أن يلثم شفتى ، فلم أشعر الا بأثر الضغطة ، وكانت
حرارته فى مثل حرارتي فلم ينتقل شيء منه الى ولم ينتقل شيء
منى اليه ، وأيقنت أننى فيما قبل كنت واهمة معه .. وعلى
الفور رأيت دوده العقيم يتلوى غليظا قويا فى عيني !!

كالأمعاء عندما تلفظ الأكل الضار ، كالبدن عندما يطرد
الجسم الغريب ، كالجسد عندما يتخلص من الدم الفاسد ،
شعرت بهذا الرجل يخرج من وجدانى وبصفة نهائية .

فتحت باب الشقة بمفتاحى ، وكانت أوى فى المطبخ ،

فدخلت مباشرة الى غرفتي مهمومة ، حزينة على سعاد ، كانت
المسكينة كلما نكلم تقلقلت نظراتها لتحط فوق شفتيه ! ..

استلفيت على سريري ورحت أنظر الى صورة أبي -
كم هو نبيل ، وديع النظرة ، بشارب حليق فوق شفتين جميلتين،
كان يعرف أمنيته في أن أصبح طبيبة ولادة .. وقال لي :

- ستكونين أجمل تلميذة بكلية العلوم ، أرجو أن تكوني
أكثرهم تفوقا أيضا .

وعقب يومي الأول رآني أعود قرفانة :

- انها كلبة للأولاد ، ليس هناك من بنات غري وغير
تلميذة اسمها تفيدة .

- فهل هي جميلة مثلك ؟؟

- بالتدقيق تكتشف جمالها .

- أما الاكتشاف معك فيجىء في الوهلة الأولى .

ثم همس ونحن في الشرفة وأمی تتأوه في غرفتها :

- أرجو أن تثقي بي يا نبيلة ، وأن تحكي لي عن كل
ما يطرأ عليك دراسيا .. وعاطفيا .

وبعد برهة عاد يهمس :

- لأن معظم النلاميذ سخازلونك ، وهم في الحقيقة
معدورون .

وهذا ما كان ، وكان تقربهم مسليا ممتعا ، ثم صار مملا
مضجرا . وتقربت من تفيدة ، وصارت ترتاح لي ، وعند

التخصص التحقنا بنفسم القسم ، وصار تقاربنا التصاقا .
كانت طيبة مطيعة وكنت اذاكر معها ، تأتيني هنا احيانا واذهب
اليها احيانا ، وقرب الامتحانات كنت ابيت عندها في غرفتها
البسيطة ، وكنا ننام معا فوق سريرها ملتصقتين ، مرتاحة
لقربها .. واحببت كل ما في حجرتها .

وفي وقت البرد كان حضانها يدقء حضنى ، حتى الف
انفاسها واحسست بمعظم احلامها ، يقضى الانسان نصف وقته
حالما - وكان يلذ لها احيانا ان تدفن أنفها في ابطنى فكنت أعطره
لها - وكنا في دقائق ما قبل النوم وما بعد اطفاء النور نتحدث
عن بعض الأولاد في الجاسعة ، وكانت هى تحب الحديث عن
الولد عماد المراهق الذى كان يطلق نصف لحيته من باب لفت
النظر اليه !!

ثم تخرجنا معا ، وعملت تفيدة بالتدريس وتزوجت ، ولم
أرتح لذلك فقد كان زوجها غير مناسب لها ، وصدق حدسى ،
اذ وجدتها تتجنبنى وتبتعد عن لقائى - أنا حبيبتها
نبيلة !! - وعندما زرتها آخر مرة تلقى بارتياح وخرج ! من
بعد أن قابلنى زوجها فى جفاء غير مبرر ، كان يقول انه لا يطمئن
الى الصداقة الشديدة بين فتاتين ، فكرهته وتركتهما ولم
نتقابل الا مصادفة .. وقاومت حزنى منها حتى كرهتها ايضا
بمثل ما كرهت رجلها .

وصرت اقوى عزيزتى دائما بقول ابى : اننى بمثل
عشرة رجال .

لكن أين هى الآن - حبيبتى سعاد - كم أحن اليها ،
لو تأتيني الآن ، لو يرن جرس الباب وتفتحه أمى لتجىء الى

غرفتى فتنتعش على الفور أحاسيسى ويزغرد كل جسدى وتضرب
الغرفة جميلة والهواء عطرا ، وأضمها الى حضنى أحابلها ،
أدقء أناملها بكفى ، أريحها من فستانها الضيق ، ويطمئن جسدها
الصغير للصقى ، ويجىء أنفها فى صدرى تنهار فيه صامته كولد
صغير وتهدا رجفتها ، الحبيبة البائسة .

أغلقت باب الغرفة واستدردت صاعدة الى السرير ، الحزن
فى وجهها المنكسر ، والدمع يلمع فى عينيها . أنفى يهبط مداعبا
أنفها ، تبتسم ، فتغورق عيناي ، ويبلل الدمع أهدابها وترق
نظراتها .. المسكينة .. المستكينة .. أحس بحيويتها ، فتاة
نضرة ، ممتلئة حنانا .. أداعبها بكلمات عطوفة ، فتتجه
بأنظارها .. الى شفتى .. ثم تغرد بضحكة واهنة .. وتنكمش
فى جسدى .. وأشعر بكفيها فوق ظهري .

نبض الجناح

كنت قد اظلمت فوقى ، وأرجعت مسندى حتى آخره ،
ثم اغمضت عيني .

رفض النوم أن يأتيني . عدلت مقعدى . كل المصايح
مطفأة ، عدا المصباح المجاور وعدا مصباح قريب جذب أنظارى ،
كشف نوره عن شابة جميلة من تحته ، أعجبنى جدا « بروفيل »
وجهها . نظرت الى ظلام الخارج فראيت صورتها منعكسة في
زجاج النافذة المستديرة ، كانت مستغرقة في القراءة . عدت
اليها : شقراء ، رقيقة الملامح ، رفيعة العنق ، عالية الجبهة .
تذكرت أختى بشعرها الأسمر القصير وشفتيها المملكتين وأبى
وأبى يلوحون لى بأيديهم فى المطار .. لكن الراكب الى جوارى
نظر الى من فوق نظارته وهمس :

— أرى أنك لا تستطيع النوم ؟ !

— نعم ..

— مع أننا تجاوزنا الثالثة بعد منتصف الليل !

— نعم ..

— ومع أن معظم الركاب قد راحوا في النوم !!

— يختلف الناس .

تلفت حوله محرجا في همس :

— أنا أيضا لا يأتيني النوم في الطائرات .

اغلق الملف الذى كان يقرأه ، وحتره في الشبكة المثبتة بظهر
المقعد المقابل ، وهمس :

— فهل يضايقك أن نتحدث معا ، همسا حتى لا نوقظ
النيام ؟؟

ترددت وقتا ثم همست :

— أبدا ..

وبكت أمى وهى تودعنى وقالت : حافظ على صحتك
وشبابك .. وفهمت أنا أنها تريد أن تحذرنى من الاسراف في
مصاحبة البنات .

خضع الرجل نظارته وقدم لى نفسه ، فعرفت أنه يعمل في
التسليب الأحمر . سألتى :

— أنت مصرى ؟؟

أومأت .. لكنى رايت بيتنا القديم في أقصى جنوب البلدة ،
وشاهدت الكبش الصغير يقفز فوق أحجار المعبد المتهدم ،

وشغلت الشخايل في عنقه ، وكانت الفجرية الصغيرة تطارده ،
ولم يتوقف الا عند الكلا .. كنت صبيا .. وبعد ذلك رحلنا
الى القاهرة .

سأل الرجل :

— عندكم الهلال الأحمر ؟؟

أومات ..

— كذلك في تركيا وفي أربع جمهوريات سوفيتية ، أما في
ايران فيحل الأسد الأحمر محل الصليب الأحمر .

— اختلفت الرايات والهدف واحد .

— طبعا . ومن قبلنا كان الجرحى يتركون في أماكنهم حتى
يموتون الما وجوعا ، ولم يكن هناك من يرعى الجندى ان هو
وقع في أسر عدوه ، كانت الأمور سيئة ، وكانت الدنيا فوضى ،
ونادرا ما كانت الجيوش تتفق على هدنة لسحب الجرحى من
أرض المعركة ودفن الموتى ، وفي أغلب الأحوال لم يكن يحدث
ذلك ، فكانت الجثث تتعفن وكانت الأوبئة تنتشر مثل الطاعون
أو الكوليرا .

— شيء بشع .

— كان ذلك في الماضي ، وكان الانسان في بداية تمدنه ،
أما الآن فنحن نستخدم أحدث ما وصل اليه الطب كي نقوم
بدور اليد الحنون للبشرية ، وذلك في الحروب وفي كوارث
الطبيعة .

— هكذا يجب أن يسخر العلم .

ـ طبعا . وان كانت هناك حالات لا نستطيع حيالها تصرفا ويقف الطب عاجزا ، كأن تصيب الطلقة أو الشظية موضع القلب في صدر الجندي ، كأن تكون حروقه أقوى من طاقة الاحتمال البشري ، كأن يعثر عليه وقد نزفت كل دمائه أو فصلت رأسه تماما .

سألتني اختي : لماذا تهاجر ؟ ! قلت لها : تعرفين ان كل الأبواب أغلقت .

وهمس الرجل :

ـ وأسوأ الجنود حظا هو من يتلقى صاروخا فوق نافوخه يقضى عليه في الحال ، أو تدوس قدمه على لغم حديث ينثره قطعا في الهواء ، وفي الحالتين لن نعثر على أى شيء . أنت تسمع عن مدى فاعلية الأسلحة الحديثة ؟؟

ـ أسمع .

ـ ومن أجل هؤلاء الجنود الذين يتناثرون تقيم الدول المتمدنة نصب الجندي المجهول ، عندكم منها ؟؟

ـ عندنا ..

ـ أنا نفسي شاهدت منها العديد في الدول التي زرتها ، آخرها كان في صوفيا ، في وسط حديقة تسمى « حديقة الأطباء » .. كأنه مسلة فرعونية ضخمة مبتورة الارتفاع ، جدار سميك أصم ، كسا الرخام الناصع جوانبه الأربعة ، وغطت الحروف السوداء بياض رخامه ، وقد راعوا عند بنائه أن يكون رصينا بلا زركشة ، وأن يسع سطحه عددا كبيرا جدا من الأسماء المحفورة عليه .. نصب تذكاري لبعض ضحايا الحرب العالمية

الأخيرة ، من الأطباء الروس ، ماتوا وهم يعالجون المحاربين ضد جيوش هتلر .

— لمسة وفاء .

وقد رايت سائحة روسية عجوزا تدور حول النصب ؛ كانت ترتدى بالطو من النايلون الرمادى ولم يكن الجو باردا ، وكانت تتكىء على مظلة مغلقة ولم يكن الجو ينسبىء بالمطر ، كان يبدو عليها أنها تبحث عن اسم معين بين هذه الأسماء . ظلت تدور وتتفحص بعينيهما ، وتجاعيد وجهها تتبدل . انتهت من جانب فاستدارت الى الجانب الآخر ، وظلت أنا مكاني أراقب هذا المشهد ، حتى وجدتها تجمد مكاتها فجأة — ربما تكون قد شهقت — متسمة الأنظار عند اسم معين ، وربما تكون قد بكت ولكنى لم أر الدموع .

— من الجائز أنه كان ولدها ؟؟

— أو أخاها ..

— أو زوجها ..

— أو حبيبها ، لا بد أنه كان شابا فى ذلك الحين ، ومن الجائز أنه تركها على وعد بالزواج عند لقاء العودة ، ولكنه لم يف بوعدده ..

نظرت الى « بروفيل » الوجه الجميل تحت النور — لكن البرق فى الخارج شد انظارى ، لمع بسرعة واختفى ولم أسمع رعدا ، شرخ مضىء فى سواد كامل على مدى الرؤية ، ومن فوقنا السحب المرتفعة تحجب القمر ، وعندما تتركه ليظهر تقوم أشعته بكثيف السحب المنخفضة. اسفلنا ، فهل تمطر الآن فى الأرض ؟؟

ارتحت للصمت .. وفي المطار نهرت اختي أمي : « لماذا
تبكين يا أمي ؟ دعيه يهاجر ، انه وسيم وربما تزوج هناك
ابنة أحد الأثرياء » .. لكنها قرب موعد الطائرة انتحت جانباً
وبكت هي أيضاً .

أخذت أتابع لمبات الجناح وهي تنبض في توتر رتيب ،
حمرء ثم خضرء ، ثم حمرء .. وقاستني فتحية بنظراتها ،
ولما رفعت ثوبها أعجبني فخذها .. لكنها توقفت وقالت انها
تقبض أجرها مقدماً .. ثم عاد الرجل يهمس :

— تقوم الحروب مع أن كل الشعوب تمقتها ، حتى في
أمريكا شاهدت الشباب يتظاهرون ضدها ، وكانت لحاهم
طويلة ، لا أدري لماذا لا يحاقونها ؟ .. سمعت أنهم لا يستحمون
أيضاً !! .. وكانوا يحملون لافتة كتب عليها : « ارفعوا أيديكم
عن الشعوب الصغيرة » .

أردت أن أسأله : هل رفعوها ؟؟ لكنني استسهلت السكوت ،
ثم قلت في سري بأن هناك فرقاً كبيراً بين من يعتدى وبين من
يدافع عن نفسه ، وقررت أن أخبر الرجل بذلك ، إلا أنني لم
أفعل . وكان الصمت ثوانى ثم عاد الرجل يهمس :

— ليس من حقي أن أهمس لك بما همست . أرجوك أنس
أننى همست لك به .

— اذكر أنكم هيئة إنسانية محايدة .

— قد انقلدنا الكثير من شتى الجنسيات والمثل . اذكر
حالات معينة حدثت معي على وجه التحديد .. منها جندي

أمريكي وجدته في كوريا وقد نزت دماؤه بغزارة ، اضطررنا الى
بتر ساقيه من عند الفخذين ، لكننا نجحنا في إيقاف النزيف
وفي إنقاذه وأعدناه الى بلده ، وهو الآن يعيش في صحة جيدة .

شعرت بتلج في أطرافي . وضعت البطانية الصوف فوق
ساقى .

— هناك أيضا شابة فيتنامية ، أغلب الظن أنها بوذية ،
يبدو أن الغارات الأمريكية أفقدتها عقلها ، فهرعت تلقى بنفسها
الى النهر ، وكادت أن تفرق لولا أن تصادف مرورنا — من
حسن حظها — فانتشلناها وادخلناها مصحة الأمراض العصبية .

كادت الدماء أن تفر من عروقى .. سمعت صفارة المحلج ..
وقررت أن أنهر الرجل حتى بكف ، وقررت أن أفعل ذلك بصوت
جهورى ، لكن ضغط الارتفاع زاد من صداع رأسى وضيق
تنفسى .. ولما رأينا البوليس يتقدم نحونا بالعضى والخوذات
جرينا ، واحتمينا بسور المدرسة ونحن نلهث ، لكنهم اقتحموها
فعبرنا الملعب ركضا ، ولما قفزنا من فوق السور الخائفى
سقطنا منهكين فوق المشب الجرى فمزقتنا أشواكه .

همس الرجل :

— وهناك أيضا شاب أردنى فى منطقكم أصيب بالنابالم ،
وجدناه فى حالة ميئوس منها وقد فقد بصره وتشوه وجهه
قليلا .. فبذلنا معه المستحيل حتى أصبح قادرا أن يتحسس
طريقه فى شوارع عمان .

مطب هوائى سخيى ، هبطت الطائرة ثم صعدت ، فجأة
فى المرتين ، فطارت رأسى منفصلة عن جسدى ثم عادت تنغرز

بشدة ، وصعد الثلج الى خدى ، وشعرت بالدوار .. وسألتني
أختي في عناد : « لماذا » ؟ .. قلت لها : سئمت كل شيء .
فرصتي أعطيت لغيري ، وفرصة غيري القيت لى .. أريد ان
أعيش قبل ان أشيخ .

نظرت الى مقعد الفتاة الجميلة فوجدت نورها مطفأ ، فلم
يعجبني ذلك ، وتمنيت أن يسكت الرجل وودت لو نصل سريعا .
ونظرت الى ساعتى فعاد الرجل يهمس :

— الساعة تقول : اننا فى عز الفجر ، ولكن الطائرة
تخترق بعض السحب الداكنة لذلك فنحن لا نرى نوره ، وكان
من الممكن أن نراه قبل سكان الأرض ، وكان من الممكن أن نرى
المحيط الآن عند التقائه بأرض القارة وهو من أجمل المناظر —
اننى أسافر كثيرا وأعرف كثيرا — ولو كان الجو صحوا وزاد
ارتفاعنا عن ذلك كثيرا لشاهدنا مساحات أوسع من الأرض ،
رواد الفضاء يشاهدون من سفنهم كل الكرة الأرضية .

سكت الرجل فأعطيته نصف ظهرى مستديرا الى الخارج ،
ناظرا الى لمبات الجناح النابضة ، وكان الجناح يلج الى سحابة
شديدة القتامة .. ورايت الكبش الأبيض يقفز .. ودخلت حقول
القصب .. لكنى حزنت عندما انتهيت من فتحة بسرعة كبيرة ..
ولما نطقتنى الكبش فى بطنى بقرنيه الصغيرين ضحكت .. وتلأت
كثيرا عندما أدمت الأشواك ساقى بالجروح .. وقالت : هذه
استقالتى فقبلها الرجل على الفور وكأنه كان ينتظرها وكانت
عيناه جاحظتين .. لوحت أختى وبكت أمة .. ثم جرى الكبش

الأبيض بعيدا .. بعيدا .. بعيدا .. فلم أر شيئا لكنى سمعت
همس الرجل :

— وقديما كانوا يرمون من يقول : ان الأرض كروية !!

ضحك ثم تعجب هامسا :

— تصور !! وبالحجارة !!

مارس ١٩٧١

رأسها فوق صدرى

- ٩ -

تحتضنى متشبثة بى فى عنف ، تنظر الى وجهى طويلا ،
كفأها فوق ظهري . ذراعاهما تحيطانى . تشدنى الى صدرها فى
عصبية . وجهها يبتسم فى هدوء . تضحك . تصمت . تبسم ،
حلوة ابتسامتها . تتركنى ؛ تنزوى جانبا ، تنحبس ضحكاتها
وتترقق دموعها . اتبكى ؟ ! .. ابتسامتها لم تختف ..

- ذلك من فعل المفاجأة . صدقنى . من فرط سعادتى .
صوتها ، جميل رنينه على أذنى . وراء هذه التصرفات
خوف مكبوتا طوال غيبتى .

صرخ زميلى اشرف ، وكنا فى ملجأ الأفراد :

- ضرسى يؤلمنى .

- ٢ -

- مليئة بالعرق هذه الملابس الصفراء .
- صحتك ليست على ما برام !!
البنطلون مغطى بذرات التراب الأصفر .
- لون وجهك تغير كثيرا ، ليس طبيعيا !!
لون بطني اكثر بياضا من ذراعى ووجهى .
- كل شئ فيك تغير !!
- امر طبيعى ..
- عدا عينيك ..
اتأملها . تبسم . تقترب منى مدققة . تتراجع :
- حتى هما تغيرتا . نظراتك الآن اكثر حدة ، اكثر قلقا !!
صرخت :
- حاسب يا اشرف ..
قال :
-
قال :
-
لم يقل .
- قلت :

— حاسب .

الحياة سخيصة بدون أنى . أمد لها يدى . تندفع بينهما .
رائحة عنقها . لحم المرأة . خدها ناعم على شفتى . شعرها
يداعب أنفى ، رائحته . أعود الى عنقها . رائحة البشرة . أغمض
عينى مشتاقا :

— اجازتى ٣٦ ساعة ..

— فقط ؟ !

— طوارىء .

— لو اعرف أنك قادم لتزيت لك .

— ٣ —

صوت المطبخ . جميل أن تعد زوجتى الطعام لى . صوت
الملقعة يصطدم بالوعاء ، اصطكاك الفطاء به هابطا فوقه : لتكن
وجبة حافلة احتفاء بعودتى العابرة .

البيت يحيطنى ، فلأملأ صدرى بهوائه . الجدران كائنة
قائمة عمودية . الستائر حية ترتعش مع النسمة . باب الشقة
وشرح فى زجاج الشراعة . المقاعد متواجدة ، ملمسها ناعم على
أصبعى ، لونها جميل ، وهذا خط أسود رفيع يلاصق كل
خط عريض !! لأول مرة الحظه ، أذكر اللون بصفة عامة . لون
عينى أشرف كان بنيا ، أم كان عسليا لا؟ .. غريبة !! رغم أنى
أحبه !! أما لون عينى زوجتى فهو عسلى ، جائز جدا ، بل من
المؤكد .

أسمع المياه تتدفق من صنبور المطبخ .

- ٤ -

لين ، ناعم ، جسدى مرتاح ، مرتاح فوق هذا الفراش ،
ظهري ، والآن بطنى .. غاصت أنفى فى الوسادة ، رائحة
زوجتى ، أقدر على تمييزها من بين ملايين الروائح . أسمع
المطبخ .

كنت أمتسحب وأنا طفل فوق السرير حتى طرفه ، كنت
أحب ان أميل برأسى ، كنت أرفع غطاء الملاءة المنساب جانبا
وانظر تحت السرير .. كما أفعل الآن .. كما أفعل .. الآن ..
مرة وجدت برتقالة تحت الثنبة فى الصالة ، كان أخى قد خباها
الى حين ، وبعد ساعة بحث عنها .

سألته :

- عم تبحث ؟؟

أحمر وجهه وقال :

- عن فردة الحذاء .

ولما رأى ابتسم فى مكر ، عرف أنها استنقرت فى بطنى ..
فهجم نحوى بغتة والقانى أرضا .. الا أننى ضربته ..

والآن ها هو أسفل السرير بلا برتقال !! .. به بعض
التراب وشبشب قديم .. وصر صار ، كيف أفلت من مطاردات
زوجتى النشطة ؟ ! هل أقتله بالشبشب القديم ؟ ! ليست عندى
الرغبة .. ولكن أين القط ؟ ! الملعون يظل نائما حتى موعد
الأكل فينشط ويعلن عن وجوده ويتمسح !!

اصوات المطبخ مستمرة ، صوت وهاء « يشطف » تحت
الصنبور .. صوت كوب يمتلئ بالماء . لا أشم رائحة الطعام
بعد .. الآن وضع الكوب مقلوبا فوق الرخامة .. وزوجتى
مصرة على الحكى .. وهى تحكى بلهجتها الصعيدية المحببة ..
منذ أن دخلت المطبخ وهى تقص كل ما حدث - وربما ما لم
يحدث - خلال فترة غيابى .. « طشيش القدحة » : الله !
ها هى الرائحة ، وجميل منها أن تتجنب وبذكاء ، سيرة الحرب .

- آى . آى . ضرسى يؤلمنى ..

ولما تناولت علبة السجائر لأخرج واحدة تساقطت منها
حبات الرمال .

- ٥ -

دورة مياه شقتى ، خاصة بشقتى .. والمرآة .. وماكينه
الحلاقة ، وسله الملابس المتسخة . الجلسة فوق مقعد المرحاض
مريحة - ذلك أصبح مؤكدا الآن - والجريدة فى يدى ، كما فى
الأيام الأولى .. عيناى لا تقرا ، ترى الحروف ولا تقرا ..
بالفعل انا سعيد بهذه الجاسة .. سعيد جدا .. (وهى هى
هارون الرشيد قادم عبر الحوائط متألئا بين جواهره البراقة ،
لا لشيء الا ليرمقنى فى حسد وغيرة ! . قلت له : لا تحاول ،
هذه سعادة لن تعرف مثلها) .

صوت زوجتى يقترب ، نشرتها الاخبارية تعلو ، انتقل
المؤشر من موجة المطبخ القصيرة الى موجة الصالة المتوسطة
بذبذبة قدرها .. قدرها .. كم ؟؟

- كم؟؟ قلت كم طول الموجة؟؟ .. هس .. ها هو العدس
يتحدث .. يتخاير .. تمكنت من التقاط موجته بعد أن غيرها
منذ دقائق .. هس .. دعنى أستمع .

لزممت الصمت . كان أشرف يعرف لفظة الأعداء كواحد
منهم ، وكان ضرسه يؤلمه .

ماء الدش ممتع .. (نظرة هارون الرشيد تتسع حسدا) ..
الخيوط الهابطة منعشة ، غاية الانعاش ، فوق وجهى ، فوق
كتفى ، فوق ظهري ، وصدرى .. وطعمها لليد ، ولو زاد
تساقطها لكانت المتعة أكثر - هناك المياه سوداء بالطين ،
وأوقاتا صفراء بالرمال - ولن أخرج من هنا .. لن ..
أخرج .. من .. هنا .. خيوط الماء .. رذاذ الماء ..

لكن ما دامت رائحة الأكل تتسرب فى اغراء من تحت الباب
فهذا معناه أن الطعام قد نضج ، وقد حان الآن موعد
اغلاق الدش .

- ٦ -

كما كانت أيام فترة الخطوبة : هذه النظرة الجانبية السريعة
الممتلئة بالأثوثة وبعض الخجل ! جسدها دافئ ودود .. جددت
فترة الغياب سحرها فى عينى ، ضاعفت أيام الخطر من جمالها
مليون مرة ، أرى أحلى امرأة فى تاريخ كل الحياة ، العين ،
الرموش ، الفم ، الشعر ، الدقن والعنق ، والبسمة .. فلتكن لى .

دفعة خفيفة من كفيها :

- لكننى لم اتناول حبة منع الحمل .

ساحرة الجمال حتى تكلمت !!

تضغط أسنانها على شفتها السفلى .. نادمة ؟ ! .. تنكس
نظراتها بعيدا عن عيني . تحسين بتسرعك ؟ ! والآن تبالغين في
خجلك .. وشكلك هذا مضحك ، جميل .

ابتسم . تبتسم ، وتدخل نحوى في عطف وتلتصق بجسدى .
آن لجسدى المشدود أن يستريح بين ذراعيها ، ولأنفى أن يستكين
في رائحة شعرها .

- ٧ -

أرذل اختراع في العالم هو الضجيج - مرة انفجرت في
قهقهات عالية ، لكننى لم أسمع صوت ضحكى بسبب الانفجارات -
الهدوء عظيم ، السكون رائع ، والصمت سعادة ، الا من أنفاسها
منتظمة الشدو ، والا من أنفاسى المنتشية بالراحة . يداى
تمتدان نحوها تشدها في يسر .. تميل الخطوة فوق صدرى ،
تفتح فمها هامسة بالكلام ، تتولى أصابعى اسكاتها مشيرة في
حزم : فليكن صمتا .. وكان صمتا .

هذه الراحة ، ثقل رأسها فوق صدرى ، مداعبات
أصابعها لشعره الفزير واكتشافها عدة شعيرات بيض به ، رمقاتها
الهاشة نحوى من لحظة لأخرى ، كل ذلك لم يكن رائعا كما
هو الآن ، وأجمل منه في ليلتنا الأولى .

تمد يدها لتطفىء النور . لا أريد الظلام ، لا أريده ، أحب
النور :

- دعيه ..

تقبلنى فى خدى مطبعة ، تربت برفق وحنو على ، ثم
تستكين : هل كانت كلمتى مدعورة ؟ ! هل كانت جافة ؟ ! ..
وهذا الصوت ؟؟ !! تنتفض :

- الجرس .

- اهدئى .

- زائر بالباب .

- سياس وينصرف .

ندفن وجهها فى انطى ، هذا افضل . وهذه الساعة
فلتركن بعيدا ، كم الساعة الآن ؟؟ يا خبر !! .. اركنها بعيدا ..
هذا احسن .. بعيدا جدا بحيث لا اسمع تكتكاتها . وهذا
الترانزستور الصامت : يوحى الى بالأصوات وبنشرة الأخبار ..
وبالحرب .. فليستقر تحت السرير .. مع الصرصار ..
الشارد .

- ٨ -

ضوء الصباح .. يعجبني النور .. هناك الظلام طوال
الليل .

- حاسب . حاسب .

شبكتا عيني مشتاقة الى النور : لكن نار العدو سقطت على
راس أشرف فوق نافوخته . وكان سيخلع ضرسه فى اليوم التالى
كان .. سيخلع .. ضرسه .. فى اليوم التالى . النور فعل
مضاد للظلام .. كل طفل يحب النظر الى النور ، ينام فوق

المهد يحملق فى المصباح .. انا انظر الى المصباح ، انا احمق الى الضوء ، انا ارى امى داخل المصباح .. انا طفل صغير .. فى زمن الحرب القديمة .. طفل صغير .. أبكى صارخا بصوت مرتفع مزعج ، يدفع امى الى السخريه : -

- ها هى صفارة الانذار تنطلق .. غارة !!

ازداد حملة الى المصباح .. انا اغنى منسجما تحت الدش بصوتى الأجش المرتفع جدا ، المزعج .. المراهق .. المزعج اترشق .. انا اسمع نقرات امى على باب الحمام .. انا اسمعها تتسائل فى دهشة شديدة عن الكيفية التى انتقلت بها صفارة مصنع المدينة الى حمامنا لتنطلق فى غير موعدها - وكانت قد نسيت الحرب القديمة - فقلت لها : اننى انا الذى اغنى وان ذلك صوت غنائى الرخيم .

ضوء المصباح يتلون ! يخفت ! .. (أشرف ينظر مبتسما) :

- صديقى العزيز : كيف دخلت النور ؟ ! .. هل خلعت
ضرسك ؟؟

- لم اخلعه . استرحت من آلامه . ما رأيك فى الحياة ؟؟

جدران الغرفة تتحول الى لون فوسفورى غريب !! .. السقف يبرق !! عقربا الساعة يقترب أحدهما من الآخر فى أصرار قاتل .. تكتكات الساعة .. عقربا الساعة يتصخمان !! ارى كائنا عجيبا مشعا سخييف المنظر ، ينظر الى زوجتى !! .. اصابعه طويلة رفيعة كثيرة العدد !! يمسك راسى ككرة صغيرة ، لا يرفع نظراته عن زوجتى .. لا .. يرفع نظراته .. عن زوجتى ..

ضرب أشرف فوق نافوخه - حاسب يا أشرف - ضرب ..
أشرف صديقي .. فوق نافوخه !! .. يضع عنقي بين حدى
العقرين المقربين .. أنا أقاومه ، يجب .. أحاول أن أفقا
عينيه .. العقران يضغطان على عنقي .. بشدة .. بشدة
أكثر .. التكتكات .. عيناى تجحطان : « حاسب » .. يقترب
من زوجتى .. التكتكات .. « لتزيت لك » .. أمى ..
أخى .. الصفارة .. البرقالة تحت السرير .. الحمام هارون
الرشيد الحرب القديمة .. أمى .. التكتكات .. حبة منع
الحمل .. أمى سوف أنهض .. سأنهض .. لابد ..

- ٩ -

..... نهضت . ضوء النهار يتسلل . المصباح مضاء .
نظرات زوجتى مضطربة متسائلة فى أنزعاج . أقبلها فى حنان
فوق وجنتها . ابتسم لها مطمئنا وأنا أخلع بيجامتى . اثبتت
الساعة حول معصمى بعد التأكد من ملئها . أمد يدي الى ملابسى
الكاكى المفسولة .

نوفمبر ١٩٦٩

اننا نؤجل

جاءت نحوى فيما يشبه الابتسامة ..

قالت :

— انت امل اخير بالنسبة لى ..

كان شعرها ينساب ناعما طبيعيا من حول وجهها .
اعجبني ذلك :

— شعرك هكذا جميل .. لماذا كنت تخفيه بالباروكة ؟!

لم تبتسم وقالت فى جدية :

— هل أستطيع ان اثق بك ؟؟

خفق قلبى دهشة . قلت هذا عبء . نظرت الى وجهها
الجميل ، لم تكن تنظر الى ، وكانت تنظر الى مكان غير محدد
فوق صدرى .. وعندما رايت عينيها لاحظت ان نظراتها بطيئة

حزينة ، وكانت ضمة شفيتها فيها المرارة والاحساس بالغبن
وكانت عصبيتها فيها قليل من الاحتجاج .

عادت تسألنى وهو تدنو بفمها من اذنى :

— هل استطيع أن اثق بك ؟؟

كان الضجيج من حولنا . أجبت :

— ليس بصفة مطلقة ..

لم تسمعنى . عدت أهتف :

— ليس بصفة مطلقة ..

زاد الخمول فى نظراتها ، كانت تنظر نحوى كما لو كانت
تنظر الى شىء منبسط على بعد أميال .

عند الناصية قالت لى : انها أصبحت لا تطيق الجلوس مع
والدها ، وانها صارت لا تحتمل أحاديثه معها وأن الكلام بينهما
صار مفتعلا : سؤال قصير وجواب أقصر .

قالت :

— أجيبه دائما بكلمات قليلة مثل : ربما أو جائز أو يمكن
أو لا أدرى ، كثيرا ما أقول له : لا يهمنى .. وأحيانا تنخفض
اجاباتى الى الصمت وتحول الى هزة من رأسى بلا أو نعم
أو رفعة حاجبين فى تصنع الدهشة . هل جربت ذلك ؟؟

— مات أبى منذ الصبا ، وانفر من الكبار .

— لا تظن اننى اكره والدى . اننى أحبه ، ولكننا لا نجد
ما نقوله لبعضنا .. وفى الليل والدنيا سكوت اسمع صوت

تنفسه من حجرتى ، واتذكر انه شيخ معتل الصحة فتنتابنى
الوساوس السوداء من انه قد يموت فى كل لحظة ، وهذا بشع .

توقعت الدموع فى عينيها ، وقلت لنفسى : تمتلىء صحف
هذه الأيام بأسماء الموتى من صفار السن .. لكننى لم اخبرها
عن هذه الملاحظة لبدايتها .

فى صالة الشاى الهندى ، كان طفل الموظفة الهندية يبكى
فسألتها ان كانت قد لاحظت ذلك . رفعت حاجبها فى دهشة .
قلت :

— صوت بكاء الطفل الهندى يشبه صوت بكاء الطفل
المصرى ..

قالت :

— لأن بكاء الأطفال يتشابه .

وكانت الاضاءة خافتة فى الداخل ، وكنت أرى خيالات
المارة تتماوج فوق الزجاج المصنفر .. فأخذت أحدثها عن ذلك
اليوم القديم ، حيث لم يكن الوقت مساء ، وانما اقرب آخر
النهار والشمس تنتهى من الغيب ، وحيث تتشابه الألوان
ويصبح الشئ فى لون الظل ، وحيث تخطىء العين تقدير
الأبعاد .. لذلك فانهم عندما ظهروا بغتة فى غرفتى لم أقدر على
تحديد المسافة بينى وبينهم بالضبط ، ولم أقدر على تمييز
تضاريس وجوههم — لكنى حسيت أنهم الجاحظون — الشرطة ..
ودق قلبى فى عنف واحسست بثقل فى كل جسدى ، فقييدونى —
يبدو أنهم قييدونى — ثم أخذوا يجمعون كل ما هو مكتوب : مسودات
اشعارى — كنت ساكتب اشعارا — وحتى خطابات أبى ورسائل

حببتي اخذوها .. توقعتهم آخر الليل وكل الناس نيام لكنهم
جاءوا قرب آخر النهار ، لذلك فقد ذهلت واظنهم تكلموا ببعض
الكلام .. كانوا يقفون مفرودى الطول في وقفات متشابهة ،
اصواتهم باردة متلاحقة كرجع الصدى ، الاول ثم الثانى ثم
الثالث . قالوا :

— سوف نقرأ هذه الكتابات بعناية فائقة ، ظاهرها عن
الحب ولكن من يدري ..

وقالوا :

— نحن فطناء وسوف نبحث عن المعانى المخبأة ..

وقالوا .. ايضا :

— لدينا من المواد الكيميائية ما يظهر كل خفى ولدينا
العلماء .. سوف ندخل رأسك ..

لكنى عندما اضأت المصباح الكهربى لاحظت فوقه افرازات
البعوض وكانت الغرفة خالية .. الا أن عيونهم كانت جاحظة
وقالوا : « سوف ندخل رأسك » . وصارت هزيمة الشمس
ساعة الغروب تذكرنى بخطابات أبى الضائعة ورسائل حببتي
وارهاصات أشعارى .. لم أكن أتوقع أن تعجب هذه الأشعار
كل الناس ، لكنها كانت تعجب حببتي ، وهذا يكفينى ، فلما
علمت بفقدائها صارت تتجاهلنى ثم اختفت من حياتى بطريقة
شبه نهائية .. وقالوا سوف ندخل رأسك :

— ولم أعد الآن أذكر التفاصيل الدقيقة لوجه حببتي ،
ربما كانت تشبهك .

سكت الطفل الهندي عن البكاء .

قالت :

— يمكنك كتابة الأشعار ثانية .

ابتسمت ولم أرد ، وأعجبني أن صدرها ممتلئ بشديين
كبيرين ، لكنها كانت تنهد .. ربما كانت تشبهها ، إلا أن
ما يمضى لا يعود ، ويومها كنت أحب ، أما الآن فلم أعد أثق ،
وصرت أحاول أن أكون لصا ، أسرق لحظات الصديق .

حركة مفاجئة في عينيها :

— صادقت شبانا كثيرين وكانوا تافهين . ولكنى أحببت
واحدا فقط وقررت أن أصارحه بحبي ، وكنت كل مرة أقابله
فيها لا أفعل ..

بكى صوتها :

— كنت حمقاء ..

ارتعش فنجان الشاي بين أصابعها فأعادته دون أن
ترشف .. يكون الندم على ما لم تفعله وليس على ما فعلناه ،
ونؤجل على أمل قدوم لحظة أفضل لا تأتي .

غطت الدموع عينيها عاكسة من فوقها الأشياء ضئيلة
متوجة الحواف .

قالت :

— حتى اسمى صرت أكرهه لأن والدي أطلقه على .. هل
تحب اسمك ؟؟

في الشارع مرة أخرى . قالت :

— سمعت وأنا صغيرة عن أمور كثيرة تنتظرنى فى المستقبل،
والآن تحول مستقبلى الى حاضـر ، وأجد أن كل ما قيل كان
سخفا .

وكنا نمر أمام محل الزهور فقالت انها تحب الزهور ..
وفكرت أن اشترى لها بعضا منها فى الحال ، وفكرت أن ذلك قد
يجعل قلبها ينبض بلحظات سعيدة .. الا اننا كنا قد عبرنا
المحل فأجلت ذلك .. وشعرت برغبة فى اخذ كفها بين كفى لكنى
ترددت .. وفى الصباح عندما خرجت من البيت احساسـت —
لسبب مجهول — بالحنين البكاء لكنى خجلت من المارة وبلغت
ريقى ومشيت اصفر .. واذكر مرة أنى كنت اركب المترو
ولسبب لا اذكره كنت سعيدا ، وكان ذلك فى الماضى البعيد ،
وكنت أريد أن انطلق مـفنيا بصوت عال ، وبالفعل بدأت اذنين
فنظر نحوى جميع القريبين منى ، ولذت بالنـاظـر الخارجـية
وغنيت فى سرى .. ثم سرعان ما جاءنى صـدا عـ سـخـيف .

قرب محطة الأتوبيس وفى ظل الحائط سألتنى :

— قرب انت من سنى فهل أستطيع أن اثق بك ؟؟

ترددت . تهدج صوتها :

— لماذا لا تجيب ؟ ! أقول انك قريب من سنى فهل

أستطيع أن اثق بك ؟؟

قلت وكان صوتى خافتا :

— علينا أن نلتقى كثيرا ..

هزت رأسها سريعا . قلت فى صوت أكثر خفوتا :

— وأن نحاول .

يناير ١٩٧١

الأيام التالية

تلقت الطبيب حوله حذرا ثم همس في أذني أن آخذها
وأتوجه بها الى موقع ناء عن الناس ، بعيدا عن المدينة ..
قال :

— يلزمها راحت الأعصاب والهدوء .

قلت :

— أظن ذلك .

همس :

— اخفض صوتك . كما أنها في حاجة الى فترة نقاهة
محاطة بالسكينة ..

قلت :

— أعرف ذلك .

همس مستاء :

— قلت لك ، همست لك أن تخفض صوتك .

جئنا الى هذا المكان على شاطئ البحر . البحر ممتد بعيد جدا ، لا يحده حد ، يبدو مقوس الأفق أزرق باهتا ، صخري الشاطئ ، صخوره مدببة كأنها الأبر كأنها حدود بلط أو أسنان خناجر .

سكنا هذا الكوخ الخشبي ، لا أدري كيف يفلت من ريح الشتاء !! لكننا في آخر فصل الصيف والهواء ساكن والأمواج خفيفة الوشيش ، وكنت أعلم ألا شيء مضمون في مثل هذا الوقت من العام ، قد يبدأ اليوم صيفا وينتهي شتاء ، قد ينتقل عبر فصول العام في خلال ساعات قليلة .

بعد الخطوة الأولى لنا هنا نظرت هي الى البحر طويلا طويلا ، راقبتها ، أخذت عينها ترقان ثم أخيرا لانت تجاعيدها الخفية وكادت تختفي تماما عندما ابتسمت ، أعجبها البحر وهذا قال حسن لأعصابها .

قامت بتفحص الكوخ ، اختارت السرير المناسب لها ، ثم جلست على حافته رامية يبصرها الى البحر خلال زجاج النافذة . قلت :

— مرتاحة ؟؟

ربما لم نسمعي . كانت آثار الكدمات ما زالت واضحة في جبهتها . استدارت الى الجانب المقابل للبحر ، نظراتها الساكنة بدأت تنشط ، ثم بدا أنها تكتشف شيئا مدهلا .

هرولت خارجة ثم شهقت واقفة أمام الشريط الحديدى
الممتد محاذيا الشاطئ .

قالت منفعلة :

— هذا شريط سكة حديد .

كيف لم تراه ؟ ! عبرنا فوقه فى طريقنا الى الكوخ وكادنا
تتعثر فيه !! .. لكنها كانت مأخوذة بفساحة البحر وحركته
الأزلية الرجاجة .

قالت :

— يمر القطار من هنا .

الشريط قديم وصديء من الجو الرطب ومن عدم
الاستعمال . فى قديم الزمان كان يمرق القطار من هنا رابطا
ما بين مدن الشاطئ وقراه ، لكنه لم يعد يجرى هذه الأيام ،
الذى ولم يرفع الشريط وترك للصدأ وللأعتاب تنمو من حوله
ولبعض السحالى البحرية تمرح من أسفله .

قالت :

— ما دام هذا شريطا حديديا فمن المؤكد ان القطار يمر
من هنا .. هل تعرف مواعيده ؟؟

— لا توجد مواعيد لقطار لا يمر !!

ربما لم تسمعى ، استدارت الى البحر وقالت :

— ومن المؤكد أن السفن تعبر من هنا أيضا ..

ثم اتجهت الى باب الكوخ لكنها توقفت فجأة وهتفت :

- وها هي سفينة هناك .
- أين ؟؟
- هناك ..
- ؟ !
- هناك .. عند حافة الأفق .
- نظرت ودققت النظر ، لم أر شيئاً . قالت :
- ها هي .. عند نهاية الأفق .. والآن تهبط .. هبطت
تحت مستوى الأفق ..
- !!
- ألم ترها ؟؟
- هززت رأسي نفياً ..
- رأيتها أنا .. وكانت بلا شك سفينة .
- ودون أن تحنى ظهرها أو رأسها ، دخلت الكوخ من بابه
المرتفع .
- صباح اليوم التالي فتحت عيني لأجدها واقفة قرب
سريري تقول :
- لقد مر قطار بالأمس ، هل سمعته ؟؟
- لم أسمع شيئاً ، كنت قد نمت نوماً عميقاً ، قام صوت
الموج الرتيب بعمل المنوم الفعال .
- أردت أن أعرف مواعده وبحثت عن ساعتك ولم أجدها .

أخرجتها من تحت الوسادة حيث سبق أن وضعتها
لكنها كانت قد انصرفت عني .

وفي الليلة التالية أيقظتني في لهفة . نهضت فزعا وسمعتها
تقول :

— انصت .

لم أسمع شيئاً عدا البحر .. لكنها قالت :

— مر القطار توا .. وهو الآن يبتعد ..

خيل لي — لدهشتي — اني أسمع ضجيجا لقطار مسرع .
خرجت الى الشريط ونظرت في اتجاهيه ولم أر أو أسمع شيئاً .
قلت لنفسى : « لا شيء مر ولا شيء يمر » .

ثم نمت حتى الصباح فحلمت بالمدينة وبيوتها العالية
وطرقاتها المليئة بالأقواس الخفيفة .

في نهارنا الأول هنا قمت باستكشاف المكان ، وفي النهار
الثاني انتهيت من ذلك تماما ، فبدأت أشعر بضيق المكان حيث
لا شيء يتغير والحركة ميتة ، حتى البحر بدت تموجاته رتيبة
وكانه مل أبديته .

صباح اليوم التالي قالت في ثقة مذهلة :

— هما قطاران . هذا مؤكد . واحد عند منتصف الليل
والآخر قبل الفجر بكل تحديد ..

رايتها سعيدة باكتشافها فلم أعلق ، ثم خرجت أراقب
البحر الكبير ، كانت الأمواج ما زالت تدفع ببعض الأسماك
الصغيرة الى الصخور الخنجرية ، فرأيت بعضها يذبح ، وشاهدت
نصل صخرة ينغرز في سمكة صغيرة ، انحسرت الأمواج وعادت

وانحسرت ثانية والسمة باقية مكانها ، كأنها مثبتة بحربة
مقاتل قديم .

سرت بفكرى الى افواس المدينة .. بناها قزم على مقياس
فامته القصيرة فجاءت خفيضة جدا .. كل عدة خطوات فوس
ولاطىء ، وفي جميع الطرقات .. كان على ان انحنى كلما مرت
اسفل احداها والا اصطدمت رأسى بسقفه المقوس .. وتلما رايت
انسانا محذوب الظهر قلت لنفسى ههنا مواطن من مدينة
الافواس الخفيضة .

تأملت صدا القضيب وتلمسته ، ثم قررت ان انام وقت
الظهيرة حتى أسهر الليل معها . حدثتها عن عزمى هذا فلم
تتحمس ولم تعترض .. وهى - منذ اصابة جبهتها بالكدمات -
تنام نوما خفيفا وتوقظها أدنى حركة .

نمت والسما صحو واستيقظت والسما سوداء الغيوم
تنذر بليلة هوجاء العاصفة . أغلقت النوافذ باحكام ووضعت
المصاريع خلفها ووراء الباب . ثم جلست أستمع الى الأمواج
التي بدأت تهدر والهواء الذى أخذ يزار ، متنبها لعل القطار
يمر كما تقول .

عندما مضى الوقت وجاءت الساعة التى حددتها موعدا
لمروره أرهفت السمع ولم أسمع .. وبعد حوالى الساعة قالت :
- ربما منعه العاصفة .

أخفيت ابتسامتى ، وسرعان ما نمت .. غير اننى تيقظت
فزعا على اهتزازة السرير وارتعاشة الكوخ .. وكانت العاصفة
مخيفة ..

قالت بوجه منتصر :

— انه القطار ..

من فوري نهضت الى النافذة وفتحها ، فلطمتنى الريح
الهوجاء بعنف ودفعتنى الى الوراء ، الا اننى اخذت اقاومها
حتى تمكنت من اغلاق النافذة .. ومنعنى هذا المجهود من النظر
الى الخارج .. وكان السواد يحيط بالكوخ وكان صوت الريح
طاغيا على صوت البحر .

في اليوم التالى نظرت الى الساعة وكانت العاشرة وقليلًا ،
جلست أمام البحر ولاحظت أن السمكة القليل غير موجودة ،
سرت هنا وهناك ، فذقت ببعض الحمص الى البحر ، غمست
قدمي في مائه .. وعدت الى مكاني الأول ..

في السماء سكنت السحب من حول القوس المتدرج
الألوان ، وقد اثنتى فوق البحر .. سبعة أقواس متلاصقة
لسبعة ألوان طيفية ، قوس قزح .. وفي ذات يوم — في ماضي
الأيام — قررت هي الا تنحني أمام أقواس المدينة الخفيفة
فامتلا رأسها بالجروح والكدمات ، ظلت تسير مرفوعة الرأس
فتصطدم بسقف القوس حتى سقطت فاقددة الوعي ، فحملوها
فوق محفة الاسعاف ، وبهذه الطريقة مرت أسفل عدد كبير من
الأقواس . ثم قال الطبيب — همس الطبيب — بأنها في حاجة
الى فترة نقاهة في موقع ناء عن الناس ..

عدت أنظر الى الساعة ، وكانت لا تزال العاشرة وقليلًا
تمامًا ، وكانت هي جالسة في صمت . تناولت أظاري وشربت
بعض الماء ثم تمددت .. وخرجت الى الشاطئ ونظرت الى
الساعة ، وكانت العاشرة وقليلًا !!

اندهشت وعلمت أنها قد توقفت .. لكن متى؟؟ منذ متى؟؟ طبعا منذ الساعة العاشرة وقليل تماما .. ولكن هل منذ الساعة العاشرة الصباحية أم الساعة العاشرة مساء أمس؟ ! منذ عدة دقائق أو منذ نصف يوم؟ ! ربما منذ يوم كامل أو عدة أيام . لم انظر الى ساعتى منذ وقت طويل ، وربما منذ أيام .. ولا اذكر الآن آخر مرة ملأتها فيها .. وهل توقفت نتيجة صدمة أم لأسباب أخرى كعيب فى الآلة نفسها؟ !

جلست أفكر فوقعت فى مشكلة أخرى .. فقد حاولت تذكر اسم اليوم ففشلنا وجلست أحسب كل الأيام بالتدريج : اليوم الأول كان خميسا وفيه حضرنا الى هنا .. والثانى كان جمعة وفيه سمعت هى صوت القطار ولم أسمعها أنا .. والثالث كان السبت وفى ليله سمعت هى صوت قطارين ولم أسمعهما لثقل نومي .. ثم جاء اليوم الرابع فماذا حدث فيه وهو لا بد الأحد؟ ! .. راينا المركب ، رأت هى المركب ولكنى لم أره .. ولكن هل كان ذلك فى اليوم الثانى أم الرابع أم السابع؟ لو كان الثامن لكان هو الخميس ..

كان البت فى ذلك الأمر مشكلة عويصة . نظرت ساهيا الى الساعة فكانت العاشرة وقليلًا !! فهل فكرت طويلا؟؟ دقائق أم ساعات؟ !

وجلست أحسبها مرة أخرى .. وسألتها فضيقت من عينيها مفكرة ولم تتكلم .. ولما جاء الليل نمت .

فجأة استيقظت على ضجيج عال جدا ، ولما تنبهت الى ما حولى أيقنت - بلا أدنى ريبة - أن هذا الضجيج هو صوت

قطار يعبر .. الآن يبتعد .. اللحظة أصبح نائيا .. ولم أحاول
أن أخرج لرؤيته فقد كان الصوت من الوضوح الذى لا يقبل
أى شك .

مددت يدى وأخرجت الساعة من تحت الوسادة ، كنت
أود أن أعرف موعد مرور هذا القطار الليلي ، لكن الوقت كان
مازال العاشرة وقليلًا تمامًا ، فتذكرت مشكلة الوقت والمتاعب
التي صادفتنا أثناء النهار لنذكر اسم اليوم الذى نعيش فيه ..
فما هو اسمه وما هو اسم الغد والأيام التالية ؟؟

في هدأة الليل كان تفكيرى أكثر صفاء . قلت : ان ذلك
لا يهم على الإطلاق .. لكننى عدت وقلت انه من الجائز جدا ان
نحتاج الى معرفة اسم اليوم الذى نعيش فيه ، ولا أحد يضمن
ما سوف نحتاجه في المستقبل .

لما أخبرتها بأنى سمعت صوت القطار رقت نظراتها
نحوى وابتسمت في سعادة وإقبال ، ثم جلسنا معا وفكرنا ان
أحسن حل هو أن نضع لكل يوم علامة مميزة ، فيوم أمس
هو اليوم الذى حدثت فيه العاصفة فيصبح يوم العاصفة ،
واليوم التالى هو اليوم الذى تنهت فيه الى توقف الساعة
فهو انن يوم الساعة أو يوم التنبه .. وهكذا .. ولا بد أن نختار
للغد أبرز أحداثه ونسميه باسمها .. ونفعل نفس الشيء لبعده
الغد ولبعد بعد الغد ودواما ...

لكنها فجأة قاطعتنى متسائلة :

— لماذا يمر القطاران ليلا ؟ ! لماذا لا يمر أيهما في
النهار ؟ !

كنت أريد أن أسألها نفس السؤال .. وكنت أبغى أن أعرف :

— هل من الجائز أن يتوقف أحدهما ولو مرة واحدة أمام كوخنا ؟؟

قامت من فوق سريرها واقتربت مني .. ثم جلست على حافة سريرى ونظرت الى طويلا :

عتاب في عينيها . التصقت بي : قلق في لمسة كفها ، شعرت بخنائها عبر لمساتها .

قالت في حنو مشوب بالخوف :

— هل تحن الى تلك المدينة ؟؟

كنت أنظر في عينيها ، ولما أردت أن أتأمل جمال وجهها لم تقو عيناي على مفارقة عينيها .. فجذبته نحوى مستشعرا راحة كبرى . أحسست بها تجذبني .

همست وانفى مدسوس في شعرها وفمى لصق أذنها :

— ليكن يوم العاصفة هو أول الأسبوع ..

شعرت برأسها تومىء موافقة .. فوشوشت بفمى في فمها :

— وليكن هو أيضا أول الشهر .. ومنه نبدا في تكوين تقويمنا الخاص .

سبتمبر ١٩٦٩

هجرة الضحك

١ - الأب

سمعت أمي تحكي عن أبي بأنه كان يملك بدنا له قوة فحل وحيوية تيس . حكّت أمي : لذلك جعل من النساء متعته الكبرى .

عاد لها ذات ليلة ليحدها غاضبة .. قالت له :

— عليك أن تختار : إما أن تكتفى بي أنا زوجتك أو إترك
وأعود إلى عشيرتي ..

قال :

— هل منعت عنك مالا طلبتيه ؟؟

— لا ..

— هل قصرت في حق جسدك على ؟؟

— أعطيتنى أكثر مما حلمت به ، لكنك لا تترك الأخريات !!

حكّت أمى للجارات أن أبى تجهن قليلا ثم قال :

— عجيب أمرك يا امرأة ، فى جسدى هذا ما يكفىك ويكفى الأخريات فلم أحبس نفسى ؟ !

ثم انه جذبها اليه نحو المصطبة ولم يتركها الا مع صياح
ديك الفجر .. فلبس ملابسه وخرج الى الحقل . استراحت
أمى قليلا ثم نهضت نشيطة مرحة وقضت نصف النهار تعد له
غذاء شهيا .. وانتظرته .. ثم ذهبت اليه فى الحقل بالطعام
فلم تجده ، ولم يعد بعد ذلك !!

وبعد حوالى الحول رزقت بنا نحن الاثنين فى بطن واحدة ،
احتارت فى البداية .. فكرت وقالت : « خلقت بشدين ، فلبكن
ثدى لكل منهما .. هذا له الأيسر وذاك له الأيمن » . كانت
تهمدنا فى حجرها ، ثم تلقمنى ثديها الأيسر وتلقمه هو الآخر .
ضحكت أمى وقالت لى :

— كان الذى يشبع منكما أولا يرفض الآخر بقدميه
الصغرتين !!

فلما تعلمنا المشى البستنا ذات الثياب بنفس اللون ووضعت
فوق رأسينا طاقتين توءمين . وقف أمامى فى الحارة محاكيا
وقفتى فرآنا بعض رجال القرية ، عجبوا وهتفوا :

— كانه واحد فى مواجهة مرآة !!

لذلك خطرت على باله ألعاب عجيبة . كان يجمع الأولاد
ويوقفهم خارجه حقول القصب ، ويسحبني داخلها لتختبئ

بين الأعواد العالية ، بعد فترة يخرج واحد منا فقط ، وكان على
الأولاد أن يكشفوا من الذى خرج لهم !!

٢ - الوشم

سارت أمى مزدانة بوشم الخطوط الثلاثة فوق ذقنها ،
مرفوعة الثوب عند الصدر بشدين قويين ، لم تنظر خلفها أبدا
مطمئنة الى أننا نتبعها حيثما سارت . كنت أقلدها فى كل
ما تفعل ، أما هو فكان يتركنا عند كل انحناء ويخترق الحقول
المجاورة مختصرا الطريق ثم يجلس ينتظرنا ، أو يدور من حولها
صاخبا لاهيا . لم تلتفت إليه أبدا ، لكنى رأيت فى وجهها بسمة
سعيدة ، ورأيت السماء والشمس من فوق رأسها .

فى الحقل ذهب يتسلق الأتارات القريبة ويمتطى أصنام
الفراعنة ، ثم « تشعبط » فى قطار المصنع حتى اكتشفه
الحارس فقفز هاربا صائحا بصوت القاطرة المسروع !

توقفت أمى بفتة عن سقى القصب . زمت شفيتها ثم
أمسكت ثديها الأيمن ، الا أنها أوقفتنا أمامها وانتقت أعوادا قوية
مليئة بالبذور ، قالت :

— هذ تقاو ..

وقالت :

— اذا رقدناها فانها تطرح الأعواد من جديد .

وقالت :

— لكن الأعواد الجديدة تنبت فى غير قوة الأعواد الأصيلة .

هززت راسي مبهورا ، اما هو فمضى يتقافز كالجدى بعد
رقدة شبع ، ثم جاء من خلفي وأمسك بذيل جلبابي وحثنى على
الجرى أمامه ، وحرك يده حركة دائرية كذراع القاطرة البخارية ،
جرينا مخترقين المعبد وحقول القصب ، وانضم إلينا في الطريق
كل من قابلنا من أولاد وبنات . عبرنا فوق شريط القطار
واخترقنا قطيعا للماعز تفرق على الجانبين ، واتجهنا إلى القرية
فكبر الطابور وتعالَت الأصوات صاخبة رفيعة ممدودة . كان
صوت القاطرة يشبه عويل البنات الأبكاء ، سمعه بغل صغير
فترك أمه وركض هائجا مفزوعا .

ولكن أخى لما رأى ضاربة الودع الفجرية خرج من قطار
الأولاد وحام حولها في شغف غريب : الترتير الأحمر يملأ طرحتها ،
عقد الخرز الطويل يتمايل في عنقها ، وهلال الذهب المثبت في
أنفها يهتز بشدة كلما ارتفع صوتها منغمة نداءها : « نضرب
الودع ونوشوش الذكر » .

اقترب منها أكثر ، لمس في خفة ثوبها الخارجى الرقيق
الذى يشف عن الملس الأحمر تحته . ازداد اقترابه . تخلخل
الطابور ثم تفكك وانحل ووقفنا جميعا نراقب ما سيفعله
صامتتين . . تسلسل ثانية من خلفها ، أمسك بطرف جلبابها وبسرعة
رفعه إلى قدر ما يستطيع ، فبان كاحلاها وساقاها وجزء من
فخذها ، وقبل أن تستدير المראה له كان قد جرى وكان الملقطف
من فوق رأسها قد سقط فوق الأرض ، فهرب كل الأولاد ،
وهربنا معا واحتمينا بالدار . شهقت بعض النسوة وبقية أحد
الفتيان .

وقفت الفجرية على عتبة الدار شاكية . اهتز هلال الذهب
في أنفها بشدة مطالبة بمعاينة مرتكب هذه الفعل . . كانت أمى

تعرفه بالحدس ، إلا أنها صمتت ثم لجأت الى حيلتها المعتادة
وأشارت إلينا :

— ها هما أمامك ، اخرجيه وأنا أضربه لك !

تفرست الفجرية فينا مختارة :

— عسير والله يا خالة ، الولدان كفلقتى القولة !!

رق صوت أمي ونعم :

— واحد فقط رفع جلبابك ، اليس كذلك ؟؟

— نعم ..

— فيكون الآخر بريئا !!

— اضربي الاثنين فتكوني قد عاقبت المذنب فيهما .

— أو أعفو عنهما فأكون قد أنصفت البريء منهما .

زامت الفجرية بكلام لم نفهمه ، واستدارت لتمضي ..
لكن أمي نادتها وهمست لنا بسرعة :

— راقبوها جيدا ، افتحوا عيونكما . الفجر يسرقون
الكحل من العيون .

انزلت الفجرية مقطفها في وسط الدار . أخذت بعض الماء ،
خلطته بمسحوق الوشم ، تلت عدة دعوات بلهجة لم أفهمها ،
ثم تناولت ثدي أمي الأيمن في كف وملست عليه بكفها الآخر
متممة بدعوات مدغومة الكلمات ، وبدأت تخزه راسمة فوقه
وشما بوخزات عديدة ملأته بمسحوقها المركب فلم أميز
الرسم .. أخيرا أعطت أمي جعرانا أخضر لتضعه تحت الوسادة

عند النوم . ان نظرت انا ان تفعل نفس الشيء بشدي الذي انا
رضيعه ، لكنها مضت قائلة لأمي :

- شفاء اكيد باذن الله ، وصفة مجربة .

وفي اليوم التالي ظهر وشم يكاد يأخذ شكل الهلال .. الا ان
أمي ظلت تمسك هذا الثدي من حين لآخر زامة شفيتها .

لم نفهم لماذا قالت لها : « شفاء اكيد » . وشعرت بالفيرة
منه بسبب كل هذا الاهتمام بشديه .. وقبل ان تنصرف
الفجرية وقفت تتأملنا في استغراب : نظرت الى أولا ، ولا أدري
لماذا أشحت بنظراتي عنها ، ثم نظرت اليه فظل محملا اليها
دون ارتباك ، فأشارت نحوي :

- هذا من شلخني يا خالة .

ضحكت أمي ونظرت اليه ، صمد قليلا لنظراتها ثم انطلق
يجري ضاحكا ضحكة رفيعة لكنها رنانة وطويلة وسريعة
التصاعد .

٣ - الزار

انكمننا معا فوق الكنبه ملتصقين بالحائط مأخوذين
بما نرى .. في البداية شدتنا القوالب المتوهجة وسط الدار ،
ولما اختفى لهيبها القت أمي ببعض البخور وبجبات سوداء لها
عيون حمراء ، فتصاعد دخان البخور الى السقف برائحة
مسكية ، واتسعت حلقة العيون الحمراء فوق النار ، فلما بدأت
المرأة المسكة بالدق الكبير تدق فوقه تحولت عيوننا اليها ثم
تركزت على كفها يدق الايقاعات المنتظمة . بدأت أمي تدور حول
الموقد من خلف المرايين الآخرين ..

جذبتنا الرقصة . أسرعت حركات الزار لاهثة وراء الدقات .
ترنحت النسوة ، وتخلخل دخان البخور عن أشباح مرتعشة
راقصة ، كثيفة متموجة الأطراف . وثب فجأة وانحشر بينهن
هاذا رأسه وجسده مقلدا ، فأبعدنه . عاد الى جوارى ولفت
نظري الى امرأة الدف : أفلت زرار الصدر فبان معظم ثدييها
أكثر بياضا من عنقها ووجهيها ، تتمايل فيهتان معها . حملق
الى بياض الصدر .

بعد وقت طویل ارتمت أمي فوق مخدعها مجهدة تماما .
لحت حجابا صغيرا فوق نديها الأيمن . سألت نفسي : لماذا
تهتم أمي بالندى الذى هو رضيعه ؟ ! .. شعرت بالغيرة ، وظللت
ناظرا الى القوالح الموقدة ، زاد الرماد من فوقها ، خبت عيون
العقرب ، بدا لون النار يختفى تماما ، ومن حين لآخر تحدث
فرقة ضئيلة بين الرماد يختلط صوتها مع نباح الكلاب فى
الخارج ونقيق الضفادع ووشيش الهواء يمر بين أعواد القصب
فى الحقول . قبل أن أنام سمعت آلة القاطرة مسرعة تنوح كبكوز
البنات ، وسمعتة يهمس فى أذنى :

— لامرأة الدف ثديان كالملمن !

وبعد قليل عاد يهمس :

— كرمانتين كبيرتين !!

وفى طريق الصباح لما رأى البنت أزهار قادمة نحونا تدفع
أغنامها ارتعشت كلماته :

— نضجت البنت قبل الألوان !!

ثم تركنى واندفع مخترقا طريقه بين الفئمات . عجبت

البنـت ولم تفهم غرضه . دهشت أنا واحترت ، اقترـب منها
فـي جـسارـة عـجـيـبة وقرص ثديها ! صرخت البنـت ، سبته بأفـظـع
الشـتائم . ضـربت أغنامها بالعـصا لتسرع فـي الـابتـعاد ، وعندما
مرت أمامي قالت :

— أنت شاهد على ما فعل ..

كان يلهث ووجه مصفر ، لكنه استرد سكونه بسرعة
غريبة . نظرت له معاتبا فأعطاني ظهره وسبقني سائرا ، وبعد
برهة رأيت جسده يهتز ثم سمعت ضحكته ، كانت برنانة تتصاعد
غطت كل حقول القصب فسكتت العصافير عن زقزقتها ..
التفت الى :

— هل ستشهد ؟ !

تكلمت البنـت مع أمي فـي أشـياء مـختلـفة لكنـها لم تشكـه
ولم تدعني للشهادة .. كل الذي فعلته أنها أشاحت بوجهها بعيدا
عنه فـي غضب .

٤ — العشب

سألـتها ان كان شـيء يؤلـمها فـانكرت ، وتغطت بقطعة الصوف
وعادت تتحسس ثديها الأيمن :

— أخرج وابحث لى عن ورقة صبار .

دهشت . تقلص وجهها لما :

— بعد الأصنام وعند حافة الوادى توجد شجرة الصبار .
اذهب وانتق لى احدى أوراقها . اخرج ولا تسأل .

اختصرت الطريق فلم أعبى الحوارى الملتوية . سرت بين الحقول .. وبعد قليل رأيت أعواد القصب تهتز ، خرجت من بينها « خمرية » امرأة نجار السواقي المشوفة ، جاءت ناظرة الى وجهى متسائلة العينين . لم أصدق ، اندهشت : فى عينيها الجراة والحياء معا ، عندما ارتبكت أنا ترددت خطواتها ، وعندما ابتسمت هى وأقبلت نحوى مطمئنة تتأمل ملامح وجهى . زدت ابتسامتى فواجهتنى فى ثقة ، لكننى لما تكلمت ودخلت نبرات صوتى الى أذنيها ، جفلت المرأة وشحب وجهها وضاعت جراءة عينيها وبقي الارتباك وحده ، ثم استدارت مهرولة .

واصلت سبرى فى مرارة .. منذ أيام تركنى أعمل وحدى فى الحقل واختفى ، كان العمل مرهقا لى .. وساعة العصر أتناء عودتى مكدودا قابلنى بعض الرجال فاذا بهم يتعجبون :

— أمرك عجيب حقا !! كنت منذ قليل ضحاكا مهزارا ،
ما بالك الآن عبوسا مكدرا ؟ !

عبرت الشريط الحديدى . اقتربت من المعبد فسمعت بعض الأصوات . اتجهت الى ما بين صنم الفرعون والجدار الغربى . لمحت ظهر امرأة مشوقة القد ، جرت متوارية وراء الجدار — لم ألمح وجهها — حاولت أن أتبعها فنبت لى من حيث لا أعلم ووقف فى طريقى بابتسامته العجيبة . انحرفت يمينا فانحرف يمينا ، سرت يسارا فسد الطريق أمامى ، كشرت فى وجهه فبادلنى التكشيرة . زمت حانقا فزام كأنه البصدي ، ثم ضحك ضحكته الطويلة الرنانة سريعة التصاعد .

عند حافة الوادى تناثرت عن بعد خيام الفجر . لحقنى وقال :

— لا تغضب من امرأة نجار السواقى ، هى قريبتك
بالدم !

عبست . قال :

— منسوبة ابنها لدى الحكومة الى اسم النجار ، لكنها
فى الحقيقة وبالدم انت عمها توعم أيها !!

زاد العبوس .. صرخت :

— ابعد عنى .

سهلت ضحكته وأشار الى خيام الفجر :

— ولى رفيقة أيضا بين هؤلاء . تعرف ذلك .

— داعر ..

فى المرة الأولى ترك الحقل وتبعها وعاد بعد قليل .. وفى
المرة الثانية لحقها ثم عاد ساخطا وقال :

— تجيد الفجرية لعبة الدلال !

وفى المرة الثالثة تركنى أعمل وحدى وهرع من خلفها وحو
يقول ان « الثالثة ثابتة » .. غاب بعض الوقت ثم عاد منشرح
الوجه ، وأقبل على العمل فى همة عالية مدندنا ببعض الأنغام .
ولما عبرت عائدة الى الصحراء سارت ولم ترفع نظراتها عن
الأرض .. ضحك وقال :

— تعرف ان الأعواد الطويلة ستارة .

شعرت بغيرة شديدة ..

— داعر .

أخرجت مطواتى بفتة . جفل ، تراجع خوفا !! . أحسست
بارتياح عظيم .. أمسكت ورقة صبار خضراء ممثلة وبترتها .
دهش وسألنى عن السر . تجاهلته .

نزعنت أمتى الأشواك عن الورقة ، مزقتها قطعا صغيرة
بالسكين وألقيتها داخل الهون ، دقت فوقها حتى حولتها الى
معجون أخضر .. ثم أخرجت من فتحة الصدر ثديها الأيمن
وأخذ تدلكه بالعصارة اللزجة لتلفه بعد ذلك بخزقة قديمه
وتعيده الى مكانه ! .

قلت :

— خبرينى عما يؤلمك ؟ !

قالت :

— كبرت فى السن .

رفدت على المصطبة . تأوهت :

— منذ اليوم سأمكث بالبيت وعليكما بالحقل ، رعيته
وحدى منذ ذهب والدكما ، رفضت مساعدة الرجال ، خفت
أن يميل قلبى الى أحدهم .

لمت عيناها :

— خفت أن يميل قلبى الى رجل غريب ، ليس من أجل
أبيكما الشارد ، ولكن من أجلك ومن أجل أخيك .

ثم طلبت منى الا أخبره بما تفعله بشديه . قالت :

— ربما يغضب .

ومكثت بالدار لا تخرج فترة طويلة ، جالسة أو نائمة ،
الى أن نهضت ذات صباح خارجة الى شاطئ النيل . انتقت
بعناية بعض الأوراق الخضراء النابتة في جسر ، دققت في
اختيارها ، وعادت بها الى الدار لتضعها في اناء مع بعض الماء
فوق النار ، تصاعد البخار في لون مخضر فأخرجت الثدي
وضففت عليه الى أن برزت الحلمة بشدة وعرضتها له .

دخل أخى ، جمد ساكنا . لم تشعر به ، أدمى البخار لون
الحلمة البنى الى الأحمر القانى فاخفت التشققات الكثيرة من
حوله . شهق أخى . رفعت رأسها وبسرعة دست ثديها داخل
الجلباب .

دام الصمت دهرًا داخل الدار ، والماء فوق النار يغلى
ويغور .. وعرف الحقيقة .

— لابد من طيبة .

قالت :

— أبدا ..

— كان عليك أن تخبرينا منذ البداية .

خرج . ناحت :

— ناح العصفور على خراب عشه .

ودفنت وجهها في حجرها . اهتز جسدها ثم صرخت في :

— اذهب خلفه وامنعه ..

قلت في صوت حكيم :

— دواء الطيبة خير من اعشاب البرارى وارحم من
ابر الواشمة .

٥ - الطيبة

امسكت الطيبة بالثدى فى كفها : بالحلمة بعض التشققات،
تحيطها هالة غامقة اللون كالقمر ليلة اختناقہ .. فحصت ثقب
الحلمة بالعدسة المكبرة ، قربتها فعظم الثقب . املت راسى
فرايته واسعا : من هنا كان اللبن ينسال الى بلعومه ليشبع
ويرتوى ، فهل كان ثديه يدر لبنا اكثر من ثدى ؟ ! وهل كان
لبنه من نفس النوع ؟ !

كان براد الشاى فوق راكية النار ودائرة الرجال من حولها
يتسامرون ، افسحوا لنا مجلسا .. نقلو ابصارهم فى حيرة
بيننا ، عوملنا نفس المعاملة ، الند للند .. حتى بدأ هو يتكلم
ويتضحك وينطلق فى قهقهاته فصعدت الدماء الى وجهه الذى
أصبح جميلا اخاذا .. تيقنوا من شخصيته فتركزت عليه كل
الانظار ولم تفارقه . على الفور شعرت بوجهى بلا دماء او حرارة ،
نهضت منسحبا فلم يشعر بى احدهم ..

وهذه عروق ثديه زرقاء خفيفة تختفى أحيانا تحت الوشم
الأخضر — ولون الثدى أنصع من لون وجهها — وحول ثقب
الحلمة حبيبات صغيرة زالت عندما أبعدت الطيبة العدسة
المكبرة ..

من شقها فى جسر النيل خرجت الحية تتلوى ناعمة ،
مطرودة من مياه الفيضان ، سكرانة من رطوبتها . صوبت سلاحى

وبطلة واحدة بترت رأسها .. رمقني مبهورا بنظرة اعجاب
غريبة فمددت السلاح اليه في تحد :

- اتقدر أن تصيب في مثل هذه الدقة ومثل هذه السرعة ؟؟
- أقدر أن أحلق الى أية امرأة في القرية وأهمس اليها
بعده كلمات لتصعد الدماء الى وجهها خجلا ! فهل تقدر أنت
على ذلك ؟ !

وجمت لحظات . شعرت بالفيظ ، التقطت جسد الحية
وقربته من وجهه . تراجع بظهره متوعدا بأصبعه :

- احذر . لكل حية وليف ، وسيبحث عنها وليفها ..
مضى بضحكته .. شعرت بالغيرة وربما حسدته .

تركت الطيبة الشدى فلم يتهدل ، ظل متماسكا بارزا الى
الأمام . قالت :

- تلزمني بعض التحاليل وصورة بالأشعة حتى أقول
حكى .

صاحت صفارة المصنع . وبعد عدة أيام قالت الطيبة في
جمود :

- الأمر الآن واضح تمام الوضوح .

ابتسم هو لأمى . داعبته بعينيها . قالت الطيبة بعد حين :

- عليل بمرض خبيث !

أصابني الذعر . همس أخى :

- لا .

قالت الطبيبة :

— بترأ يبتـر .

قالت أمى :

— لا .

قالت الطبيبة :

— بترأ يبتـر .

نظرت أمى اليه وقالت :

— محـال .

قالت الطبيبة :

— وهذا هو سبيلك الوحيد الى الراحة .

لم تترك عينا أمى وجهه . قال صوتى للطبيبة :

— الا يوجد علاج بالدواء ؟؟

— العلاج الوحيد بالجراحة .

التصقت أمى بأخى وناحت :

— كيف أسمح ببتره وولدى هذا رضيعه ؟ !

جمعت الطبيبة عدتها . قالت أمى :

— مازلت أحس أنامله الصغيرة فوقه !!

اتجهت الطبيبة الى الباب . همست أمى :

— وأشعر عضاته المحببة فوق الحلمة !

ضاع لون وجهه ، حلق الى الهواء . قالت الطيبية لأمى
من عند الباب :

— يبس ثدياك ، ولدك هذا كبر وشب ولم يعد يرضع .

٦ - البتر

قال صوتى لأمى :

— فرحت الدار بعودتك .

وقال صوت أخى مبحوحا :

— المهم الا تتألى بعد ذلك .

طرحتها السوداء تخفى صدرها ، خلعتها فنظر الى صدرها:
ثدى واحد ، هبط الثوب عند مكان ثديه حتى صدر الكتف ..
كانت ونحن صغيران تخرج لنا النقود من هذا المكان لنشتري
الحلوى ..

فى نظراته شيء لم أراه من قبل ، لأول مرة أراه مهزوما
ترتعش جفونه .

فى حنان وشوق ملست أمى فوق فرشة مصطببتها المنقوشة
ثم تربعت فوقها .. مررت أصبعها فوق خطوط النقوش ، ودون
أن تنظر إلينا أمرتنا :

— والآن اذهبا الى حقلكما .

فى الطريق قابلنا بعض الرجال ، تفرسوا فينا محتارين ،
كان هو ساهما مكدودا . قال أحد الرجال :

— أريحونا وتكلما أو اضحكا ، من منكما الهزار ؟ !

فقال لى :

— أمى وحدها تميز بيننا وبمجرد دخول أحدنا عليها
وهى قابضة فى ركن الدار .

قال :

— دون ان تلتفت ناحية الباب تنادى على اسمى
أو اسمك ..

ثم قال :

— تميزنا بالخطوات وتعرفنا كما تعرف البقرة الأم أطفالها
من خصوصية رائحتها .

قلت :

— فلما شبيبنا أصبحت تعرف كلاً منا بموعد عودته : أنا
بعد الظهر مجهداً ، وانت ليلاً ودائماً فى خطو متعثر ..

ثم قلت فى سرى : أما أهل القرية فينتظرون حتى تنطلق
ضحكاته وقفشاته ليلتفوا من حوله ولأجد نفسى خارج الدائرة !!

فى الحقل قال :

— كنت أحب اراحة راسى فوق هذا الثدى .

تشاغلّت بخلع الأعشاب الدخيلة من حول الأعواد . قال :

— كان ليلى دافئاً وكنت أسمع منه صوت تنفسها .

— اعمل ولا تفكر فى ذلك .

— حتى دقائق قلبها كنت أسمعها منه رغم أنه الأيمن .

كان صوته مهزوزاً . قلت فى بالى : طوال عمره ضحكك
مهزار وسوف يتغلب على هذه المحنة .. وعندما قابلنا ابنة

نجار السواقى تلعب أردت أن أسرى عنه ، لفت نظره إليها .
رمقها في رفق . حملقت فيه البنت وغمزت له !! لم يضحك .
قلت :

— تذكر أننى بالدم عمها توعم أبيها .

لم يضحك . جرت البنت مبتعدة ثم عادت إلينا محاكية
مشيته المتخاذلة وحزنه المرسوم فوق سحنته ، ابتسم فانطلقت
البنت ضاحكة ضحكة رفيعة لكنها رنانة ، فجأوبها بضحكته
المسهلة سريعة التصاعد . أصدرنا معا ضحكة وصداها .

لكنه عاد إلى الدار ونظر إلى صدر أمى فاغتم وخرج إلى
الخلاء ، وصاحت صفارة المصنع وتأوه :

— أمى هكذا ليست كاملة !

٧ - القطار

حاولت أن أرد إليه ضحكته . قلت لنفسى : أن يعود مهزارا
مرغوبا أغير منه أفضل من أن يظل حزينا مهموما أعطف عليه .

أخذته إلى المركز . تفرجنا على المحلات وعلى نساء البندر
فلم يتبدل . انتهينا عند فرقة الفجر وجلسنا نشرب الشاي
ونشاهد الغازية ذات السنة الذهبية وهى تهز جسدها ، الكحل
غامق وحسنة مرسومة على خدها ، ممثلة البدن لكنها قوية ،
هزت جسدها برعشة عنيفة كمن رعبه الجن ، صدرها ممتلئ
جدا ، تكشف ثيابها عن جزء كبير من الثديها ، كانا يهتزان في
عنف ، ويترججان مع كل حركة . . . مالت بجسدها كثيرا إلى

الأمام فكشفت عن معظم ثدييها فهل المتفرجون في عصبية ،
ازدادت ابتسامتها ولم تفارق شفيتها . جميلة رغم كبر سنها .

سار صامتا في طريق العودة . حاولت جره الى الحديث
ففشلت . كان يرد بهزة من رأسه . تمنيت لو رأيت وجهه
جيذا . كان الظلام يحيطنا . فلما اقتربنا من مصنع السكر
تساقطت أضواء نوافذه علينا من خلال الزجاج العالى - وأصوات
ماكينات - خطوات في ضوء متسلل من نافذة ، وخطوات أكثر
في الظلام . وجهه جامد . قلت :

— هل تذكر لعبنا فوق قطار المصنع ؟؟

أوما صامتا . قلت :

— وقطار الصبية الذى طفنا به في كل مكان ؟؟

أوما ولم ينطق . بعد قليل قلت :

— وهل تذكر امرأة الطحان ؟؟

في ضوء النافذة لمحت نصف بسمه وتنبهت الى ضجيج
الآلات .. صاحت صفارة المصنع فخرج عمال المواسم بعد
تفتيشهم الى الفناء . السور من امامهم ثم حقول القصب ، وقطار
المصنع الخالى . بدعوا يخلصون « أشولة » الخيش الملبوسة
على الاجم ذات ثلاث الفتحات ، أصبحوا عراة ، مدوا أيديهم الى
ملابسهم الفقيرة .. ورايناها معا - امرأة الطحان - كانت منزوبة
فوق عربة القطار الفارغة رافعة جسدها قدر ما تستطيع !!
متوارية تظن أن أحدا لا يراها . دهشنا ، لماذا تقف المرأة فوق
العربة ؟ ! تابعنا نظراتها .. كانت تتأمل الرجال العراة !

أوقفنى وقال :

- المرأة تنظر الى أعضاء الرجال !!

كانت مستفرقة لاهية عن كل ما حولها ، فتسلل صاعدا
العربة في هدوء ، وفاجأها من الخلف . جفلت المرأة وأرادت
الهرب .. وكما ينقض القط عاقرا القطة من قفائها انقضت يده
تمسك بمعصمها . حملت فيه وهي تقاومه متخاذلة :

- ماذا تريد منى ؟ !

دخلت الى صدره لاهثة :

- اتركنى فى حالى .

ضحك وسحبها الى أرض العربة ، فهبطت معه دون
كلمة ! .. وبعد شهور سار زوجها الطحان فى طرقات القرية
ينفض ذرات الدقيق عن جلبابه وهو ينظر سعيدا بما فى بطن
زوجته ، وقال الناس حبلت المرأة بعد أن كادت تياس ، كل شيء
له أوان .

مرت خطوات الظلام ، وفى ضوء النافذة التالية كان يتسم ،
فضحكت أنا بشدة ، وضحك هو أيضا ، لكن رنين ضحكته كان
مختلفا ! .. قال :

- نسيت يوما أنك كنت معى . صدقنى . كانت منفعلة
عصبية وجسدها ساخن . ولم تكن ترى من الأرض الا سعف
النخيل العالى ودخان المصنع ، كلما تقلبنا ، والسماء وأرض
العربة .

٨ - الابن

الليالى التالية خرج وحده ، وعاد عند الفجر ، دائما عند
الفجر لينام مهدودا ، ليجد أمى سهرانة ، وقلحت حيلته معها
دائما : ثلاث فبلات فوق وشم الخطوط الثلاثة على ذقنها وبنتهى
كل شيء ، تبسم له وتسامحه غافرة جميع ذنوبه ، أما أنا
فلا أفعل ذلك أبدا ، أقبلها فى قلبى وبعينى وأخجل من ابداء
شعورى بطريقة صريحة .

بعد أن جمعنا محصول القصب وشحناه الى المصنع ، عدنا
الى الدار وكان وقت الغروب . أطعمتنا أمى ، ونمت أنا من
قورى أما هو فقد غسل وجهه وخرج .

فجر اليوم التالى كان وجه أمى شاحبا وعيناها محمرتين ،
أخذت تخط على فخذها فى رتابة ، ثم همست :

— لم يعد حتى الآن !!

ذهبت الى المركز للسؤال عنه ، بحثت عن خيمة الفجر
فعلمت أنهم فكوها ورحلوا الى مكان غير معلوم ، على الفور
تذكرت ليلة أن ذهبنا معا للفرجة على الغازية ذات السنة الذهبية،
لم تفارق عيناها ثدييها . لم ينظر الى وركيها العاريين او الى
سرتها المستديرة النظيفة او حتى الى شفتيها المنفرجتين نصف
انفراجة او حتى الى عينيها ذات الكحل الغزير ، وانما تركزت كل
نظراته على ثدييها وهما يرتجان خلف الثوب الخفيف الواسع
الفتحة عند الصدر .

عدت الى أمى مخدولا . زاد شحوب وجهها . ظلت صامتا
لا تأكل .. وذات يوم شربت بعض الماء وقالت :

— الأب الملعون .

قالتها فى صوت ملىء بالحب .

وقال رجال القرية : غوته الغازية فهرب معها ، ثم قالوا
انه يعمل الآن طبالا بعد ان ركب فى فمه سنة ذهبية !!

جاءت ايام شديدة القىظ ، وعاد احد الرجال من القاهرة
ليقول : انه شاهده يتسكع ضاحكا فى ميدان المحطة قرب نافورة
تمثال رمسيس !! .. فقال آخر : بل هو يعمل الآن فى فندق
الشلال بأسوان !!

وبكت زوجة نجار السواقى ، وحامت امرأة الطحان ببطنها
المنفوخ من حول دارنا ثم اخذت تجالس امى مصطببتها — كذلك
فعلت بعض النسوة — حتى جاء احد الرجال وقال : انه شاهده
يرقد عند جامع السيدة زينب وقد تحول الى درويش بدقن
وملابس مرقعة ، وانه كان يتضحك مع المجاذيب !! ..

الا ان امى لا تصدق شيئا من كل هذا ، قابعة فى العتمة
تنظر الى الباب المفتوح نهارا الموارب ليلا .. واحيانا كثيرة احرار :
هل تنتظر الأب ام الابن ؟ !

لكنها من حين لآخر تمد يدها الى مكان ثديها المبتور ،
فأخرج الى ليل القرية المظلم الكئيب واذناى تفتقدان ضحكته
الطويلة الرنانة . لم يكتمل البدر منذ ان غاب ، فى ليلة اكتماله
جاءت بنات الحور وخنفته ، وفى شهر تال حجبه سحب سوداء
داكنة لم تنفشع عنه حتى فارقه جزء من استدارته ، وفى شهر
آخر فال الراديو عن القمر : ان احد الرجال داس فوقه بجذائه ..

بدأت أشعر أن عيون الرجال تغيرت ، تنظر الى في صمت
واصرار كأنها تقول لي : ذهب المهزار وبقيت أنت !!

وكلما رأيت حقول القصب الخضراء ، وكلما شاهدت
نخلتنا العالية وسعفها المنثور في السماء كوردة كبيرة .. أتذكر
وشم الخطوط الثلاثة فوق ذقن أمي ، وقبلاته الثلاث فوقها ،
ودموعها المنسالة فوق خديها .. فأسأل نفسي : ألن يعود
الضحاك ؟ ! .. وعندئذ أشعر بالذنب لأتني كنت أحسده
وأغار منه .

نوفمبر ١٩٦٩



خمس جرائد لم تُقرأ

خمسة جرائد لم تقرأ

... وأخيرا سمعت ساكن الشقة رقم (٧) يقول للبواب
ان هناك رائحة كريهة تنبعث من شقتي . قال البواب انه ايضا
شم هذه الرائحة وتعجب لسببها :
- ربما قطة بالداخل وماتت .

لكنه تذكر اننى لا اربى القطط فى شقتى ، وانه لم يسمع
صوت مواء . (شعر بأن ذلك عجيب فتعجب) . ورأى الساكن
أن الرائحة كريهة فأمر البواب باخطار البوليس لفتح الشقة .

كسروا الباب فى ضجيج عال ، فاهتز الزجاج ، وتردد
الصدى فى الشقة لقلة الأثاث .

يوم أن تسلمتها أعجبنى فيها الهدوء الشامل ، والحديقة
المزروعة حول كل بيت . وكنت أريد أن أسكن فى حى السيدة
مع أهالى بلدتى .. غير انه لم يكن هناك مكان لى .. وعندما

سألت عن لوكاندة في شارع هادىء كانت الأسعار فوق طاقتى .
ظالت أبحث دون فائدة . (كان ذلك مرهقا فتعبت) .

رغم أن الشارع مرصوف ونظيف دائما فان أحدا لا يسير
فيه غير الباعة والبوايين وأنا ، وعدد من السيارات الجميلة ،
والأولاد لا يلعبون في الشوارع (أدركت أن ذلك عجيب فتعجبت) .

نزلت من ترام السييدة . وجدت عيالا تشرين يلعبون في
الشارع . سألتهم عن شقة الأستاذ محمود -- بلدياتى -- فلم
يعرفوه .. لكن أحدهم سألنى :

- تقصد محمود الصييدى ؟؟

- نعم ..

فعرفوه على الفور ، وأرشدنى عدد منهم الى شقته . فكنيت
أثنى اللحاف وأفرشه فوق الحصيرة وأنام فى الصالة . كان
الزوم مريحا لولا حرارة النبو ، ولولا أن زوجته البدينة بدأت
تشعر بالشجر من وجودى ، فكانت تتعمد الذهباب الى دورة
المياه عدة مرات كل ليلة معدنة قرقرعات عالية بالقنقاب ، وأحيانا
كانت تتعمد أن تدوس على أطراف أصابعى ، فكنيت أنام دائما
ويداى مضمومتان فوق صدرى ، وسمعتها تقول لزوجها اننى
أنام كالوتى ، لكنه لم يرد عليها . ومرة خبطتنى فى رأسى بقدمها
فألمنى ذلك ، وشممت رائحة جسدها أذ مس قميص نومها
وجهى (لم تعجبنى رائحتها فتقززت) .

ركنوا الباب المخلوع . اتجهوا فى حذر صوب غرفة نومى ..
جمدوا فى أماكنهم . اشمأزوا من الرائحة . ارتدوا جميعا

منزعجين .. عدا البواب فقد وقف مكانه في سكون واجما عدة
لحظات ، لانه أعور فقد نظر لى بعينه المبصرة ولعت دمة وحيدة
فوق خده الأسمر ...

حملت عينه السليمة حائرة ، وقال لى :

- كل ساكن من سكان العمارة يضع في بيته عددا من
التمثيل السوداء الصغيرة لزواج عراة * ولكلب رابض في عنقه
طوق ! وتمثال لفلاح يعزف الناي !!

وذات مساء لمع العجب في عينه ، وهمس لى :

- 'نل السكان شحوفون بهذه الأصنام !! والعززة في أنف
كل زنجى خرزة حقيقية ! وائطوق في عنق التلب من الصلب
اللامع ! وائناى في فم الفلاح من القاب الأصلى !!

(كان مندهشا جدا لأنه أحس أن ذلك مدهش جدا) .. ثم
دخل شقتى وتفحص كل ركن فيها وابتسم وقال :

- لكنك لا تفعل مثلهم ..

ولعت دمة وحيدة فوق خده الأسمر ...

صعدت فوق برج القاهرة . وقفت فوقه ساعات طويلة .
عقدت مقابلة بين حجمى وحجم المدينة . تأملت العمارات العالية
وشاهدت الناس مهرولين أكليين وقوفا .. ولما قالت المدينة
لزوجها أنتى أناام كالموتى انتقلت الى لوكاندة قى شارع كلوت بك
لرخص سمرها ، ومنذ اللحظة الأولى حدث أمر غريب :
اذ اتسعت أذنى وكبرت ، وجاء العمال ومدوا شريط الترام
داخلها ! فسارت العربات بأجراسها بصير عجالاتها بشتائم
سائقها لسائقى عربات الكارو وبخناقات الكمسارى مع الراكبين،

وظلت هذه الترامات تدخل افواجا الى داخل راسى !! تدخل ولا تعود (علقت لافتة خارج اذنى مكتوب عليها : ممنوع الدخول، ولكن ذلك لم ينفع) . واحيانا كثيرة كانت اسلاك الكهرباء تماس فتحدث شرارة وفرقة صاعقة داخل راسى !! فنقلت وضع السرير ونمت بحيث كانت اذنى اليمنى جهة الشارع (ذلك لأنها ثقيلة السمع) .

بعد جهود شاقة علمت أن أحد معارف أبى يبنى بيتا فى حى مصر الجديدة ، فذهبت اليه ووعدنى بشقة من غرفة وصالة . لم يأخذ منى خلو رجل او مقدم ايجار . قال ان ذلك لأجل خاطر والدى (رأيت أن ذلك عجيبا فتعجبت) .

مسح البواب الدفعة اللامعة من فوق خده الأسمر - قالت المدينة لزوجها ان صاحبك ينام كالموتى - تحير البواب بسبب حدوث ما يرى وقال :

- يوم جاء الى هنا كان يبدو فى صحة جيدة تماما !! .. يومها أعجبتنى النساء اعجابا طافيا .. قال رفاق قريتى : « امرأة المدينة سهلة المنال ، والصعيدى له جاذبية شديدة بالنسبة اليها - جاذبية الصعيدى عند القاهرية كجاذبية المصرى عند الأوربية ... » .. وعلى الفور اخذت أتطلع هنا وهناك فى كل شرفة وفى كل فيلا . وتذكرت صديقى هاشم : ظل يقترض من كل من يعرف حتى اشترى سيارة صغيرة تزوج بواسطتها فتاة جميلة ، وبعد ذلك أراد أن يبيعها ليرد ديونه ، فاضطر أهل الفتاة الى تسديدها منعا للفضيحة ، واخذوا يساعده به بالمال شهريا ويهربون عن احتقارهم له ، وقال لى ذات يوم انه يأخذ مالهم ويرفض احتقارهم (شعرت أن هذا الكلام مضحك فضحكت) .

بدءوا يفتشون في درج مكتبي وأوراقى . لا يهمنى ذلك .
ليست عندى أسرار أو رسائل غرامية أخاف من افتضاحها .
توجد خطابات من البلدة فيها كلام عن القطن والقمح ، والشعير ،
وفيهما سلامات كثيرة من أقاربى وبلديانى ، وكل واحد منهم
يرسل لى ألف ألف سلام ... ويصل ويسلم ليد حضرة ولدنا
المحبوب .

رأيت طرف السعفة العلوى يتحرك فجريت الى أمى ، كانت
أمام الفرن تخبز . صرخت اننى رأيت السعفة . أعطتنى مليهين
جريت بهما الى عم حسين ، وكان يدور بالبلح فوق حمارته رافعا
سعفة النخيل عاليا فوق الخرج . لا ينادى على البلح ، ويبيعه
لنا ((بالدورة)) أى بالأربع بلحات .

فى الخطاب الرابع أراد الضابط أن يضحك (ولكنه لم
يضحك) . أبى يقص على اخبار القرية ، ويرسل الألف ألف
سلام من كل قريب وصديق .. ثم يقول ان شجرة المانجو
التي زرعها أمام الدار ذبلت وماتت ..

ركن الضابط الخطاب . كره الرائحة فنظر الى السرير
الخشبى كالح اللون ..

قلت فى بالى : لو جاءت هذه المرأة الى سريرى الخشبى
لكان ذلك أمرا ممتعا حقا . كانت تبدو لى باهرة فى شرفتها ،
وأكثر فتنة عند ركوبها السيارة مظهرة جزءا كبيرا من فخذيها فى
حمرة خافتة ونعومة واضحة .. وذات ليلة انقطع التيار الكهربى
فجاءت الى شقتى ، وأسرتنى رائحتها العطرة . ولما عاد النور
أعجبتنى ملابسها الأنيقة ، لكن نهديها كانا مترهلين ، وسمنة غريبة

فوق رذفيها وتحت المشد المطاط ، ورايت أسفل انفها وتحت
البودرة شاربا خفيفا (كان ذلك قبيحا فاستقبحتنه) . ومائت
لتقبلنى - وكنت حزينا على ذبول وموت شجرة المانجو -
ورايت وجها مظليا بمسحوق برونزى وكفى خلفى بسرعة كبيرة
جدا فجريت عنه فى بطة شديد جدا . أردت أن أصرخ فهد يده
وانترع جبال عسوتى ومزقها .. ثم جذبني اليه وأراد أن
يقبلنى ..

عندئذ نهرتنى جدتى . حذرتنى بأن حجرة الكرار المظلمة
بها عفريت له قدم مسلوخة ويبخ النار من فمه فى وجوه الصيال .
كانت تخاف أن ندخل ونسرق اقراص ((الفايث)) . وكانت أمتى
تخبر فطلبت منها مليمين . وشعرت بأن ذلك مضحك فضحكت .
وكان البواب مدهوشا جدا لأنه أحس أن ذلك مدهش جدا .

تمنيت لو عدت الى صالة محمود بلدياتى . شكوت له من
سكنى الجديد . سكت ثم قال أن ذلك أفضل من اللوكاندة
(كان قوله هذا غير غامض ففهمت) .

فى الخطاب الرابع أراد الضابط أن يضحك ولكنه لم
يضحك . وفى الخطاب الخامس رفع حاجبيه : أبى مازال حزينا
بسبب موت شجرة المانجو ، وقال أن جذورها لم تقبل
التربة .. وأن الأهل والأصدقاء لا يطلبون من دنياهم شيئا سوى
رؤيتى على أحسن حال .. والختام ألف ألف سلام .. ووضعت
الطابع بعرفتى ، وليس بداخله أوراق مالية .

جاء الطبيب - قالت البدينة انه ينام كالموتى - وطلب
الطبيب من البواب أن يحضر زجاجة كولونيا من أحد السكان ،

ثم أخرج منديله وأغرقه بالكولونيا ولفه حول رأسه بحيث خبا أنفه . اقترب من السرير . أخذ يعبث بملابسى ثم بصدرى ويطنى . شد جفنى عيني الى أسفل ونظر فيهما طويلا (لكن عيني لم تنظره) . خرج وغسل يديه جيدا جدا ، ونظر للضابط وقال :

— هذه الحالة ماتت منذ أربعة الى خمسة أيام ..

عندما كسروا باب الشقة وجدوا على الأرض خمس جرائد
لخمسة أيام متتالية لم تمس . فكر الضابط بغيرته البوليسية
وقال :

— اذن هو مات منذ خمسة أيام !!

وقال أحد السكان :

— خمس جرائد لم يقرأها .. كم هو سعيد !

ضحكوا .. لكن الرائحة جعلت قرفهم يتغلب .

أكمل الطبيب للضابط :

— وعلى الأرجح فان الوفاة طبيعية ، ولكن يلزمنى أخذ
عينة من امعائه للتأكد .. بكى البواب فى حرقه وقال :

— الطبيب يذهب !!

ورد الضابط على الطبيب بأن ذلك أمر طبيعى .

كرر البواب فى ألم :

— الطبيب يذهب !!

ورد أبى قائلا فى حنو :

ـ الطيب الذى يعمل صالحا يذهب الى الجنة حيث انهار
من العسل ، اما السيىء الذى يعمل طالحا فالى جهنم وبئس
المصير .

وحيرنى ذلك حيرة فائقة . فلم اكن اريد ان يبتئس مصيرى
واذهب الى جهنم لانى اكره ان احترق ابدا . . . وفى ذات الوقت
لم اتحمس للجنة لانى لا احب العسل .

(والآن اعرف جيدا اين انا . . واشعر برغبة عارمة فى رواية
ما عرفت . . الا اننى أخشى من عاقبة ذلك . فهنا أيضا . . .) .

الجاحظون

فى هدوء شديد قفزت الى الناحية الأخرى وبدأت أهبط
بخطوات مصممة ، النيل أمامى بمياهه وامواجه وطميه ،
والشارع من خلفى بكل ما فيه .

أخذت أهبط المنحدر ، والنيل يأتى الى حتى لامست حافته
فسمعت صوت المويجات واضحا . تلفت خلفى ، رايت حجارة
الجسر وضفدعين . نظرت الى أعلى فرايت رعوس الناس
سائرين . . وكان يقف هناك بعينه شديدة الاتساع شديدة البروز
يجحظ بهما ويحملك نحوى ، من ورائه مبنى التليفزيون ببرجه
العالى . جاءت الشمس من خلفه وفى عيني فلم أعد أراه الا كشبح
أسود يشكل هيكل انسان ، خيال ظل ، ولكننى رغم ذلك -
وبوضوح شديد - رايت عينيه الجاحظتين نحوى .

سرت خطوتين . ابتلت قدمائى بالماء وشاهدت بعض
الأعشاب النامية المخضرة ، وسحلاية تصطاد بلسانها حشرة

ضئيلة . تقدمت فارتفعت الياء -بتي ركبتي حتى فخذى -حتى
بداية جذعى ، وكان برج القاهرة الشاهق أمامى ، وفوقه سائح
يتأملنى خلال المنظار الكبير .

نظرت ثانية خلفى ، كانت هناك أشباح الناس وعيونهم
جميعا شديدة الاتساع بارزة الى الأمام ، شعيراتها الدموية
واضحة الاحمرار .

وصلت الأمواج حتى كتفى ، أحاطت عنقى . ولأن المياه
كانت مليئة بالقش والقاذورات فقد أحسست باتجاه التيار ،
استدرت لأشاهده يسير نحوى فالتصق شئ مبلول فى ذقنى
وغطى فمى ، هزرت راسى فارتفع وخنق أنفى ثم أغمى عيني ،
لذا لجأت الى يدى وجذبتة لأجد أنه قطعة من جريدة لم تتمكن
المياه من محو كتاباتها .

أعطيت ظهري للتيار . كانت الطريق فى أعلى مزدحمة
بالعديد من خيالات الناس ، ظلال أجساد وعيون جاحظة كثر فيها
البياض الملىء بالشعيرات الدموية القانية وصغرت الدوائر
السوداء ، اندهشت ان كان باستطاعة جفونهم ان تغمض فوق
هذه الكرات المتضخمة ..

أطبقت المياه بعنقى ، تقدمت حتى وصلت الى ذقنى ، فكرت
ان كان عندى كلام آخر أقوله ولم أجد رغبة فى ذلك ، فتقدمت
وغرق فمى .

وش الهواء فى أذنى ، لكنى سمعت أصواتا غريبة مختلطة :
محركات آلية وقبلات ومنبهات صوت وتنهيدات وراديوهات

عالية .. وسمعت انين انسان مذبوح متداخلا مع تكتكات آلة
حاسبة وتأوهات مطربة عجوز .. سكن الهواء لكنى سمعت أيضا
مطارحات غرامية وجهاز تسجيل وانفجار ..

اغرقت اذنى فعرفت صوت المياه وصوت أبى وهو يتمخط
فى الصباح وطرقعة شبشب أمى وصفارة سيد جارنا رفيعة
منغمة ، ونبل ينادى على .. وجرس المدرسة .. « نام
يا حبيبى نام وأنا اذبح لك جوزين حمام » .

– اننى يا سيدى اطلب باحالتى الى المعاش ..

ضحك :

– نكتة ظريفة ..

– اننى يا سيدى فى غاية الجدية ..

– ها ها ها

– يا سيدى اننى فى غاية الجدية ..

((.. واذبح لك جوزين حمام)) فبكيت وكنت رضيعا
على حجر أمى ..

ضفطت المياه متدفقة على طبلتى الأذنين فتموجت فيهما
بدبذبات عريضة ، وأحسست برطوبة ..

– ولكننى يا سيدى تخطيت المائة عام !!

– وهذه أيضا نكتة ظريفة .

– يا سيدى صدقنى اننى فى غاية الجدية ..

ثم صعدت فوق السور الصغير وقفزت الى الناحية الأخرى
وبدأت أهبط حتى قاربت المياه عيناي . استدرت ، نظرت الى
الشاطئ : كانت هناك مجموعة كبيرة من العيون المتضخمة ،
تناثرت فوق السور أو تحته أو على تدرج الجسر المنحدر ..
رايت بواحدة منها دمعة غليظة ، انحدرت نحوى ، تذوقتها
فاكتشفت أن طعمها كطعم الدموع وأنا أعرف جيدا طعم الدموع .

تموج سطح الماء أمامي بوجه أختي يحمر وهي تسمع
صفارة « سيد » الرفيعة الممدودة وكانت تشغل التريكو ..
ورأيتني أمد يدي بالطلب الى رئيسي :

ـ وها هو يا سيدي طلب رسمي لاحتالي الى المصاش
مستوفيا لجميع الدفقات القانونية ..

فاحمر وجهه غيظا .. ولما رأيتني اضاجع سميرة الفراش
وشاهدت مؤخرتي عارية ضحكت من نفسي .. ولعبت الكرة
الشراب في الشارع وسجلت كثيرا من الأهداف التي لم تحتسب
بحجة أن الكرة مرتفعة .. ثم طالعني العيون المحملقة على
الشاطئ .. ورأيتني في بطن أمي داخل الرحم وكانت به أشياء
غريبة : أمعاء وخلايا ودماء وافرازات عجيبة الشأن ، وأنسجة
وشرايين وأوردة .. وعين جاحظة وندوات سياسية وهدير نفاثات
وحمار ينهق وعقل الكتروني .. ثم رايت حلمة الثدي اليسرى
وكنيت أحب أن أضغط بيدي على هذا الثدي ، وتذوقت طعم
اللبن وكانت هناك هالة قائمة تحيط به ، ومرة شبعت وعضضت
الحلمة فأبعدتني أمي بنظرة عاتبة ، وكان اللبن يتدفق دافئا من
الثقب فيطري حلقى وبلعومي وبطني - لكن أمي ماتت عقب
ولادتي - وأذكر أن الملائكة جاءتنى ذات ليلة وأكلت معها
أرزا باللبن .

فتح رئيسى ملف خدمتى غاضبا وأخرج شهادة ميلادى :

— وهذه تثبت انك لم تبلغ الثلاثين من عمرك بعد !! فكيف تريدنى أن أحييك الى الممات ؟ !

تقدمت عدة خطوات مرة واحدة ففرقت عينى وشعرى وغطت المباءة كل راسى . سرت حتى أعماق القاع . كان داخل رثى كثير من الهواء زفرته فخرج تدريجيا على هيئة فقاعين ترتفع الى أعلى .. ورأيت ففاعات الماء بالصابون فى شرفة البيت ، ولعبت مع سوسن فوق السطح وذات مرة لعبت معها لعبة العروسة والعريس واكلت منها نصف حلواها .

أخذت شهيقا طويلا فتدققت المياه داخلى . أخرجت زفيرا قصيرا فخرج باقى الهواء منى ، ثم شهقت حتى أصبح كل جسدى مياه .. على الفور رقدت على ظهري فوق القاع الطينى وكان رطبا وهددتنى أمى فوق حجرها وقالت :

« نام يا حبيبى نام » — الا أننى شعرت بأن العيون الجاحظة نفذت خلال الماء والطمى وأخذت تراقبنى .. وجاءنى بعض السمك الصغير وتطلع الى : فأمسكت أعصابى بصعوبة وتدرعت بالصبر ..

وقلت له :

— يا سيدى أنا أدري بنفسى وأقول لك صدقا فكيف لا تصدقنى ؟

— شهادة الميلاد لا تكذب +

— لكننى اتكون من لحم وعظم ودماء وخلايا وشرابين وحديد.
ورئتين وقلب وأذنين ويدين وأنف وعينين وفم وأملأح .. كيف
تكذب كل ذلك وتصدق ورقة صغيرة عليها بعض الحبر ؟

مال لونى الى الزرقة وانتفخت وبرزت عيناي . ففرت
فمى :

— صدقنى يا سيدى ، لست مجنوناً .. لم اكن فى حياتى
جائداً مثل اليوم ..

جحظت عيناه وهزا منى .. فكرهت هذا المكان الذى
أنا فيه ، وتركت التيار يجرفنى من مكان الى مكان .. وحدث
ما بين اليوم الثانى والثالث أن قررت الطفو وتذكرت قانون الطفو
لأرشميدس .

كان الوقت اقجرا وبدأت الشمس تشرق على فى جمال اخاذ
واعجبنى ذلك .. لكن زرقة الجسد زادت واضحت بطنى كبطن
المرأة الحامل .

مررت على عدد من المدن والقرى .. وحدث أمام احداها
أن حجزتنى بعض النباتات النيلية الا أن خفيرا نظاميا لا لمرقه
خلصنى وساعدنى على السير مع التيار .

جاء الليل وجاء النهار عدة مرات .. وقلت له :

— يا سيدى أنا ادرى بنفسى وعمرى الآن فوق المائة عام .

جحظ واعربت نظراته عن رغبته فى انصرافى ..

واصلت رحلتى .. وذات مرة رآنى عجوز كان يتوضأ
وينوى الصلاة فى زاوية على النيل ، فنظر الى طويلا ثم تلا على
عدة آيات من القرآن . دخل بعدها الزاوية ليؤدى صلاة الفجر .

مررت على دمياط ثم رأس البر . وجدت نفسى فجأة فى
مدخل البحر المتوسط . سررت جدا .. اخيرا ها هو
البحر الواسع الرحب بمياهه الزرقاء النظيفة الممتدة فى براح .
الا أننى ظلت أتذبذب مع الأمواج من البحر الى الشاطئ والعكس
عدة مرات حتى حدث أن انحسرت الأمواج فى جزر كبير فدخلت
البحر وبدأت أمواج بعيدا عن الشاطئ الى أن اختفت الأرض
نهائيا ..

ذات فجر حامت سمكة كبيرة من حولى ، أيقنت أنها تريد
أن تلتهمنى ، لم أبال لذلك . اقتربت منى فى هدوء ، شمتنى ثم
تركتنى واستدارت وضربتنى بذيلها وسارت مبتعدة .

وذات مساء ألقى مركب صيد كبير بشباكاه العريضة
فصادنى وصاد الكثير من السمك ، ولما رفعونا الى السطح
أخذوا السمك وركنوه جانبا أما أنا فقد وضعونى فوق حاملة
قرب الحافة ووقفوا مصطفين فى صمت رصين حيث قرأ القبطان
صلاة مسيحية فوق جثتى ، وبعدها أمالوا الحاملة فانزلت أنا
الى البحر ثانية . هدرت الآلات ودفعتنى الأمواج من خلف المركب
الى الاتجاه المضاد .

بت ليلة أخرى فى البحر . رأيت فى السماء جسما مضيئا
شاهق العلو أدركت أنه احدى سفن الفضاء - ثم سمعت الاعلانات
فى التليفزيون عن مسحوق غسيل يقوم بكل العمل لوحده وعجبت:

لماذا لوحده ؟ ! - وعلمت ان البحر في المساء يكون شديد البرودة .

بدأت حوافي تتأكل ، ولم ينقذنى من كل ذلك الا سمكة ضخمة فتحت فمها فدفعتنى الأمواج داخل أحشائها مما اضطرها الى التهامى - وكان فى أصبعى خاتم ذهبى - الا أنها استطعمتنى .. ورأيت داخلها جبل رحم أمى .. ثم بدأت أمعاؤها تفرز سوائل وأحماضا غريبة فتحللت تماما ، وامتصنى جسد السمكة فتغذت بى وزادت كمية لحمها وكمية دهونها ، وتكونت لها أنسجة وخلايا جديدة وكثيرة .

ولما صارت السمكة سمكة سمينة ، هدأت سرعتها فصادها مركب صيد كبير ، وعاد بها داخل ثلاثته الهائلة الى الشاطئ وأنا متخلل لحمها ودهنها وعظامها ومسامها .. ثم باعوها الى مصنع السردين .. وهناك فتحوا السمكة ونظفوها من الداخل ، ووجد احد العمال خاتمى الذهبى فأخذه بعد أن غسله من الشوائب ، وكنت قد فشلت فى التخلل الى الذهب .

دخلت فى جسد السمكة الى الآلات الفاسلة ثم المطهرة ثم آلات القطع ، وقسمونا الى قطع وشرائح صغيرة ، وجاءت الآلات بعلب السردين الفارغة ووضعوا فى كل منها جزءا صغيرا منا .. أنزلت العلب فوق سير جلدى طويل ، حيث سكبت آلة بعض الزيت والصلصة فى كل علبة .. ثم سرنا ثانية الى أن أغلقوا العلب علينا ، ولصقت الفتيات الورق باسم الشركة وبنوع السمك .

- يا سيدى بالأمس أخذت عينة من بشرة وجهى ووضعتها تحت الميكروسوب ولما نظرت رأيت بها آلاف التجاعيد الغائرة ..

فصلى ظنى واستنتجت أن عمرى تعدى المائة .. والمعلم
يا سيدى لا يكذب ..

فطردنى عن مَنته - وعلى الفور ففزت من فوق السرير
وقالت أمى : « نام يا حبيبى نام » ولما أكملت « لأذبح لك جوزين
حمام » بكيت ..

صدرونا أنا والسمة بالزيت والصاصة فى مئات العاب الى
أماكن مختلفة والى عدد من المدن المتباعدة .. وذات يوم استرانى
رجل بعين جاحظة ، فتح العلبة وسكبنا فى طبق وعصر علينا
ليمونا ونثر بعض الملح والفلفل ، ولما تذوفنا استطعمنا وقال
لزوجه :

— هذا نوع ممتاز جدا لذيذ جدا .

ذاقت الزوجة ووافقته وقالت :

— ان صناعة السردين تقدمت جدا .

الفشاء

« مبروك » ، لم يتمكن من حضور الحفل ، أرسل برقية ،
« زواج سعيد .. » ، هو الآن في خيمته أو في طلعة استكشافية .
« تخوننى وتتزوج .. » ، في العراء خلف سلاحه ، « بالرفاء
والبنين .. » ، أو لعله يتذكر شقاوتنا أيام زمان .. « من
صديقك صفوت .. العازب الأخير في الشلة » .

أبيض - فستانها - طويل . أصابع قدميها تبدو من تحته
مطلية الأظافر بلون الورد ، الأصبع الفليضة دائبة الضغط على
الطويلة . داخل حذائي يحدث نفس الشيء - قلق للذيد ممتع -
ومن الطبيعى الا نطل جالسين هكذا على حافة السرير ،
طفنا بعدة محلات حتى وقع اختيارها عليه ، وقالت : « بسيط
واقصادي » .. فنقر أبى بعصاه وقال : « فاكرا يا ولد سرير
أمك المزخرف بالرسوم الجميلة ؟ » .

أمسكت بكفها فى كفى ..

في الصباح جاءت أمها وفرشت هذه الملاءة الزرقاء منقوشة
حوافيها بالورود ، وغطتها بملاءة أصفر منها بيضاء ، ولما سألتها
عن السبب حملقت في مكر ، وداعبتني بضحكة عالية ، قالت
بعدها :

- ابنتي ليس عندي أعز منها . عاملها يرفق ..
- ثم طبطبت على الوسادة وفردت غطاءها وقالت :
- ان تملكها الخجل وسيطر ، انتظر عليها الى ليلة اخرى.
- الانتظار صعب ..
- وصعب عليها ايضا !

أطراف الأصابع باردة ، لكن كفها صغيرة وناعمة .. أما عن
صديقي « أحمد » فقد كنا نداعبه باسم « الذئب » لكثرة مفامراته
مع النساء ، لكنه لما تزوج لم يضاجع زوجته الا في الليلة
الخامسة ، وقال : « في كل ليلة من اربعة الليالي الاوليات كانت
تبدو سهلة المنال ، ويخيب أملى » ، ثم قال في عجب :

- النساء انواع !

همست لها :

- يدك باردة ..

- ويدك أيضا فيها رعشة خفيفة ..

عاد صمت الكلام .. الا أن « عزت » - صديقي الخام
قليل الخبرة - نجح في الدقيقة السادسة والخمسين - هكذا
أقسم - فرفعنا عنه صفة « الخام » .. وقال في زهو :

- الرجال انواع ..

ومنذ دقائق جاءت بنا السيارة المزدانة بالورود ، ودخلنا الشقة ، وحرصت على أن أغلق الباب خلفي بالزلاج .

سمعت أنفاسها ، وعندما تحركت سمعت حفيف ثيابها .
قمت وخلعت الجاكete والقيتها على المقعد - كانت تراقبني في المرأة - قالت :

- توجد شماعة في الدولاب . ضع الجاكete داخله .
ضحكت وعدت أجلس لصقها . حلت مشبكي الطرحة والقيت بها على حافة السرير - ما زالت تراقبني في المرأة .
لم تتكلم - بدأت أفك أزرار ثوبها :
- كان الحفل مبهجا .

هزت رأسها . فككت الزرار الثاني . بدأت المس ظهرها من أسفل العنق . أحسست بسخونة جسدها ، تأملت لونه القمحي . رأيت طرف القميص الأحمر ومن أسفل مشبك السويتان الأسود الرقيق ، فككت الزرار الثالث :
- هل تعرفين عدد الزراير في ظهر ردائك ؟

ضغطت على موضع كل زرار أفكه - دغدغتها الضغطات فرفعت كتفيها لأعلى - رأيت في جسدها مسام دقيقة وجذور شعيرات لم تنبت ، وعددت فقرتين من سلسلة ظهرها ..
اجابت :

- خمسة زراير .. ستة .. ربما خمسة ..
أحست يدي بصوتها يخرج . ألصقت أذني فوق ظهرها فلمست نعومته وسمعت أبي يقول ونحن نهبط : « أحسنت

الاختيار ، لكنها نحيفة . كانت أمك تتهادى في مشيتها كالبطة ،
موتلة وبضة) - لسعتها برودة أذن ، ارتجفت وهبت واقفة -
لكنه عند العشاء مال على أذن : « هل تأكدت من أن شعرها
طبيعى ؟ » . . استرجعت رائحة عطرها ونظرت له دهشا ،
فقال بلهجة خيرة : « يجب أن تكون حريصا ، الموضة هذه
الأيام هى تزييف شعر الرأس » . . أقسمت له أن شعرها طبيعى ،
كذلك أسنانها ، وعلى اننى تأكدت من أن صدرها غير مزيف . .
فسقطت اللعقة من يده وحملق مدعورا .

تألمتها ميتسما . سمعت صوت المياه فى المواسير ، وصوت
محرك ومواء قطه وهدير آلات فى الخارج . نظرت الى النافذة
وتأكدت أن زجاجها مفلق فى احكام .

بهرتنى حمرة الخدين وهمسة الشفتين وهى تقدم لى
البيجامة الجديدة المعطرة :

- اخترتها بنفسى ، أعرف لونك المفضل .

احتضنتها ومددت كفى تحت ثوبها فدفعتنى عنها فى خفة ،
لم أصر : ارتديت البيجامة ، وأضجعت فوق السرير ، وقلت لها :
- بينما تفرين ملابسك سأبحث فى الراديو عن موسيقى
مناسبة .

أدبرت المؤشر الى موسيقى خفيفة ، ثم أخذت أراقبها :
خلعت ثوبها ، فكت شعرها فانساب كالحرير ، خجلت وقالت :
- ابعد عينيك عنى .

أغمضت عينى : فجاء أبى وجلس قبالتى ونقر بعصاه فوق
الأرض نقرات رتيبة ، وابتسم فى حسرة : « كان السمن البلدى

رخيما واللحوم متوفرة وأربعة الأربعة بقرش صاغ ، فجاءت
أمك سمينة في غير ترهل ، وكان ثلاثة رجال يتنافسون على الفوز
بها » .

فتحت عيني . قالت :

ابعد عينيك عني ..

سحبت الفطياء فوق وجهي وتركنت ثغرة لا تسمح
الا لرؤيتها ، لاحظت هي ذلك فابتسمت ولم تتكلم .. (وكانت
هي التي حسمت موعد قدوم أول وليد . قالت نؤجل الخلفة
عدة سنوات ، فوافقتها بهدوء شديد) . هزت رأسها لتطيح
الشعر الى ظهرها ، وقفت حائرة للحظات ، وضعت اصبعها في
فمها ، زادت حلاوتها في عيني .. (وقالت لها : ما أرخص حبوب
منع الحمل .. ولم قنتائني السعادة لحظتها ولم تستول على
الكأبة) . سمعت صوت طائرة يقترب فاهتز زجاج النافذة ،
وطرقت اذني اصوات غريبة لم أستطع تمييزها ، تمنيت لو كان
المنزل قد صنع من مادة عازلة للصوت تماما .

انتهت من تغيير ملابسها ، وتشاغلتي بضبط وضع المقعد ،
وبمسح غبارة وهمية عالقة بالمرآة ، سارت متباطئة صوب
السريـر ، كدت اهتف : « أحلى من القمر » . فصرخ احد رجال
الفضاء من سفينته وهو يقترب من القمر : « يا لحماقة
الشعراء .. ان القمر كوكب مخيف ملي بالصخور
والبراكين !! » .

سكتت الموسيقى في الراديو - ثم هتفت : « أرى أن الأرض
صغيرة ، كرة صغيرة جدا .. لكنني أريد العودة اليها سريعا » .

قال المذيع :

— سيدياتي ...

قلت له : ليس بعد ..

قال المذيع :

— اليكم الآن النشرة

أخبرته ، وبحثت عن موسيقى في مكان آخر — تهادت في قميصها الحريري صاعدة فوق السرير — سألتها :

— سعيدة انت ؟؟

— نعم .. وانت ؟؟

— لابد ان يكون كذلك .

لثمت وجنتها ، مررت بأصبعي في خفة حول شفتيها ، هبطت الى الذقن الى الصدر ما بين النهدين — لم تتحرك ، كنت متلهفا جدا (قال صاحبي ان الرجال انواع) ، الا انها ابعدت اصابعي ونهرتني في دلال :

— لا تكن عجولا ..

قلدت بأصبعها لازمة أبي وحاكته قائلة :

— حتى لا تزبد من سرعة دوران الأرض ..

يومها القى أبي بالجريدة في سخط وقال :

— ها هي سرعة دوران الأرض حول نفسها قد زادت بمقدار جزء من مائة ألف من الثانية !! ..

ضحكت فنهرني في صرامة :

- ذلك لأن حياتكم فوق سطح الأرض حياة لاهثة !! ..

التقط أنفاسه وهددنى بأصبعه :

- ولكثرة المتفجرات التى اخترعتموها !!

قلت فى براءة شديدة :

- أنا لم اخترع شيئاً (وقرأت بعد ذلك أنها استردت
سرعتها ثانية) . فرفع عصاه ثم خفضها ، وسخر فى تقرير
حاسم :

- انتم جصيل مهزوز يستمد شخصيته من الإذاعة
والتليفزيون والصحف الموجهة والإعلانات !!

مدت يدها نحوى وهزتنى فى لطف ، كانت تبتسم لى . زدت
من التصاقى بها . سألتها ان كانت سعيدة ؟؟ فقالت اننى
سألتها هذا السؤال منذ لحظات .

ملت فوقها واحتضنتها فى شدة ، قبلتها فى أذنيها وأسفلهما ،
فى عنقها فى كل مكان ، فى جبهتها ، وهى مستسلمة ، تغمض
عينها ثم ترمقنى فى لهفة واستطلاع ثم تبعدهما عنى فى حياء ،
تتفرس فى السقف أو فى شعرى أو أذننى ، الى أى مكان ما عدا
أن تلتقى عيناها بعينى .

ارتفعت برأسى متأملاً وجهها المليح : رقت ابتسامتها ، عذب
الاحمرار فى مقدمة أنفها . احتويت نديها الأيسر النابض بقلبها
فى كفى اليمين ، ضغطت عليه بنعومة فى حركة نصف دائرية
ذاهبة آتية ، رحت أسعد بقبلة ، وبدأت الحياة من حولنا تتلاشى
وتغيب فى ضباب وردى ، وتضيق لتصبح ذلك الحيز الضيق

الذى يحوى جسدها وجسدى الملتصقين ، واللذين آن لهما أن
يتمزجا فى تركيبة واحدة ، وران صمت قدسى الا من انفاسها
وانفاسى وموسيقى حاملة تاه مصدرها .. ثم شيئا فشيئا بدأت
أتنبه الى صوت رجل يتحدث معى فى الحجرة بجوار السرير ،
والباب مغلق والنافذة كذلك ، فبدأ الضباب الوردى يتلاشى ،
وأخذت أميز الكلمات التى اقتحمت أذنى ، وكانت الموسيقى
فى الراديو قد كفت - وصوت المذيع يتحدث عن غارة عنيفة
وهن مئات الأطنان من المتفجرات : « كما يقدر عدد الضحايا
بالعشرات ما بين قتيل وجريح » ..

رفعت كفى ، مددت يدى لأسكت هذا الأخرق ، سقط على
الأرض ، بعشرات القتلى ، ارتبكت شفتاى فوق شفتيها - رمتنى
بنظرة متسائلة - ما بين قتيل وجريح ..

مطارحة غرامية

— لماذا تظن أن طولك ينقص ؟ !

فتحت زوجتى الباب . اندفعت داخلا ، لاهثا مجهدا
مدعورا ، وطلبت منها أن تحضر المقياس المترى بسرعة .

أخذت أقيس طولى ، ثم خلعت حذائى حتى أسجل الطول
بكل دقة . اندهشت زوجتى .

وفى الصباح لم تخف استنكارها وسألتنى :

— ألا يوجد غيرك يقوم بهذه المهمة ؟

وطمأننتها الى أنى سأعود قبل حلول الظلام .

عادت دهشة زوجتى تسألنى :

— لماذا تقيس طولك بكل هذه الدقة ؟

فأجبتهما :

— لأعرف هل نقص عما كان عليه في الصباح أم لا !

وقسته حتى أقرب مليمتر ، ثم وجدت نفسى فى مشكلة عويصة : فلم أكن أعرف كم كان طولى فى الصباح ، لم أكن قد سجلته ! .. سألت زوجتى ان كانت تعرفه فأنكرت . فتحت بطاقتى الشخصية وبحثت ان كان طولى السابق مسجلا بها ، فلم أجد !

وعندئذ سألتنى ثانية :

— لماذا تظن ان طولك ينقص ؟ !

لم أجب ، وانغمست بكل طاقتى فى تفكير طويل ، حتى نهتني وقالت ان : « الحمام جاهز » . ثم ضحكت ضحكة أعرفها جيدا ، فالليلة ليلة نهاية الأسبوع ، وهى تتوقع ان اطارحها الغرام ، من الصباح وهى تلمح بهذا الانتظار .

نظرت الى وجهها : العينان تتغامزان بسرعة داخل المقلتين ، أعرف معنى ذلك ، الدم منحسر عن كل الوجه متركز قان فى الخدين ، الشعر مهدل من اثر الاستحمام ، لكن فيه فوضى جذابة محببة .

قالت نظرتها وهى تضغط كفها على كفى : « الليلة تطارحنى الغرام » .

رحبت بالحمام ، على ان أغسل قدارة النهار كله تحت مياه الدش اللذيذة . غير انى من أول لحظة خامرنى احساس غريب : « احترس من هذه المياه ! » .. شعرت انها مياه غير عادية ، تفرست فى اللون ، كان رائقا كالمعتاد . تذوقت الطعم ، كان العلب المألوف ، لكن الاحساس الغريب استولى على تماما .

قلت ان ذلك من فعل الشمس ، فبعد ان أنهيت مهمتى قررت التوجه لالقاء نظرة على الجانب الآخر ، فرأيت إحداهم يقف هناك فى هذا الجانب الآخر ، قبيح المنظر لامع العينين . نظر الى من ابتسامة كريهة ، لم أكن أعرف اسمه بالتحديد ، ولا أذكر انى رأيته من قبل ، ومع ذلك شعرت بآلاف الوخزات فى كل جسدى ، وكانت الشمس قد توسطت السماء تماما ، مرسلة اشعتها فى آلاف من الابر الملتهبة ، واصبح جسدى غربالا من نقط « حمراء - زرقاء » .

انهالت المياه الباردة بشدة وعنف فى رذاذ قوى ثقيل فوق راسى ، قلت لعلها تطهر جسدى من قدارة النهار ، لكنها تبدو وكأنها ليست مياه كل يوم ! وهمست لنفسى : « يجب ان أحل هذه المياه ، يجب ان آخذ عينة منها فى قنينة وأذهب بها الى معمل التحليل الكيميائى ، فالأمر هام وخطير : هل هذه المياه تتكون من الأكسجين والهيدروجين بنسبة واحد الى اثنين كباقي المياه أم لا ؟ !

فتحت الدش عن آخره ، فرأيت شعر زوجتى المهدل من اثر الاستحمام ، وكان فى فوضى جذابة محببة ، وعندما ضغطت بكفها على كفى توابت، عيناها قائلة : « الليلة تطارحنى الغرام » .

دعكت وجهى بشدة ، ودعكت صدغى وقفأى بالصابون .. فقد نظر الى من الجانب الآخر بعينين متبلدتين فيهما غرابة ، ثم فتح فمه : اما ليضحك أو ليصفر أو ليتشعب - لم أستطع التاكيد - ولكننى عندما شعرت برأسى غارق فى شئ ما كربه الرائحة قلت : « انما فتح فمه ليبصق » . وعجبت من هذه البصقة التى طارت غزيرة ، فشعرت باشمئزاز منه ومن راسى ، وتمنيت لو قتلته أو غيرت هذا الرأس ، الا أنه عاجلنى ومد

يده فطالت وضربني بها على صدغي ، فقلت : فور عودتي الى الدار لابد ان اغسل رأسي جيدا ، وفكرت ان كان بالمنزل صابون يكفي لذلك ، ثم قررت ان اشترى صابونة من البقال المجاور لمنزلي وذلك من باب الاحتياط .

أردت ان افتح الدش حتى آخره ، فاكشفت انني فعلت ذلك . وكلمنا امتدت بدى لتنظيف جزء من جسدى عادت لتدعك رأسي وصدغي ، وقلت : « اكيد ان هذه المياه ليست عادية ! » .

طرقت زوجتي باب الحمام تستعجلني في الخروج ، وكان صوتها رقيقا مرتعشا .. وقبل خروجي في الصباح ، وعندما فتحت لها سداة - عجزت هي عن فتحها - نظرت الى في اعجاب ، وطلبت مني ان أعود من مهمتي بأسرع ما يمكن ، ثم قبلتني ووششت في أذني بعدة كلمات ، فانتشيت ، وظللت منتشبا حتى رأيته ينظر الى من الجانب الآخر ، وحتى حولتني ابر الشمس الى غربال من نقط « حمراء - زرقاء » .. فتسربت مني النشوة .

ذابت الصابونة ، فناديت على زوجتي وسألتها ان كان لدينا صابونة أخرى ؟ فأتكرت ذلك وقالت انه كان على ان اشترى صابونة أخرى وانا عائد الى المنزل . لكنني لم أنس ذلك : فبعد ان اشتريت الصابونة وسرت في الطريق قاصدا منزلي ، وانا مازلت في غاية القرف ، لاحظت ان عربة سوداء كبيرة من عربات نقل الموتى تتبعني !! .. دهشت وسألت نفسي :

« كيف تتبعني عربة سوداء كبيرة لنقل الموتى وانا لم أمت بعد ؟ ! » .

وهممت بأن أسأل أحد المارة ان كنت حيا أو ميتا ! ..
لكن العربة سارعت وحاذتني ، وهبط منها عدد من الرجال في
ملابس الحداد وفي وجوه شاحبة بيضاء كوجوه الموتى ، وكل
واحد منهم ممسك في يده بمطرقة كبيرة ضخمة سوداء . أوقفوني
والتفوا حولى في دائرة سوداء ، ثم انهالوا فوق رأسى طرقا
وضربا !!

وكنت متأكدا من صلابة رأسى ، وكنت أعرف أنه لن
يتهمس مهما كانت ضرباتهم قوية . فوقفت ساكنا . نظرت الى
عيونهم : كانت تبثلق بلا أدنى انفعال ! . فكرت ان أصرخ فيهم
لكنى لاحظت ان آذانهم مسدودة بالطين ! .. ثم أيقنت للحظة
عابرة انهم أصنام تتحرك أبديهم بالمطارق الهابطة فوق رأسى
في عنف وقوة ، وفي اتجاه عمودى !

قلت لنفسى : « لو استمر ذلك طويلا لنقص طولى عدة
سنتيمترات وزاد عرضى عدة سنتيمترات ، وبذلك ينبعج شكلى
واترهل ! » .. وصممت على ان أتأكد من ذلك فور عودتى الى
المنزل .. فاندعشت زوجتى وسألتنى :

— لماذا تظن ان طولك ينقص ؟ !

وكان الأمر جد خطير : فلو انضفطت وقصر طولى عن طول
زوجتى ، فان ذلك قد يؤدى الى التوتر والنفور فى علاقتنا
الزوجية — وأنا حريص على دوام هذه العلاقة ، وأعرف انه
عندما يرتعش صوتها وينحسر الدم من كل وجهها ليتركز في
الخددين فهذا يعنى أنها تريدنى ان أطارحها الفرام — ولم يكن
يعجبني ان ينبعج شكلى ، وأصبح كما لو كنت خيالا في مرآة غير
مستوية .

وفي المنزل فتشت عن الصابونة في جيبى فلم أجدها !

أغلقت الدش . أمسكت بالملابس لأرندتها .. وصعقت :
هذه ليست ملابسى ، كان حجمها أكبر من جسدى ، تفحصتها
جيذا ، وكانت تشبه ملابسى الى حد المطابقة !!

نظرت فى المرأة .. ذعرت ، وصرخت فى زوجتى ان كانت
قد غيرت المرأة القديمة المستوية بأخرى محدبة ، فأنكرت ذلك !

جلست أفكر : « اذن لماذا أرى صورتى منعكسة صغيرة
ضئيلة فى حجم عقلة الصباغ ؟ ! » .

وتأكدت ان الصورة المنعكسة فى المرأة صورة صادقة !! .
نظرت الى الدش : ليست مياهه عادية اذن ، من المؤكد ذلك :
لا يمكن ان تكون مركبة من الأكسجين والهيدروجين !!

ودقت زوجتى الباب تستعجلنى .. لكننى عدت أفكر فى
هذا المحلول الغريب الذى تساقط فوق رأسى فى رذاذ يشبه
الماء وكنت تحته كقطعة سكر او كتلة ملح !! .. همست زوجتى
تدعونى الى الخروج .. وتذكرت انها فى الصباح - بعد ان
قبلتنى - وشوشت فى أذنى بأنها تريد ولدا ، وكانت تظن ان ذلك
يسعدنى فانتشيت .. لكننى عندما تحولت الى غربال تسربت
منى هذه النشوة ، وسألت نفسى : « كيف تسرب هذا المحلول
المذيب الى ماسورة الدش ؟ ! » .

صمت على عدم الخروج من الحمام الا بعد معرفة
الجواب .. غير انى خرجت تحت الحاح زوجتى وطرقاتها

المتابعة . وتوقعت أن تدعز وتصرخ وتلم الجيران وهى ترى أن رجلها قد ذاب حتى أصبح عقلة صباع ..

وادهشنى حقا انها لم تدهش !! . سألتها ان كانت تعرفنى .. فضحكت الضحكة التى أعرفها جيدا ومدت يدها تداعب شعر صدرى ، فسألتها :

— الا ترين امامك غربالا فى حجم عقلة الصباع ؟ !

زادت ضحكتها ونظرت الى فى اعجاب كما فعلت فى الصباح !
ثم مالت على اذنى ووشوشت محددة اسم الولد الذى تريده ..
لكننى هذه المرة لم أنتش .

سحبتنى من يدى فى خفة الى غرفة النوم ، وأجلستنى فوق السرير ، وعندما مدت يدها لتخفض من اضاءة الحجرة تحسست رأسى وصدغى وكل جسدى .. الا انها صعدت السرير وانتظرت منى أن أطارحها الغرام .

أزمة

– بالأمس شعرت بأننى يجب أن أروح عن نفسى فذهبت
الى المقهى وجلست على الرصيف وأخذت أراقب السائرين .

– جميل .

– ولفتت نظرى سيدة عجوز تجر خلفها كلبا من نوع
« الـوولف » احدى سيقانه مبتورة لكنه رغم ذلك كان يبدو فتبا
قويا وهو يسير على ثلاث أرجل فقط .
عجيبة !

– لكننى اكتشفت انه كلما سار عدة خطوات وقف بضعة
لحظات ليستریح وـليـلتقط أنفاسه ..

– كنت مخطئا اذن ؟؟

– وبعد ذلك لعبت الطاولة مع صديق لى .

– والنتيجة ؟؟

- تعادل : أربعة أدوار لأربعة أدوار .
- خير من الهزيمة .
- طبعا واثناء اللعب توقف صديقى وأشار مبهورا الى الرصيف .. نظرت فرايت جسدا رائعا لامرأة هيفاء .
- طول عمرك ذواقة .
- الا ان صديقى قال انما عيناها هما الباهرتان ، فمددت يدي الى جيبى واخرجت منظاري الطبى وثبته على عيني ، ولما قويت الرؤية كانت المرأة قد عبرتنا فرأيتها من الخلف وشاهدت مؤخرتها بدلا من عينيها فأسفت لذلك .
- غيرك كان يسعد بذلك .
- ثم تذكرت زوجتى ، فأنت تعرف اننى منذ عدة أعوام كنت قد بلغت الثانية والثلاثين من عمري ، وكان على أن أتزوج ففعلتها .
- أعانك الله يا شيخ ، وأعاننى !
- فى البداية كنت أضاجع زوجتى مرتين كل ليلة ، أما الآن فانها لا تثيرنى كأننى على الاطلاق ، عدا لحظات القىظ الشديد عندما أشم رائحة عرقها فأمططها ، أما فى الأحوال العادية فأنا أتجنبها دائما .
- دائما؟؟
- غالبا ، وقد لاحظت أن جارى يفعل مع زوجته نفس الشيء ، فاندعشت لأن زوجته جميلة ومثيرة ولطالما اشتيتها .
- ولكن ما علينا ، خبرنى عن الجديد فى الجريدة .

— ككل يوم ، تصريحات ، قلق فى الأمم المتحدة ، توتر ،
تكوين لجان ، نقليات جوية ، وأخبار عن الأزمة ..

— أبة أزمة فيهم ؟؟

— أزمة المواصلات .

— فكرتنى .. فصباح اليوم ، وككل يوم ، لما ايقظتنى
زوجتى شعرت بصداع شديد وبأن الرؤية أمامى غير واضحة ،
وتمخبط مخاطا غريزا كان يسد بلعومى .. ثم ارتديت ملابسى
وذهبت الى محطة الأتوبيس ، وكان الصداع مازال يزعجنى ،
ووجدت الكثيرين غيرى عيونهم نصف مغمضة تكالبوا على ركوب
الأتوبيس ، فنسيت صداعى وكافحت معهم وضدهم ، لكننى
فشلت ، ولازمنى هذا الفشل لعدة أتوبيسات .. وأخيرا ..
عدما وصلت هنا الى الديوان كنت مجهدا ولعلك لاحظت ذلك .

— طبعا .

— فقد كان صوتى خافتا تماما عندما قلت لك صباح الخير .

— فعلا فعلا .

— وصوتك أيضا كان خافتا عندما رددت بصباح النور .

— صحيح .. صحيح .. وبالأمس رأيت مثلك سيدة عجوز
تسحب خلفها كلبا .

— « وواف » بثلاثة أرجل ؟

— بل كلب « لولو » مقطوع الذيل ..

مائة مليون نحلة في الرأس

ذهبت الى مبنى المجمع العالى ، وقفت فى الصالة المستديرة فى انتظار المصعد . نظرت الى أعلى : كانت الطوابق ترتفع فوقى على شكل دوائر ، بئر مرتفعة لأعلى ، دائرة فوق دائرة فوق دائرة ، أردت أن أعرف عددها بالضبط فلم أقدر ، ربما خمسة عشر أو عشرون طابقا . لكن الذى حيرنى أن هذه الدوائر كانت كلما ارتفعت ضاقت وصغرت حتى كادت أن تصبح عند الطابق الأعلى سمكة !!

ركبت المصعد حتى الطابق الأخير ، خرجت منه لأجد شرفة مستديرة (ولم تكن نقطة سمكة !) . نظرت منها الى أسفل ، وكانت بئر السلم تحتى هذه المرة . وشعرت بالحيرة : كانت الدوائر (بعكس المرة السابقة) تصغر كلما انخفضت ، حتى أن الدائرة الأرضية أصبحت نقطة عريضة !! . قلت لنفسى : « هذا غش ، لابد من التأكد ، ولن الدغ مرتين » . أخرجت المقياس

من جيبي وقست قطر الدائرة في الطابق العلوى وكان طوله عشرة أمتار . وخمنت أن قطر الدائرة عند الأرض لابد أن يكون مترا واحدا على الأكثر (فيكون مبنى المجمع الحكومى هو أعجوبة الأعاجيب : القاعدة ضيقة والتممة مفرطحة ! .. ويكون مهندس المجمع الحكومى قد صنع ما لم يستطعه سالفه مهندس الهرم الأكبر !) .

شعرت بالأسى ، جلست على حافة الشرفة ، كان حولى ناس كثيرون ، نظروا الى ، وساروا كل الى حجرته ، لم يسألنى أحدهم لماذا اجلس على سور شرفة في الطابق العشرين (أو ربما كان الطابق الثامن عشر) !

صممت على التأكد من طول قطر الدائرة السفلى . ركبت المصعد وهبطت . وعند الأرض مددت يدي لأخرج المقياس من جيبي ، لكنى لم أعثر عليه ، كيف ذلك ؟ ! .. وتذكرت أن راكبى المصعد احتكوا بى وأنا غارق فى التفكير ، ولابد أن أحدهم سرق مقياسى .

لم أقس البعد المطلوب . حزنت وخرجت الى الميدان يائسا . كان الصيف حارا (لم يخدعنى مدرس الجغرافيا عندما قال ان مصر مناخها : حار جاف صيفا ، دافئ ممطر شتاء) . أردت عبور الطريق ، ولكن لفت نظرى أمر غريب آخر .

فى وسط الطريق بالضبط (قد لا يكون بالضبط) كان فوق الأسفلت روث بهيمة !! يا للعجب !! غير معقول !!
اندفعت الى رجل المرور ، أخبرته بما رايت فلم يصدقنى،
أخذه الى وسط الشارع وقلت له :

— ها هو روث البهيمة ، وهكذا ترى اننى لم اخذك .
قال فى تعجب (وكان تصجبه رسميا لانه كان مازال فى ملابس
العمل) :

— أين ؟؟

ها هو امامك .

— اننى لا ارى الا الأسفلت ، ولأننى شرطى فانا افهم فى
ذلك خير منك .

سألته ان كان (مع عدم المؤاخذه) ضعيف النظر . فقال
فى هدوء :

— نظرى سليم ، وأستطيع ان اقرأ رقم السيارة التى
تسير هناك فى نهاية الميدان وأحرر لها مخالفة .

وليؤكد لى قوله كتب رقما فى دفتر المخالفات (ولم اكن
وقتها فى حالة تسمح لى بالتأكد ان كان الرقم صحيحا أم انه
وضع رقما عشوائيا) .

ثم شرح لى أن البهائم (وقد أسماها : البطيء) ممنوع
مرورها من هنا .

أخذنى الى نهاية الشارع ، وكانت هناك لافتة مكتوب
عليها : « ممنوع مرور البطيء » .

ثم سار حتى الطرف الآخر للشارع فرأيت لافتة مكتوب
عليها أيضا : « ممنوع مرور البطيء » . وعندئذ نظر الى معاتبها :

— من الطرفين ممنوع مرور البهائم ، فمن أين اذن جاء
الروث فى وسط الطريق ؟ !

ثم سألتني ان كان من الممكن وجود بهيمة بجناح طائر ؟ ! ..
ففكرت قليلا ، وترددت ، ولم أرد على هذا السؤال . فقال
ساخرا :

— أم ان ذلك روث عصفورة او حداة ؟ !

وحتى هذا السؤال ترددت في الاجابة عنه ، ولم اقل نعم
او لا (على الانسان أن يكون حريصا في هذه الأيام) . عدت الى
وسط الطريق فرايت روث البهيمة مازال موجودا .

تجمع الناس ، اطالوا النظر الى الأرض ، تلفتوا في كل
اتجاه ، وفكروا طويلا ، لكنهم بعد برهة هتفوا (وكانت نظراتهم
جميعا مركزة على الروث) :

— حقا انه موجود ، يستطيع الأعمى ان يراه !

وبعد برهة أخرى قالوا (جميعهم أيضا) وفي حلق :

— كلا غير موجود ، ولا يوجد الا اسفلت الطريق !

وبعد برهة ثالثة تركتهم وهم يمعنون في تدقيق النظر
ولا يستطيعون الثبات على رؤية معينة .

جلست في وسط الميدان الكبير ، وقلت : « ان هناك شيئا
غامضا ، هناك سؤال يحتاج الى جواب » . وكانت الشمس
ساخنة ملتهبة . وتعبت : « ألا من حل او جواب » ؟ !

نصحت نفسي « انس التفكير ، لا تفكر » .. ثم وبخت
نفسي : « لا تقف هكذا — أو ربما قلت لا تجلس هكذا — اشغل
نفسك بشيء ، فكر في أمر آخر » . وفكرت : « فندق عمر الخيام

لصاحبه عمر الخيام ، خطبا ، فندق عمر الخيام ليس صاحبه
عمر الخيام ؟ » . عذبنى ذلك فكففت عنه وسرت .

عند شريط السكة الحديدية استوقفت رجلا وسألته :

— من أية جهة سيأتى القطار السريع ومتى ؟

أشار الى الجهة وقال : « بعد ثلاث دقائق » شكرته ،
وجلست فوق أحد القضيبين (لم يكن بمقدورى أن أجلس على
القضيبين معا) نظر الى الرجل ولم يسألنى عن سر جلوسى هكذا
أو عن سر اهتمامى بموعد وصول القطار السريع واتجاهه ،
ومضى فى طريقه . (وقد تنبّهت الى أن أنفه كبير) .

نظرت الى حيث سيأتى القطار : القضيبان يلمعان تحت
أشعة الشمس لمعة سيف . ولفت نظرى أمر غريب : فهما يلتقيان
على بعد حوالى ثلاثة كيلو مترات (!!) .. ضاقت المسافة
بينهما شيئا فشيئا حتى التقيا هناك .

(خدعونى فى المدرسة وأنا صغير ، ففى كتاب المطالعة قرأت
أن القطار يسير على شريطين متوازيين ، وقال مدرس الحساب
أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان أبدا مهما امتدا) .. لكنهما
هنا التقيا على مرمى الشوف !!

حزنت : فما دام الشريطان قد التقيا هناك فى نقطة واحدة،
فكيف سيأتى القطار من هذا الاتجاه ؟ ! . نهضت وأنا أشعر
بخيبة أمل . سرت مهموما .. وبعد أن ابتعدت سمعت صوت
القطار يعبر (لم أتعب نفسى بالنظر وقلت أن ذلك من فعل
الوهم) .

عدت ثانية الى الميدان ، ذهبت الى وسط الشارع . رأيت
ان روث البهيمة مازال موجودا وبكمية اكبر ، وخيل الى انه
حديث !!

احسست بالعرق يغمرنى (قال مدرس الجغرافيا ان
الشمس تكون اقرب ما يمكن من الأرض في فصل الصيف) .
وخطرت لى فكرة رائعة (ربما تكون غريبة) . . فقامت واحضرت
كوبا كبيرا ، اخذت اجمع عرقى فيه ، ولدهشتى امتلا الكوب
حتى آخره وكان مازال هناك عرق فوق جسدى . قلت لأذق
طعمه ، اخذت رشفة ، كان مالح الطعم !! وفكرت طويلا حتى
تذكرت ان ماء البحر أيضا مالح (وان مدرس الجغرافيا قال ان
البحار تشغل مساحة قدر اليابسة عدة مرات لا أذكرها
بالضبط) . رفعت عيني الى قرص الشمس الملتهب ، أعشت
عيني فأغمضتها !

ركعت ، ويبدو اننى فعلت ذلك بقصد الصلاة والتضرع
الى الشمس ان تكون رحيمة بى ، وأن تنادى على سحابة ما من
أى مكان فى السماء وتختفى خلفها (ولو من حين لآخر حتى
يعمل فكرى فى صفاء .

غير انى فتحت عيني (لأننى سبق أن أغمضتها) على شيء
غريب حقا : زوج أحذية أسود ضخمة كان يسير . أخرجت
منظارى وتفرست فيه فزاد عجبى ، وإذا بهذا الشيء تخرج منه
ساقان قصيرتان فوقهما انسان فى حجم عقلة الأصبع ، نظر الى
فى استغراب !

وقال : لماذا أنت فى استغراب هكذا ؟ وأنا واحد أسير
فى خطوات منتظمة ككل الناس !

سألته :

— ليست ضالة حجمك التى تدهشنى ، ولكن حذاءك ،
أذلك هو الحذاء ذو سبع الخطوات ؟ !

— وماذا يكون ؟

— انه حذاء الخطوة منه بسبع من خطواتى ، يصل بك
الى غايتك فى سبع الوقت العادى .

— ذلك فى الأساطير ، ولكن هذا الحذاء لا يناسبنى .

قلت غاضبا :

— قد تكون أنت الذى لا يناسب الحذاء

وضعت المنظار فى جيبى فلم أجد أرى الا الحذاء ، لذلك
لم أسمع بقية كلامه ، وسار بخطوات منتظمة .

كان الميدان مليئا بالحركة ، والبسات فى ملابس زاهية ،
وبعض الرجال يتحادثون بأصوات غير مسموعة ! والغموض يلف
المشكلة (فكلما بحثت عن أصلها تشعبت منى الأمور وتعقدت) .
وعندما نظرت للجالس الى جوارى — ويبدو أنه كان يبتسم —
تنبّهت الى أنفه الكبير ، فقلت متذكرا :

— الست أنت الذى قابلته عند شريط السكة الحديدية ؟ !

— جائز .

— لكن أنفك الآن أكبر من المرة السابقة !!

— اذن فلا بد أن أنفى يكبر ، ولا بد أن هذا يدهشك .

داريت خوفا وذعرا . فكرت عدة ساعات وقلت بعد برهه :

— اتركنى الآن . أريد أن أصلى .

ابتسم ابتسامة كبيرة جدا (كان عرضها يقرب من المتر لأن
قمه كان فى هذا الاتساع) .. ثم تلفت حوله وقال :

— اين ؟؟ لآى اله ؟؟

— رع ، اله الشمس .

— كان ذلك منذ آلاف السنين ، الآن لم تعد الشمس الها .

كان صوته خافتا جدا (ذلك بسبب ضالة رؤيته) .. ثم
كشر وقال :

— لم تعد الشمس الها .

— ولكنها تحرقنى بلهيبها !!

— لم تعد الها !

— لكنها عالية ، شاهقة ، فوق من فوق القمة !

تركته وسرت (لا اذكر بالضبط ، فربما يكون هو الذى
تركنى وسار) .

وسرعان ما جاء المساء وكان باردا .

قلت اعود الآن الى وسط الطريق للبحث فى سر روث
البهيمه . لكن الظلام كان شديدا ، والأضواء كانت مطفأة
جميعها . كان ذلك من سوء طالعى . غير انى فكرت أن أستعين
بضوء النجوم ، فأخرجت منظارى ونظرت الى السماء باحثا عن
نجم مضى ، فوجدت واحدا ، فرحت به ، وكان يلمع ، وقلت
أبحث على ضوءه ، لولا ان الرجل ذا الأنف الكبير جاءنى فجأة
(يبدو انه كان يتتبع خطاى) .. وسألنى :

- الى أى شىء تنظر؟؟
- الى ذلك النجم .
- اى نجم؟؟
- ذلك الذى هناك . لا يوجد فى السماء غيره .
- ولكن ذلك ليس نجما !!
- ولكننى آراه !
- ليس نجما . فى هذا المكان كان هناك نجم ، ولكنه الآن لم يعد هناك .
- وفى برهة واحدة فكرت عدة ساعات ، وبانت الحيرة على وجهى ، فضحك ضحكة قصد أن تكون عالية ، ولكنها كانت خافتة (بسبب ضالة رئتيه) .. بالكاد سمعتها . أطرقت السمع وكان يقول :
- لبعد المسافة ، فحتى يصل الضوء اليك يكون النجم نفسه قد قطع آلاف الأميال .
- قلت حزينا (ولا أذكر أن كنت قد بكيت أم لا) :
- ما دام ذلك ليس نجما ، إذن فذلك ليس ضوءا ، وعلى أن أبحث عن مصدر جديد .
- اسألنى وأنا أساعدك .
- نظرت اليه ، خيل الى أنه سينفجر .
- اسألنى وأنا أساعدك .

أحسست بالخوف . تذكرت أمى . جريت إليها على الفور .
طلبت منها المصباح حتى أعود فأبحث عن ذلك السر ، ولأنها
تحببني أحضرته الى ، ونفضت عنه التراب ، ثم سعلت وتشاءبت
ونصحتنى بالنوم لأن الجو بارد .

هززت المصباح ، اكتشفت انه فارغ ليس به وقود !

- أين الزيت يا أمى ؟؟

- جف .

- منذ متى ؟؟

- من قديم .

- الا تذكرين بالضبط .

- لا أذكر يا ولدى ، دعنى أنم ، لماذا لا تنام ؟؟

سألتها ان كان قد جف منذ مائة يوم أو عدة سنوات ..
أو الف عام أو مليون !! لكنها كانت قد نامت . تأملتها فشعرت
بالعطف عليها (فهى أمى) .

أخذت المصباح ، لم يكن به زيت ، ولم يكن معى ثقاب ،
ولم أكن أملك حجرين أشعل منهما شرارة النار والنور ، رغم
ذلك ذهبت أبحث . كان الظلام دامسا . حركت المصباح
يمينا ويسارا . لم أكن أرى شيئا ، حلقة شديدة .

تذكرت الرجل الأنف . ولبرهة واحدة فكرت مليون ساعة،
غير انى أحسست بهم يقتربون منى . لم أكن أراهم ، ولكنى
كنت متأكدا (ولا أدري كيف) .. شعرت بهم يتهامسون .
تنفسهم المكتوم سمعته . أحسست به يطوق عنقى ويضغط على

العروق بها ، كان رطباً بارداً . دعرت : كيف يخرج التنفس بارداً
من داخلهم ؟ !

أقشعر بدني . ارتجفت . تهامسوا في خفوت ، وكان
عددهم كبيراً ، فتجمعت الهمسات وخرجت حفيفاً عالياً (أغلب
الظن أنه أصبح صاخباً ، وأنهم كانوا يقولون) :

— هذا مجنون آخر !

حكايات الزوايا

قصة في أربع حكايات منفصلة

الحكاية الأولى : الزاوية الواحدة :

يقف على باب المنزل ، لا تلتقط أذناه أية ذبذبات صوتية .

الصمت مطبق ، والسكون شامل .

يرسل بنظره الى الجانب الآخر ، في محطة الأتوبيس : عدد كبير من الناس ، دائما هذا العدد الكبير ، في أية ساعة من ساعات اليوم ، ينبتون في الصباح ، ويقتلون مع موعد آخر أتوبيس . وذلك الشاب الطويل ، لا يركب الا العربة التي تركبها تلك الفتاة ذات المعطف الرخيص الأزرق اللون ، لكنها اليوم تبدو مكتئبة ، وظلال من القلق في عينيها .

ينظر الى الطريق امامه الملىء بالحركة . صمت . يمد يده
يثبت السماعة فى اذنه .. يتحسس جهاز تقوية السمع الصغير
فى جيبه العلوى . يدير مفتاح الصوت . يبدأ يسمع ضجيج
الشارع : سيارات تزعق فراملها من حين لآخر ، وتنطلق منبهات
صوتها كل حين ، باعة سريحة ينادون على بضائعهم بكل ما ملكوا
من صوت عال ، اولاد يتصايحون خارجين من مدارسهم ،
راديوها تصرخ ..

ترتسم على وجهه علامات الخجـر ، وتطل من عينيه نظرات
الاستنكار :

— اللعنة !

يتلفت الى السيارات المتدفقة فى الطريق ، وبخطوات
متردة يبدأ فى عبور الطريق ، يلقي نظرة الى الرصيف الآخر ،
ها هى تأتى ، المتصاية ، لا تخدع مساحيقك أحدا ولو مراهما ،
الفسـتان مبتور الذراعين ، واسع الفتحة عند الصدر والظهر ،
البقعة الحمراء على شفـتيك مفرطحة ، داعرة .. داعرة تعمل
ظهرا !

سيارة صغيرة تكاد تصدمه . يركض خوفا ، السماعة فى
أذنه تهتز ، توشك ان تسقط ، يسندھا بأصبعه . يصل الى
محطة الأنوبيس لاهـئا ، رامقا فى غضب العربات العابرة . ينظر
الى موطىء قدميه :

— اللعنة !

يتراجع الى الخلف عدة خطوات . يتأمل الناس من حوله . .
آثار التعب بادية على عيونهم جميعا ، الولد الصغير يقف ناعسا
يفتح عينيه بصعوبة ، الرجل المتجهم زادت شعيراته البيضاء
في رأسه ، وهذا الكهل الذي لا يضحك أبدا ، يا لروعة رزائته !
وهؤلاء العابثون الضاحكون ، عيال صغار ، وتلك داعرة تعمل
ظهرا وزميلاتها يعملن ليلا :

— اللعنة !

يأتى الأتوبيس مزدحما عن آخره . تحدث حركة بين
الوافيين ولا ينقص عددهم ، يلفت نظره ثلاثة رجال متشابهون ،
يهبطون بعد معاناة مع زاحمى الباب ، يتجهون الى الدكان خلفه ،
وهم يشتمون ويلعنون كل شيء .

تقلص عضلات وجهه ، وتغيظه السيارات المنطلقة فى صخب
والناس المسرعون . . يمد يده الى مفتاح الصوت ويخفضه .

من الدكان خلفه تنبعث أصوات غاضبة محمومة ، أربعة
أصوات ثائرة انفجرت مرة واحدة . يقترب من باب الدكان ،
يرى داخله أربعة رجال ، منهم الثلاثة المتشابهون — وقد هاجوا
فى بعضهم البعض .

يرفع رأسه ويقرأ لافتة الدكان : اخوان الصفا .

— اخوان الصفا وبتشاجرون ؟ اللعنة .

يأتى الأتوبيس المتجه الى حلوان ، يراه مزدحما . لا يتحرك .
الفتاة ذات المعطف الرخيص الأزرق تركب ، ومن خلفها الشاب
الطويل كظلالها .

يتحرك الأتوبيس نافثا دخانه في وجهه ، يشهق في حرقه ،
يتراجع عدة خطوات ، يجد شابا صغيرا يحوم حول ذات الفستان
الواسع عند الصدر والظهر ، يهم بأن يلعن ويلعن بقعتها
الحمراء على شفتيها ، لكنه يشعر بشيء يسقط على كتفه .
يلتفت مذعورا ، يرى كرة من المطاط تتقاذف على الأرض ،
وبسرعة تدب الحياة والنشاط في الولد الناعس فيجرب ناحية
الكرة ، يمسكها ، ينظر الى صاحبها في الشرفة أعلاه ويعقد معه
اتفاقا : أن يرميها له ويعيدها إليه ، يرضى صاحب الكرة .

تزداد أصوات أخوان الصفا هيجانا . تفيظه الكرة الهابطة
والصاعدة بين الولدين . تفيظه الابتسامة المتبادلة بين الشاب
الصغير وذات الفستان الواسع . تصطك أسنانه :

— يا خالق الناس ، كلما تأملت حال الدنيا هتفت : أما أن
تقوم ، وأما أن يهبط ..

ينظر جهة منزله ، يخفض رأسه ويمضي عابرا الطريق ،
ناظرا الى موطئ قدميه ، وهو يشوط في طريقه روث بهيمة
عبرت قبله وتركت أثرها على الأرض ، ويكمل :
— .. تقوم القيامة أو يهبط الطوفان ...

يصل الى باب منزله . يلتفت خلفا الى الشارع وحركته ،
وبحركة غاضبة حائقة تمتد يده تجذب السماعة من أذنه ،
فتنقطع الأصوات عن الوصول الى عقله .

الصمت المطبق ، والسكون الشامل .

يدخل منزله ، ويفلق الباب بالزلاخ .

الحكاية الثانية - البقعة الحمراء على الشفاه :

الأحمر على الشفاه قاقع ، والثوب واسع الفتحة عند
الصدر والظهر ، مندا يخطيء مهنتي ؟

تتشاءب ، أجهدتني ليلة الأمس ، يأتي الرزق في آخر
لحظة ، النهار كله خالية ، وعند اليأس يأتي الفرج ، ترى ما حال
السوق اليوم ؟ !

تجول بناظرها فيمن حولها . الرجال مجهدون من العمل .
ترتاح عندما تشعر بشباب صغير يحوم حولها ، السنارة تغمز .
منظره لا بأس به ، ما حال جيبه ؟

تدير نظرها الى الرجل ذي السماعه في أذنه ، يا ساتر ،
يحمل الدنيا فوق رأسه ! يقترب الشاب الصغير منها ، ترمقه
بنظرة عابرة لا تخلو من تشجيع . يقف بجوارها غير ناظر اليها .
تتفحصه ، يبدو ان ماله ليس كثيرا ، اما الآخر ، الرجل
ذو السماعه - فيبدو اكثر يسرا ، وله ميزة فريدة : عندما يخلع
سماعته يستطيع ان أسبه والعن أجداده دون أن يسمعى .

يزداد الشاب اقترابا منها ، على كل حال : خير من انتظار
زبائن الليل . ترى كيف سيبدأ الكلام ؟؟

يأتي الأتوبيس ويتحرك ، والشباب لم يبدأ معها حديثه ،
لا بد ان تبدأ هي ، تنفخ غيظا وتقول :
- مواصلات مقرفة ومزعجة .

عندما يتأكد ان الكلام له يرد عليها ، ويتم التعارف ،
ويبدأ الاتفاق :

تقول :

— أجرى جنيهان .

— مبلغ كبير !

— جنيهان ، والدفع مقدما .

— اتفقنا .

— هل المنزل بعيد ؟؟

— خمس محطات بالأتوبيس .

— لا أركب الأتوبيس .

— نستقل سيارة تاكسى .

— هل تدخن ؟؟

— لا ..

— اشتر لى علبة سجائر اذن .

يتجه الى البقالة خلفه — بقالة اخوان الصفا — ليشتري
علبة السجائر .

تقف فى توتر ، يبدو انه موظف مفلس ، ساطأليه بالأجر
قبل أن اخطو الى منزله ، مثله من الموظفين لا أمان لهم . تبدأ
تترب سيارة أجرة لتوقفها فتقترب من حافة الرصيف .

تفاجأ بوقوف سيارة ملاكى بجوارها ، سيارة متوسطة
الحجم . ينظر لها صاحبها ، فتبتسم له ابتسامة عريضة ،

يفتح لها الباب فتركب ، وتتحرك السيارة ، في عودة الشاب الصغير بعلبة السجائر في يده .

يظل يرمق السيارة وهي تبتعد حنى تختفى تماما وهو مصعوق ، يتلفت حوله باحثا عن امرأة غيرها ، لا يجد .. ينظر لعلبة السجائر ويتحسر على ثمنها ، ويتحسر على الوقت الممتع الذى ود لو قضاه مع المرأة ذات البقعة الحمراء على الشفاه .

يهز كتفيه بلا مبالاة ، ويقول لنفسه ، على كل حال النوم ساعة القيلولة يفيد الجسم ، وراتبى صغير لا يكاد يكفينى ، اعمل كالحمار وأجازى بأجر حمار .

يأتى الأتوبيس ، ويحشر نفسه بين راكبيه ...

الحكاية الثالثة - اخوان الصفا :

بأفظة الدكان مكتوب عليها : « بقالة اخوان الصفا » .

ومن داخل الدكان انبعثت أصوات غاضبة محمومة ، أربعة أصوات ثائرة ، انفجرت مرة واحدة في بعضها البعض ، اخوان الصفا ويتشاجرون !!

هب الأخ الأصغر فى الأكبر يتهمه بأنه يعامله كطفل ، وزعق الثانى فى الثالث مطالبا بزيادة نصيبه فى الربح ، فصاح الأخ الثالث يشكو وينوح بأن المحل قائم على جهده ، يعمل فيه طون اليوم ، ويأخذ ربحا مساويا لأى واحد منهم .

يحتد النقاش .

يفقد الأخ الثالث أعصابه ، ويكاد يتهجم على أخيه الأكبر ، لولا أن الأصغر يمنعه ، ويندفع الثانى جهة الأصغر بقصد لطشه

صفعتين ، لكن الأكبر يمسك به ، ثم يقبض على سيخ باب الدكان الحديدي ، ويلوح به صارخا :

— كل واحد يلزم حدود أدبه ، كل واحد يقف مكانه !

تقف الأرجل الثمانية مكانها ، وتكف الحركات المتهورة عن الصدور . لكن الألسنة تظل منطلقة ، فيشتتم الأخ الثاني كلا من الثالث والرابع ، ويسب الأخ الثالث الأخ الثاني ، ويقذف الأكبر بأقذع الكلام الى أخويه الثاني والثالث ، ويلعن الأصغر أخوته الثلاثة جميعهم .

تزداد الأصوات فورانا ، وتعلو مطالبة بفك الشركة ، وكل حي يذهب لحاله .

لا يسكتون الا على دخول فتاة صغيرة ، تحمل في يدها اليمنى « حلة » معقودة حولها فوطة بيضاء ، وتحت ابطها عدد من الأرففة الملفوفة في فوطة أخرى .

تنقل البنت بصرها بينهم وتحتار ، تنظر الى وجوههم المحمرة ، ثم تسأل والدهشة تملكها ان كانوا يريدون شيئا ، ازاء نظراتها يلقي الأخ الأكبر بسيخ الحديد من يده في شيء من الخجل .

تنصرف الفتاة . يفك الفوطة من حول الحلة ، يرفع غطاءها فتتفرج أسارير وجهه ، ويقول :

— ملوخية !!

تبدأ الأرجل الست تتحرك .

يتجه الأصفر ويفك رباط القوطة الثانية من حول الأرغفة ،
وبلقمة يتذوق طعم الملوخية ، فتفرج تقاسيم وجهه .

في أقل من دقيقة تتكون دائرة من الاخوة الأربعة مركزها
حطة الملوخية ، وتمتد أيديهم إليها ، ثم تنتقل الى أفواههم ، يد
أو يدان ، أو الأربعة مرة واحدة ، تمتد الى الحطة في نفس اللحظة
لتنهل من نفس الوعاء .

الأخ الثالث هو أول من يشبع ، يقوم حامدا الله على
نفسه .

يتبعه الأخ الثاني ، فينظر اليه الثالث قائلا :

— لم لا تأكل الا نصف رغيف !!

— شبع .

يأتى شاب صغير ليشتري غلبة سيجار ، يبيها له الثالث
ويدعوه الى الغداء معهم ، يشكره الشاب وينصرف بطبته .

ينهض الأصفر هاتفا :

— طعم الملوخية ولا طعم السكر !!

يقول الأكبر له :

— بالهناء والشفاء .

ويأخذ كل واحد منهم ينظر الى الآخر في خجل .

الحكاية الرابعة - قبل آخر محطة :

في حلوان ، عندما يقترب الأتوبيس من محطته قبل الأخيرة ، كان الشاب الطويل يرمق الفتاة ذات المعطف الأزرق الرخيص قائلاً لنفسه - تبدو اليوم قلقة وظلال الغضب تلوح في نظراتها .

يقترب منها . تشيح بوجهها بعيداً . يهمس في أذنها . لا ترد عليه . يقف الأتوبيس ، ويكون الشاب قد اتجه الى الباب وهم بالنزول ، ينظر اليها ، إفتتبعه وهي تضم طرفي معطفها الأزرق الرخيص ، وتكشيرة تلح على ان تكسو وجهها .

الشارع طويل ونظيف وخال ، الا من بعض العمال او العاملات سائرين في عجلة نحو مصانعهم المنتشرة في اتجاه حلوان ، او بعض التلاميذ الى مدارسهم في فترات المسائية .

يسير الشاب بجوار الفتاة . ينظر اليها والى تكشيرتها ، يقول في عطف :

- حتى تكشيرتك جميلة .

لا ترد ..

- من أجلك رفضت نوبة المساء ، لأن عملي في الفترة المسائية ، حتى القاك كل يوم .

لا ترد ..

- جميلة في بسمتك وفي غضبتك .

تمنحه نظرة لا تخلو من احتياج .. وتقول :

- من أجل هذا انزلتنى من الأتوبيس ؟؟
— أردت أن أشرح لك موقفى .
— تريد أن تلعب بى . أنت تماطل .
يقف غاضبا ، فتسرع من خطاها ، لكنه يتمالك نفسه ويلحق بها :
— يا لك من مدرسة عنيدة !! ألا تسأليننى عن السبب ؟ !
لا ترد ..
يسالها غاضبا :
— ألا تريدین معرفة السبب ؟؟
تقف وتواجهه فى عناد :
— تكلم . قل . اننى أصفى لك .
— بسبب انتخابات المصنع التى تاتى خلال أيام ، وسأدخلها وما كنت أنوى ذلك .
— أذن تزوج من مصنعك ، واثركنى فى حالى ، ستجعلنى أتأخر عن موعد مدرستى .
— اسمعینى جيدا ، الانتخابات تتطلب منى كل جهدى ووقتى ، ولولا أن حسين مسعود دخلها ما كنت برشحت نفسى !!
ترمقه فى عناد ، فيشرح الموقف :
— حسين مسعود انسان وصولى ، مخادع ، وقد اختارنى زملائى كى أنا نفسه فى المعركة ، بقصد هزيمته .

- ولا وقت لى انا ؟ !
- كنت اظنك ستفهميننى !!
- يسيران فى بطء ، وفى توتر ، يسود الصمت . تنظر اليه .
يمشى شامخا براسه ناظرا الى المدى البعيد ، لكنه متألم .
تسأله بصوت خفيض :
- ولماذا انت بالذات ؟ ! وهل أنت المسئول عن اصلاح
الموج فى الكون ؟ !
- يقف مصدوما ، يتجه يسارا حيث مصنعه ، قائلا فى
استياء :
- لكن امى قالت لى نفس الكلام !!

ثقوب في الأوراق الخضراء

ناحت الأصوات :

— كانت لنا طيور جميلة ، في لون الضوء الوردي ، تعيش
معنا ، تضيء الحياة أمامنا تنشد ، تلأغينا ...

هتف صوت :

— طائري غرد لي : في ضيعة الكرم سأعمل ، مهر جيبتي
ابتسام سادخر واتزوجها وانجب منها ثلاثة من البنين ونعيش في
سعادة مائة من السنين ، لكن طائري في البحر هوى ثم غرق ومن
يومها سكت ولم ينطق ..

هتف الأصوات :

— كانت طيورنا الوردية ترقزق ، تتواثب من حلم الي حلم
لكنها اختفت ولم تعد ترقزق .

ارتعش صوت أجش :

— طائرى انا ، يا لوعتى عليه ! عذب الشدو ، اذ رآنى
مثقلا رفرف جناحيه ونفش ريشه وانشدنى عن ولدى وعن ابنتى ،
الولد يدبر تجارتى والبنت تتزوج وتنجب الأحفاد فينعم بالى ،
واجلس مستريحا آمر وأنها ويقبلون يدى ، لكن طائرى طار
مرعوبا ، وأصابته الرصاصة فسقط فى الهم ، واختلطت الألوان :
زرقة البحر ، لون الغروب ، لون طائرى الوردى ، مع لون دمه ،
وتكاثفت الظلمة فساد اللون الأسود .

علت الأصوات :

— رباه يا رباه ، طيورنا الحبيبة طارت تلتقط الحب فوجدت
مكانه الرصاص ، رباه .. طارت ترتوى ماء فوجدت مكانه دما
ساخنا ، رباه .. فماتت أو اختفت ، لا ندرى لا ندرى .

لوحت أختى بريشة صغيرة :

— عصفورى صغيرى ، وشوش فى أذنى : تدرسين وتتفوقين .
أشهر طبيبة ستصيرين ، أكبر مستوصف فى المدينة ستفتتحين ،
طائرى الحبيب انقضت عليه من القربان مائة ، ذبحوه نهشوه ،
وسقطت فوق رأسى هذه الريشة .. لطيرى الحبيب .

تعذبت كل الأصوات :

— طائرها مات ، طائرنا مات .

تفرست فيهم . لم أصدق ، دخلت دائرتهم :

— طائرها مات ، طائرنا مات .

تحسست السننتهم ، تلمست أذرعتهن . احترت .. كان
صوتهم صاخبا بطريقة غير عادية ، مترجرجا فى الهواء بطريقة غير
مألوفة !!

— طائرهما مات ، طائرنا مات .

أدركت السبب ، فقد طالت السنتهم ، وتطول !! وقصرت
أيديهم ، وتقصر ! ذعرت . انصرفت .

تركتهم خلفي وسرت أضرب الأرض بقدمي ، التراب أسمر
يميل إلى الصفرة .. وذات مرة أقص على أبي السبب في ذلك ، قال
إن الأجداد جاءوا بكميات كبيرة من الذهب ، طحنوه حتى أصبح
مسحوقا ، ثم بذروه في كل الوطن ، ومن يومها فإن أرض فلسطين
تنبت خير زرع ، وأصبح لونها يميل إلى الاصفرار . كنت طفلا
فدهشت وسألته إن كان الذهب رخيصا إلى هذا الحد عند
الأجداد ، لكنه لم يرد علي ، بل احتضن زجاجة في حرص وانطلق
يفنى ولم يعد معي .

خففت من وقع الخطو ، شيفرت بخنن جارف لزيارة قبر
أبي . وقفت حزينا . نظرت صوب الشمال : قبر أبي هناك .
عندهم .. ناجيته في رقدته ثم سكت : هل دفنوه وصنعوا له
قبرا أو شاهدا ؟ !

امتلات عيني بالدموع ، وعلى القور صارت رعود وبروق ،
وإذا سلم منصوب على الأرض ورأسه يمس السماء ، وإذا بشيخ
يقف فوقه ويده تعبت بلحيته الرمادية يسألني :

— هل تعرف أن العضو يقوى بالمراس ؟؟

أغمضت جفني بشدة حتى أطرده الدموع من عيني ، وتذكرت
أنني رأيت هذا الشيخ من قبل . في عينيه حدة وحكمة .

فكرت في سؤاله طويلا . ابتسم فرايت الطيبة في تجاميده . اشار الى ناحيتهم وقال :

- اريدك ان تصر صيادا . الآن خذ عدتك وسلاحك واخرج الى هناك وتصيد لى صيدا .

* * *

سرت صوب الشمال . أشجار ذابلة . يمامات قتلى . زهور مدهوسة ، ثم رايت حاجز الأسلاك الشائكة فانفرزت في عيني الأشواك ، ورايت غربانا سوداء تقف بينها وداخلها وفوقها ، نظرت لى ونعقت .

تشاءمت ، ولما رفعت بصرى الى المدى البعيد رايت البيوت والخضرة ، رايت الربوة العالية ، وشمنت رائحة البحر .. غامت الأشياء من حولى وعدت طفلا واقفا فوق ربوة عالية تطل على البحر مباشرة ، لكننى لم أتمكن من رؤية الماء سمعت هديره ، ورايت دعوسا كثيرة تندفع وتتزاحم الى قوارب الصيد الصغيرة . غرفت بعض القوارب ، سبج من يعرف ، توالت الصرخات فصرخت أنا ايضا ، ولما انسابت دعوى ساخنة وانحدرت الى البحر فارت الأمواج وعلت نافورة ماء ، واذا بالشيخ يشد لحيته .

نعقت الغربان من فوق ومن بين الأشواك فرايت الأسلاك ثانية . حملقت فيها طويلا ، ثم عدت أشم رائحة البحر .. ولما حملقت من فوق الربوة رايت الشيخ ، كانت في عينيه حدة وحكمة ، جنب لحيته وأهل المياه في وجوه الهاريين وزعق ان عودوا الى دياركم ، فصرخ القوم :

— لن نعود . انهم قادمون ، الغربان ، كالوت !
— عودوا لدياركم وكونوا صيادين ، فلسطين وطنكم !
— لن نعود . في دير ياسين ذبحوا الرجال بقرؤوا بقرؤون
الحوامل ، ووأدوا العيال وأدوا العيال !!

ارتجفت ، كان عمري ثماني سنوات ، جريت صوب البحر .
سمعت صوت أبي يفنى . تسمرت مكاني . . ساعة الغروب هي
ساعة سكره تحت كرمه العنب .

نعتت الغربان بصوت قبيح . هزرت رأسي . أفقت الى
نفسى : وكان بيض الغربان قد فقس وراء السور الشائك فخرجت
غربان أخرى صغيرة ونعتت الغربان الكبيرة . تأملت وقلت :

— ما كان أطيها رائحة أرض الوطن . ما كان أجمل أصوات
الأجراس والأذان وغناء أبي .

كنت أعرف ان ساعة الغروب هي ساعة سكر أبي المفضلة ،
فجريت صوبه ، وكان يفنى مختفنا زجاجة الخمر ، وعندما
جاءوا اختبأ خلف شجرة الكروم ، وصوب فوهتها ناحيتهم
وهددهم بها ، جمدوا في أماكنهم ثم تراجعوا .

عذت أنظر اليهم فأدمت عيني أشواك السور . هتفت :

— أيتها الغربان القميئة ، انتظري حتى يجيئك من يحطم
هذه الأسوار ، ان العالم لن يسكت على هذا أبدا .
شعرت بشيء غريب يحدث في فمي . تحسرت :

لو مازلت هناك لكنت جالسا أمام باب الدار مع الأصحاب،
نتبادل النكات ، ونمسك سيرة البنات ، والأسفاه !!

تنبهت الى لسانى ، كان قد طال الى الضعف وترهل .
ذعرت .. وكأن يدي أيضا قد قصرت الى النصف ثم اضمحلت!!
ارتجفت : حتى أنا ؟؟

* * *

ـ طائرها مات ، طائرنا مات .

جنب لحيته الرمادية وقال :

ـ العضو يقوى بالراس . أريدك ان تصير صيادا حتى
يعود لكم الذى لكم .

وبحثت عنه فى كل مكان ليشرح لى معنى : « التناسب
العكسى » . وعندما عدت الى القوم وجدتهم يجر جرون السنتهم
التورمة ، ووجدت الهواء يعبث بأكمام جلابيبهم ويطوحها ،
وقفوا مخيى الرءوس :

ـ جئنا من نسل الأنبياء ، يا رب انت على الظالم . طردنا
من أرض الآباء ، يا رب اسحقهم . تعبنا من خيامنا السوداء
تعبنا ..

تشنجت الألسنة فتشابكت ، وعلى حين فجأة ملأت
الفربان السماء . نعقت ثم انقضت . ذعرنا . عجزنا عن الهرب .
اعاقتنا السنتنا المتشابكة نهشت الفربان ، نعقت مطمئنة .

نحن بلا أيد . فقات مئات العيون . نعتت . ثقت مئات
الأذان . نعتت نعتت ...

تمزقت السنتنا فتفرقنا . وجدت أختي مفقوة العينين
مكومة على الأرض . فشقت :
- انظر زانية يفعل بأختي !!

* * *

الشمس القوية الملهبة . الرمال . الحرارة . الجوع .
الضوء القوى . اتكأت على جاري مرهقا . في الصباح قلنا
يا ليتة مساء ، وفي المساء قلنا يا ليتة صباح ... ثم صارت
الرعود والبروق ، فارتعدنا ، وإذا دخان يتصاعد كأنه من
أتون ، والصخور تفتت والرمال تتطاير ، وإذا بسلم أوله في
باطن الأرض وسمته الى السماء ، وإذا بالشيخ - مجهد هذه
المرّة ، مرتعشة يداه ، مشوبة لحيته الرمادية بالبياض - يقول :

- يا أغبياء . لم تفكروا أبعد من مواقع أقدامكم فضممت
عقولكم . عودوا ، فلسطين وطنكم !

لجمت السنتنا . كنا مذعورين فتركناه ، وتابعنا هروبنا ،
وكانت الشمس ، وكانت الأشواك ، وكان الجفاف .. فثقلت
رءوسنا ، ووهنت أقدامنا ، وتحركت الرمال ، ولاحظت ان
جاري كان يفكر عندما عاد صوت الشيخ يندرنا :

- موتا تموتون . اهربوا ولن يكون فيكم الا مظلوم
مفصوب ، يخطب امرأة ورجل آخر ينام معها ، يبني بيتا

ولا يسكن فيه ، يفرس كرما ولا يشرب خمرا ، هزاة في جميع الشعوب يكون .

بدا جارى مفكرا ، ثم تردد ، وفجأة قال : « انى عائد » .
وعلى الفور حدث امر غريب جدا فقد بدأ لسانه يقصر ويدها تطولان . أردت أن أندھش وأن أحادثه لكنه نفذ ما قاله وعاد ، وعاد لسانه وعادت يدها الى الطول الطبيعى ، وتابعنا نحن هروبنا ، وصوت الشيخ اشد عنفا من حرارة الشمس :

— كيف يطرد واحد الفا ، ويهزم اثنان ربوة ؟ !

فتذكرت أبى الذى كان واقفا في مركز نصف دائرة في الفوهات الشريرة عندما انهال عليه وابل الرصاص ، فتراقص من الألم ، وكان يحب الرقص — ثم تذكرت اختى وفكرت في جارى الذى عاد ، ووجدت نفسى استدير عائدا — وبعد أن انصرفت الفوهات وساد الصمت تسلفت هابطا الى شجرة الكروم : كان أبى في بركة من الدماء والخمر ، نظرت الى عنبها فوجدته حصرما ، والى أوراقها فوجدتها مثقوبة من فعل الرصاصات الصهيونية .

— وليكن هذا آخر قولى لكم : كونوا صيادين ليعود لكم الذى لكم . فوالعضو يقوى بالراس . اقتلوا الغربان تعد لكم طيوركم الوردية ...

وعندما تسللنا عائدين قصرت السنتنا ، وانتشرنا في الجبال والمدن والنجوع ، طالت أيدينا واستردت قوتها حتى أصبح في مقدورها أن تحمل القنبلة والصاروخ .

كل الأنهار

... وعندئذ يرى أن خياله ينعكس مرات لا حصر لها ،
يحاول عددها فيفشل ، عددها مثل عدد نجوم السماء أو مثل عدد
حبات الرمال . ولكن من وضع المرأتين في حالة تواز ؟؟ لابد
أنها زوجته ، فقد كانت تنظفهما في الصباح عندما سألته :

– هل تذكرت ذلك الرجل ؟؟

رفع عينيه عن الجريدة ونظر إليها في تراخ وكسل :

– أي رجل ؟؟

– الجالس عند البحر دائما ، عند اللسان ، ذلك الذي
غرق ولده .

– غرق ولده ؟؟

– اختفى ولده ، فقد في البحر منذ سنوات .

– كلا ..

ولكن الهواء اللزج يضايقنى ، أزعجتنى بكثرة أسئلتها
عندما كانت صغيرة ، أما الآن فقد بدأت الأعوام ترهقها .

لكن ابنه التصق به فى الصباح وسأله :

– بابا ، كم عدد السموات ؟؟

– اخرج واحسب عددها .

– جدى قال انها « شبعة » .

– تقصد سبعة ؟ !

– جدى نطقها هكذا « شبعة » قال ان عدد السموات
« شبعة » .

– هو قال هذا الكلام ؟؟

– نعم ، ألم تكن تعلم ؟ !

– لم اكن أعلم .

ولكن هذه الذقن يجب أن أنتهى من حلاقتها ، كان أجدادنا
قوما عقلاء ، لم تكن تخجلهم لحاهم ، أما اليوم فيالها من مهمة
ثقيلة حلاقة هذا الذقن .

يحملق فى المرأة ، يقترب منها ويتعمد .

(ويكون جسده عاريا تماما ، ولهيته طويلة ، ويصرخ
بصرخة ابن الفلب ، ثم يهجم على النمر ويقتله ويسلخ جلده
ويستر به عورته ، ولو لم يقتله لبا ستر عورته) .

ويتأمل شعره طويلا . بدأ المشيب يفزوه . وينظر الى
عينيه السوداوين :

- آه من عينيك يا حبيبى ! ليل طويل وقبى اريد أن
أكشف خباياه ..

- أما أنت يا حبيبتى فزوجة عينيك تغلب الأبواب .

- بعد سنوات تمل رؤيتهما .

- لن يحدث ذلك ، ولا بعد ألف عام .

- ألف عام ؟؟

- مليون .. فزوقيتهما بحر عميق لا نهاية له ولا قرار .

أكان ذلك بالأمس ، أم منذ لحظات أم منذ ملايين
السنين ؟؟ بحر عميق بلا قرار بدأت شطآنه تتجدد ، آه من هذه
السنين !! آه من هذه الانعكاسات !! كم خيالا ؟ ألف خيال ؟
مائة ألف ؟ مليون ؟؟

- وكم غدد الأرضين ؟؟

- لا أعلم !

وسعلت البنت مقلدة جدتها :

- جدى قال انها « شبعة » أيضا !

- حقا !!

- وقال ان تحت الأرض السابعة صخرة مجوفة يحملها
ملاك يقف فوق ظهر ثور ، والثور فوق ظهر حوت يسبح فى
ماء ، والماء يحمله الريح ، والريح يحمله هواء وظلمة ...

— يا سلام !! وماذا تحت هذا الهواء وهذه الظلمة ؟ !

— جدى قال : هنا ينتهى علمى ، ولكن ألم تكن تعرف كل ذلك ؟؟

— جدك أدرى منى بهذه الأمور .

يضيف مزيدا من الرغوات ، ويمسك بالماكينة ليبدأ الحلاقة ،
سبع سموات وسبع أرضين والأسبوع سبعة أيام : لكل يوم
سما وارض ، هذا هو ما يقصده الجد .

ثم أوضحت الزوجة قائلة :

— ذلك الرجل الذى اختفى ولده ومازال ينتظر عودته أمام
البحر ، لقد افزعنى بنظراته !

فتهتز يده ، والشفرة جديدة ، وأف من هذا الجو !!

(وتسير مركبة الفضاء فى طريقها المرسوم صوب القمر ،
فيرى أن الأرض كرة صغيرة ويرى البحر فى أسفلها ومع ذلك
لا تتساقط مياهه ، ويدهشه أن النيل يأتى بمياهه من اواسط
افريقيا لتتوه فى زرفة البحر الهادر !!)

واخذوا يقلقوننى باستلتهم :

— بابا كيف يلتقى النيل بالبحر ؟؟

— بابا كيف تختلط مياه النيل بمياه البحر ؟؟

وعندما أخذتهم الى هناك شعروا بخيبة الأمل ، وأرادوا
العودة سريعا للفرجة على التليفزيون . وقالت الزوجة : الأولاد
لهم عذرهم : أنا أيضا كنت أتوقع أن يكون اصطدام مياه النيل

بالبحر اصطداما فائرا ، ولكنه كان كالتقاء عاشقين سئم
أحدهما الآخر !!

تحدث نقطة حمراء فوق رغوات الصابون . ويا له من
تشبيه !! فالنيل في نهاية رحلته يكون مجهدا لاهشا . ولكن
ذلك لا يمنع القطرات الأخرى من أن تحاول نفس المحاولة لتدوب في
البحر . وقالت أن عيني سوداء كليل رقيق وقلت أن عينيها
زرقاوان كبحر بلا قرار .

(وتسير مركبة الفضاء في طريقها المرسوم صوب القمر ،
غير أن خطأ ما في الحساب يجعلها تنحرف ناحية الشمس بسرعة
رهيبية . وهناك يرى أن الشمس كتلة من اللهب فيحترق
فيها .. ويسأله المراسل الصحفي :

— بصفتك أول من غزا كوكب الشمس : ما رأيك في الطقس
هناك ؟؟ ولماذا قمت برحلتك هذه ؟؟ ولماذا قمت برحلتك
هذه ؟؟

ف قالت الزوجة موضحة :

— ذلك الرجل الجالس عند البحر دائما ، عند اللسان ،
لا يرفع نظره عن الموج في انتظار ولده !!
وسأله ابنته :

— وماذا يوجد في الأرض السابعة ؟؟

(فيأخذ صاروخه الذي في لون قوس قزح ويطلقه إلى
سيبيريا ويسأل العلماء الروس هناك :

— لماذا تريدون حفر بئر إلى مركز الأرض ؟؟

فرد مندوب الحزب بصوت جهوري :

— من أجل حياة أفضل لعماساير قوى شعبنا العامل من
الشفاعة والفلاحين والجنود والمتقنين الثوريين ، في سبيل حزبنا
العظيم وحكومتنا الرشيدة .

غير ان رئيس العلماء .. يهمس له جانبا :

— نحن نأمل ان تجد هناك نوعا افضل من الفودكا !

فيسيل خط احمر فوق رغوة الصابون . أف من الحر
والرطوبة واعصابي المرهقة ، وخيالي الذي مازال ينعكس بلايين
المرات . وزوجتي التي قالت :

— ذلك الرجل الذي طال شعر رأسه وذقنه وشاب
وغزت التجاعيد وجهه ، وهو مازال ينتظر ولده امام البحر !!

(ثم يطير في صابووجه الذي في لون قوس قزح الى القطب
الشمالي حيث يجيبه المتحدث الرسمي باسم العلماء الأمريكين
هناك :

— نحفر بشرا حتى مركز الأرض كي نملأ الفراغ هناك ،
ونمنع انتشار المبادئ الهدامة .

غير ان رئيس العلماء يهمس له جانبا :

— من المؤكد ان البترول في مركز الأرض يوجد بكميات
غزيرة ، وربما وجدنا الذهب ، فهل تريد حجز كتلة أرض هناك
بأسعار رخيصة ، وبالتفصيل اريدك طويل الأجل ؟؟)

ولكنها لم تعد تنظر الى عيني ، ولم تعد تقول انهما : ليل
طويل أريد ان اكشف خباياه !! انهل كشفت خبايا عيني ؟؟

أم أنها فقدت الرغبة في الاكتشاف وانشغلت عني بالأولاد ؟؟
أو شغلبا الأولاد بأسئلتهم ؟؟ ثم أوضحت قائلة :

(شفراتنا مصنوعة من الصلب الممتاز النقي ، تجعل الحلاقة
ناعمة سهلة ممتعة ، وأعلنت نقابة الحلاقين أنه ما دامت الجروح
يقل عددها عن الأربعين فليس من حق الزبون أن يطالب بأية
تعويضات مادية) .

ثم أوضحت قائلة :

— كيف لا تذكره ؟؟ طويل فارح ، نظراته غريبة نفاذة ،
صمد للحر والبرد وهو مازال ينتظر عودة ولده أمام البحر ؟؟

ويسير محاذيا النهر حتي البحر ، فيجد الفئار مرسلًا
ضوءه الى ما لا نهاية ، والعيال يلعبون من حوله . وكان الرجل
يجلس بعيدا عن الناس بشعره المسترسل ولحيته الطويلة
البيضاء ، والمصطافون لا يلحظونه ، يحضرون وينصرفون وهو
جالس لا يرفع بصره عن أمواج البحر .

يقول له :

— كآذك تحصى الموجات ، كم عددها ؟؟

— أين الأولاد ؟؟ وأين جدهم ؟؟

— وهل تذكرهم ؟؟

— جئت بهم المرة الماضية ، غير ان أمهم جابتهم بعيدا
عني !!

— خافت من نظراتك اليهم وقالت أنك كنت تشتهيهم !! .
انهم الآن حول جدهم الذي أصبحت هوايته بناء أهرامات من
الرمال ، والذي كره حرف السين فلم يعد ينطقه .

ولم يعد غير الشارب ، وان كانت الذقن قد ذبحت تماما
وصبغت باللون الأحمر . ان كانت الشفر قديمة آلمت البشرة ،
وان كانت جديدة ملأت الذقن بالجروح .. ولا توجد نسمة
هواء واحدة !

— وهل حدثك الموج عن ولدك الفريق ؟؟

— ذات ليلة سيرتفع ماء البحر في ليلة قمرية ويحدثني
همسا ان ولدى لم يفرق .. فهو لا يفرق .

الصوت مرتعش مبجوح لكنه ينفذ الى القلب ويسرى مع
الدم الى الرأس :

— ... كانت لنا مركب لنقل المصطافين ، وكان يفرد القلع
أو يلمه . وكنت اجلس الى الدفة ، ولم أسمح له بالاقتراب
منها ، كنا كلما اقتربنا من رأس البر ورأى اللسان حيث يلتقى
النيل بالبحر الكبير نظر الى يدي على الدفة وسأل : « لماذا تكون
هنا نهاية الرحلة ؟؟ ماذا يوجد في البحر الكبير ؟ » . وقلت له
ان البحر مخيف ، لكنه غافلني ذات يوم ، وكنت على اليابسة ،
وفك المركب وأقلع بها ، وحول الدفة متوجها الى البحر الكبير !!
وناديته : « عد .. عد ، المركب صغير والبحر كبير » ، لكنه
لم يستمع لندائي . وحملته الأمواج وجلجل البحر هادرا ، ومن
يومها لم أره ، وأنا الآن أنتظر ليحييني عن سؤال عجيب
يحيرني . ذهب ليعرف ، وأنا أريد أن أعرف ما عرفه !

— وكم تظن عدد قطرات الموج ؟؟

— كعدد نجوم السماء ..

— وكم عدد نجو السماء ؟؟

— وكم عدد نجو السماء ؟؟

وكم عدد الشعرات في رءوس الناس ؟؟ (وكم عدد انعكاسات صورتى في مرآتين متوازييتين ؟؟)

— مثل عدد قطرات الموج ..

— عدنا للبدء !

— نعم . ولكن السؤال الذى يحيرنى : لماذا لا يمتلئ البحر ؟؟ فمنذ بدء الخليقة والأمطار تهبط فوق الجبال لتنحدر هادره الى الأنهار ، ومنذ بدء الخليقة وهذه الأنهار تصب في البحر ، لكنه لا يمتلئ ولا يزداد حجمه ! فقط ترتفع مياهه استجابة لنداء القمر ، ويدعوه ان اقترب منى فيرتفع سطح الماء ويسبح على الشيطان ، ومتى غاب القمر عاد كما هو ، مهما كثرت الأنهار وغزرت المياه الصابة فيه !!

يجفف ذقنه فتمتلئ الفوطة بالبقع الحمراء . وعندما أشيخ وتتساقط أسناني سأكره حرف السين مثل جدهم . وينظر الى انعكاسات خياله فيضحك : وأيضا كل هذه الذقون مجروحة مثل ذقنى !! فكم عدد الجروح انن ؟؟ ولكن هذا السؤال فرغت من اجابته على ما أظن ، أم ترى اننى لم أفعل !!

(سبع سموات وسبع ارضين والأسبوع سبعة أيام ، لكل يوم سماء وأرض . ولو لم يقتل النور لما ستر عورته) .

كل الرجال .. كل النساء

سمعت الأصوات .. باب الشقة مفتوح - الكتاب في يدي
اليمنى - وقفت عند المدخل : الصالة ، السفرة مزاحة جانبا ،
سواد ، مناديل بيضاء في الأيدي ، عيون تنظر الى حواف المناديل
سوداء ، النساء .. صورة المسيح مصلوبا ، مصمصة ، العيون
تنظر ، والعذراء تبكي تحت الصليب .

تلقت يمينا : باب حجرة أمي مغلق بالفتاح والأكرة مكسورة
السواد .. الباب أبيض ، أين أمي ؟ .. وجه امرأة تضغط
جفنيها بشدة .. رأس المسيح بين الأشواك .. النظرات تأتي
من كل ناحية .. الباب الأبيض ، أمي .. تقدمت إليه .. لم
تنزل دموعي .. ولكن أين أبي ؟ ألم يخبروه ؟ ! .. مصمصات :
- شد حيلك يا حبيبي .

الكتابة فوق الباب الأبيض بالرصاص : « نبيل ، بطل العالم ،
نبيل معبود الجماهير عاشت ج.ع.م. »

— يا نبيل يا مكسور الرقبة قلت لك ألف مرة : لا تكتب
فوق الأبواب والجدران .

نقلت الكتب الى يدى اليسرى ، لست الاكرة المكسورة
— النظرات — ادرت المفتاح — عيون ، شهقات — بدأت ازيح
الباب . شممت رائحة كولونيا نفاذة .. شعرت بيدين تمسكانى ،
تجذباننى بعيدا . دفعت الجسد ، رايت طرف رداء اسود وعروقا
نافرة فوق الكفين :

— تعال يا حبيبى ، شد حيلك .

دفعتها بيدي . جذبتنى . دفعتها ، دفعت الباب : الحجرة
مضاءة ، الدولاب — كرهت الرائحة . هدوء — المرأة المشروخة :

— كسرتها يا مكسور الرقبة . امرأة بلجيكي من أيام
دخلتى !!

دخلت الحجرة : النافذة مغلقة بالشيش ، المصباح مضاء .
الحائط ، مسمار ، برواز ، والمسيح يقوم منتصرا على الموت .
السريـر ، نائمة فوقه مغطاة بالكوفرتة الحمراء ، توقعتها ملءة
بيضاء .. صوت اقدام بجوارى ، صوت ضلقة الباب المفلقة
تهتز ، سمعتها . الكوفرتة منسابة فوقها ، اليـدان فوق الصدر ،
لابد . الرأس مغطى . الأنف بارز ، سينكتم نفسها .

اقتربت ، المسيح فوق السحابة بين الملائكة — شهقات —
حراس القبر مندهشون ، الشهقات . مددت يدي لأسحب
الكوفرتة ، التصقت امرأة بظمري وسحبتنى يداها الى الخلف .
استدرت ، رايت سوادا ، شممت رائحة النفثالين النفاذة ،
احتاجت الدموع فى عينى . سرت خطوتين . لابد انها مغمضة

العينين تحت الكوفرة (انفلت وعدت وشدت الكوفرة فرايت
الوجه ، كان مبتسما - سمعت بكاء - العينان مسبلتان ، كما
توقعت .. تبتسم - سمعت البكاء - ليست ابتسامة كاملة ،
شروع بدابة ابتسامة) . الوجه مختلف ، الأنف مرتفع ، سينكتم
تنفسها !!

استدوت . ضمت جفوني بشدة ، ابتلت رموشى ولم تنزل
دمعتان فوق الخدين ! .. السواد . الحائط ، رسوم يابانية
لنساء فى الحمام .. خرجت من الباب الأبيض .. « يا مكسور
الرقبة » .

الصالة . السفرة . السواد عند الجدران ، الأهل ،
جارتنا ، بعض قريباتنا من القرية وصلوا قبلى ، لماذا لا أبكى ؟؟

– فكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار .

طرقات على باب الفصل :

– ومضاد له فى الاتجاه .

الباب يفتح ..

– قيام .. جلوس .

– نبيل حنا يأتى .

ناظر المدرسة بنفسه !! – قوانين نيوتن – وجهه حزين ،
اندهشت . لم ارتكب أى خطأ نقلت السطر الأخير من على
السبورة .. « ق = ك × ج » سعل مرتين :

– احضر كتبك معك ..

يريد أن يفصلنى !! ربما بسبب هروبى من حصة الاحياء ،
لا احب العبث فى احشاء الضفادع .

— اذهب الى البيت ، والدك يريدك .

كلمنى فى اسى فتوقعت .. نظر فى عطف فخممت وارتبكت ..
ولما صعدت السلم سمعت ورايت السواد .

— اين أبى ؟؟

— ذهب مع اخيك الأكبر لعمل اللازم .

— وميشيل ؟؟

— قال أبوك دعوا الولد الأصغر فى مدرسته ، ولا داعى
لازعاجه مبكرا .
كانت تحبه .

باب حجرتى .. حجرتى .. سريرى .. مكتبى الصغير ،
القمصان ، النافذة .. النافذة المقابلة مفتوحة ، هل عادت
« سناء » ؟؟ بالطبع لا ، ما زالت فى مدرستها .. جلست على
حافة السرير .. أصوات النسوة — تعديد — ماذا ستفعل
سناء عندما تعلم ؟؟ لم ترد على اشاراتى لها أبدا ، تقف تحملق
فى ، احييها وابتسم لها لكنها لا ترد ولا تخفض عينيها عنى ،
نظرتها ثابتة لا ترف ! .. بكاء النسوة ، صوت المعددة :

— كنت زهرة وقطفك الموت بدرى يا أختى .

خلعت البلوفر . ارتديت الجاكete . ليست عندى كرافطة
سوداء !! وحتى الآن لم أبك ، ضفطت جفونى بشدة .

أرتفع صوت المهددة - فجأة ! - زاد صراخ النسوة .
اندهشت ، ميزت صوت خالى فهمت : يرحبون بكبير العائلة ،
خال أمى ، كلنا نقول له خالى ، أبى يقول خالى ، وأمى واخوتى
وأنا نقول خالى ، بانى مدمنة الأسرة .. ضحك أبى ووالى :
« هذا الرجل سيدفن العائلة كلها ولن يموت .. »

سمعت خالى :

- ألم يعد هنا حتى الآن ؟؟

- لا ..

- أحضرت المفتاح ، مفتاح القفل الجديد ، كسر اللصوص
القفل القديم وسرقوا أسنان المرحوم وليم الذهبية ، فاشترت
قفلا جديدا « بيل » انجليزى أصلى . لا أدري ماذا كانت ستفعل
العائلة بدونى ؟ !

- ربنا يعطيك طولة العمر .

« هذا الرجل دفن ثلاثة من أولاده واحدى حفيداته وعمك
واخاه .. ومن المؤكد أنه سيدفنى كذلك .. »

ثم ضحك أبى .. ابتسمت .. خطوات خالى الحادة
تقترب ، دائما يركب حديدة فى كعب حذائه حتى لا يتأكل
بسرعة .. الباب ، وقف عنده :

- انت يا ولد قاعد هنا بدون عمل ؟ ! انزل لتقف مع عمال
الفراشة ، ولأ تدعهم يفرشون سجاجيد جربانة أو يرصون
مقاعد قديمة .

انعكاسات صفراء .. برقت آلات النفخ النحاسية تحت
أشعة الشمس ، اقترب الأولاد في صفين : زيهم موحد ، رمادي
في حوافه شريط أحمر .. « ملجأ الأيتام القبطى الخيرى » .
جلسوا تحت السرادق . ابتسمت لهم ، لم يبتسحوا ، عودهم
على عدم الضحك فى مثل هذه الظروف . تأملتهم : زرايرهم
نحاسية لامعة أيضا ، وضعوا الآلات فوق السجادة اسفلهم ،
ولد أشقر وولد أحول والسادس عروقه نافرة من نفخ آتته
الكبيرة ، والآخر منظرهم عادى .. أيتام ! .

الفراشة حمراء ، الزخرف أبيض عربى الطراز ملء بالدوائر
المتداخلة .. « فراشة حسن عبد السلام » . الشارع ..
الشمس .. عمود النور .. الحائط .. « حاليا ينسيتها بالاس
الكبرى .. » أفريز الحائط فى ركنه عش الزنابير الطينى ، حطته
فهاجرت الزنابير .. « ممنوع لصق الاعلانات » .. « حاليا
بسينما بالاس الكبرى بالمنيا » .. كيف لا أبكى ؟ !

- ابنك نبيل خرج الساعة السادسة ولم يعد إلا فى
التاسعة والنصف ، ومن المؤكد انه ذهب إلى السينما .

فلما عدت سألنى :

- أين كنت ؟

- اذاكر مع صاحبى حمدي ..

- كذاب .. أين كنت ؟؟

- لست كاذبا ..

- أمك تقول انك كنت فى السينما ..

– كنت أذاكر مع حمدي ..

– اسمع يا بني الذي يحمل قرية مخروقة تخر عليه ..

– والله العظيم ما دخلت السينما .

– أمك تقول أنك كنت في السينما ..

–

– اسمع يا بني .. أنا أبوك وتهمني مصلحتك .. ذاكر وفي

الأجازة تفني للسينما .

الكرافتة السوداء في عنق أخى الأكبر ، علب سجائر كبيرة
فوق المنضدة الصغيرة .

سأل عن العربية وعن أينا القسيس ، سأل عن « مشمش » .
لم يرجع بعد .

قالت أمي :

– كن أنت عاقلا فمشمش هو الأصفر واعطه القلم .

يبدو أنه كان يبكي ، أخى الأكبر ، لكنى لم أبك ، حتى
الآن !!

أصبع أبى أشار الى ، فمه :

– اسمع يا نبيل ، كن متماسكا أمام مشمش عندما يأتى ،
انت الآن رجل كبير .

انفجرت صرخات محموعة ، جرس الكنيسة يدق من بعيد ،
شرفة البيت وسواد النسوة .. ثلاث دقائق بطيئة ثم برهة

صمت .. المناديل بحوافها السوداء .. « مع السلامة
غالية يا غالية » .. حركة في الشارع .. نكاء ، دقة .. صراخ ،
دقة ثانية .. عويل ، دقة نائلة .. الأولاد في صفين .. « والله
فراقك مر يا حبيبة » .. الرجال يقفون .. يصطفون خلف
العربة .. خيول العربة تصهل ، أربعة ستة ثمانية ، ثمانية
أحصة .. والعربة مذهبة كثيرة الزجاج .. الجرس يدق .

باب البيت : صندوق خشبي فوق اكتاف رجال أربعة ..
الصراخ يعلو ، امرأة تشد شعرها .. الصندوق ، الشرفات ،
عيال ونساء ورجال نظروا .. الصندوق .. العيون نظرت ..
سحبني خالي الى الامام : الصندوق يدخل العربة .. القسيس
امامنا .. خالي ، ابي اخي الاكبر .. انا .. والناس .. شرفة
سناء ما زالت في المدرسة .. ترى ماذا ستفعل عندما تعرف ؟ ..
حزنت ، حتى الآن لم ابك !

آلات العزف في الأفواه . « بساط الزحمة » يمسكه أربعة
رجال - العربة تحركت - كل رجل في طرف .. نفخت الأفواه
باللحن الرتيب بالايقاع المنتظم .. سرنا .. من شارع الى
الميدان .. الدكاكين تغلق نصف غلقة ، الجالس يقف ، يحترمون
الصندوق المثل من العربة بين الملاكين الخشبيين ، السيارات
تأخذ جانب الطريق .. أدت رأسي : الحشد زاد - صوت
الجرس - بالتأكيد ما زال في المدرسة صاحبي عزت ، يا ليتني
بجوارى الآن ! . العيون .. هل سأذهب غدا الى المدرسة ؟؟ .
أبطأت العربة لحظات ثم سارت ، نظرت الى الأرض : عجلات
العربة ، روث الخيل فوق الأرض ساخن ، بغض بخار الماء

يتصاعد منه .. اعتقد اننى سوف لا اذهب الى المدرسة غدا ،
لكن عزت سيذهب ، وسناء ايضا .

* * *

الصندوق امام الهيكل .. القداس .. وقفنا جميعا ..
ظهر القسيس لنا :

— لأنه لا يبقى الا العمل الصالح .

باب الهيكل ، ستائر من القطيفة الزرقاء ، اللوحات
الزيتية :

— .. ويذهب الانسان لكن ذكراه العطرة تلوم ..

« ماري جرجس » ممسك بالسيف ، المسيح يقوم من
الموت .. سمعات رجال .. الملاك ميخائيل له جناحان يطير في
السماء .. الصندوق .. قم القسيس .. البخور يتصاعد
متكاثفا ثم يتخلخل ..

قالت امى :

— أسرع يا نبيل ، لابد ان نذهب جميعا الى فرح ابنة عمك
في الكنيسة ..

وكان التاج فوق رأس العريس وفوق رأس ابنة عمى ،
وامال كل منهما رأسه فالتصقا وزغردت كل النساء ، وقال
القسيس منبها على العروس : « أطيعي زوجك ، وكوني عونه
في السراء والضراء » فضحك كل الرجال ، وقال : « ان ما يربطه
الله لا يفرقه الا الموت » .

الشريط الأسود .. بكاء أخى الأكبر .. ضفطت جفونى
بشدة ..

وفى المساء قالت أمى :

- شد حيلك يا نبيل وذاكر لتأخذ الشهادة الكبيرة من
الجامعة وأزوجك بنت حلوة من عائلة مستورة .

(والتصق التاج فوق رأس سناء بتاجى وقال لها القسيس:
« ما ربطه الله لا يفرقه الا الموت » ..) فشاهدت سرير أمى وروحها
قرب النافذة وشمنت رائحة الكولونيا النفاذة .. ولما نظرت الى
صورة اليابانيات العاريات فى الحمام ، أشار أبى إليها وقال :

- اشتريتها من قبل ان تولد أنت وكانت أمك ما زالت
شابة جميلة ..

يدورون بالبخور حول الصندوق - الجرس مستمر -
الشريط الأسود .. المسيح مصلوب هنا وعندنا فى الصلاة
كذلك .. حيث خلق أبى فى الحائط المقابل آية : « ان الله على
كل شىء قدير » .

- اتعلق آية المسلمين ؟ !

- أعجبنى المعنى ، وأنا لست متعصبا .

- ولكنها آية المسلمين ؟

البخور .. الدقات النحاسية .

- ليس كل المسلمين اشرارا ، منهم من هم أكثر طيبة من
المسيحيين ..

القسيس . المبخرة تتأرجح .. الصليب في يده :
- ... وقو يا ربنا أهلها بالصبر والسلوان ..
حركة .. خرج الصندوق .. خرجنا .. ربتت كف
على كتفى :

- شد حيلك .

لم أعرف الرد .. هزئت راسي .. صوت الجرس
يعلو أكثر حماسا .

* * *

« محلات بشرى وفخرى » .. « جنة رضوان للملبوسات
الفاخرة » .. « شارع التجارة » . الزحام . تعبت قدمائى
الطريق طويل ينتهى عند النيل ، عند « موردة الحنش » ..
القسيس والموسيقى والملاك المذهبان لم يطيرا بعد برغم ان
جناحيهما مفرودان . الصندوق .. الذقات الرتيبة ..

- الله اكبر .. الله اكبر ..

ما هذا ؟ ! نظرت حولى .. سمعت همهمات .. التفت :
العدد الكبير من خلفنا .. ثم .. ثم .. نعش آخر ، مسلم
ان مسلمة فى الخشبة ، ميت او ميتة يسرون خلفنا والشارع
ضيق ..

- الله اكبر .. الله اكبر ..

التفت ثانية : فى أعلى الخشبة طربوش - رجل -
يرحمه الله .. يد تهزنى .. دقات الطبله الكبيرة تشتد .. صوت

الجنّازة الخلفية ارتفع .. زعقت الآلات النحاسية بصوت أعلى
قويت ترتيلات المسلمين .. اليد تهزنى .. طفل .. نظر :

— يا عم .. يا عم .. من مات ؟ من مات ؟

من مات ؟ .. هي .. هي التى .. غصة فى حلقى ، بدأت
عيناي تغرورقان .. سمعت ضوتا بشخط :

— امش يا ولد .. امش .

الفصة .. لكن ما هذا ؟ ! .. ترتيلات المسلمين تسرع
تلهث ثم بدعوا يشقون طريقهم من فوق الرصيف ، مسرعين جريا ،
لاهثين ركضا .. عجيبة !! سبقونا .. سبقوا الصندوق والعربة
والخيل .. ثم هدعوا وابتعدوا وعادت زناة اصواتهم ..

— ما الحكاية ؟

صوت خالى :

— لا يريدون أن يسبق ميتهم ترتيل النصارى ، ولا أن
يسير أمامه صليب القسيس .

دهشت ، أحسست بالدهشة . أسرع خالى واقترب من
سائق العربة :

— بسرعة يا ريس بسرعة ، الحق بهم واسبقهم ..

تقدم أبى :

— لا داعى يا خالى ، لا داعى .

— لا يصح أن تسير بنت أختى من خلفهم حتى ولو كانت
زوجتك ، بسرعة يا ريس بسرعة .

النيل .. « موردة الحنش » .. رفاص البلدية ، دخل
الصندوق فوق المركب .. وقفنا في صف بدأ بأبى ثم خالى
وانتهى بهم جابر ، وانصرفت الموسيقى والقيس وبعض الناس ،
ركب البعض مع الصندوق - دليل الاعزاز - أكثر من مائة ..
صعدنا الرفاص .. كان المسلمون قد سبقونا وجلسوا صامتين ،
نظرت لهم ، التفت الى البر الى المدينة .. نظرت لهم ثانية :
أعرف فيهم حسن ، اقترب :

— البقية في حياتك .

— عشت .

مياه النيل تندفع الى الخلف ، اللنش يسير الى الأمام - لكل
فعل ود فعل - الشمس ، الجبل هناك والمنيا في الخلف - هساو
له في المقادير - الأحياء غرب النيل والأموات في شرقه .. صوت
خالى - ومضاد له في الاتجاه - خالى :

— بنيت هذا المدفن منذ ٢٤ سنة .. أيام الرخص ولم
أبخل به على عزيز من العائلة .

المنيا تبتعد .. صوت الرفاص ، الساكنة .. بكاء أخى
الأكبر - البكر - صوت خالى :

في كل عيد أعبّر النيل الى الشرق وأدخل المدفن أصلى
على أرواح أحبائنا هناك .

تل المقطم يقترب .. يعلو ..

— في العيد الصغير منذ أربع سنوات رصت صناديق
الرجال في جانب وصناديق السيدات في الجانب الآخر ، وكان
منظرهم جميلا !!

« هذا الرجل هو دافى العائلة »

— وفى العيد الصغير منذ أسابيع وجدت أن المكان مزدحم
فنقلت رفات كل الرجال فى صندوق واحد وأخرجت الباقي ،
كذلك فعلت مع السيدات .

النيل ، الدنيا صفرت بيوتها مآذنها أجراسها .. كف
الجرس ، ربما لا أسمعه بعد المسافة .. مقدمة اللنش تشق
المياه نصفين . « كل رجال العائلة فى صندوق واحد على جانب » .
قرية « سواده » ظهرت فى حضن الجبل — « وكل السيدات فى
صندوق آخر على الجانب الثانى » . صوت عم جابر .
ذكرياته عن السودان وجنادل النيل والنيل الأزرق وأحيانا عن
السودانيات الجميلات ! . ابتسمت ، لم ابتسم .. أقارب المسلم
يجهشون بالبكاء .. أبكى ، لم أبك ! . أخى الأكبر احمرت
عيناه ، الا أنا — البر يأتى إلينا — لكنى أحبها — نحن ندخل
البر — احبت مشمش لانه آخر العنقود .. لكنى أحبها ..
خلتني الدموع !!

دخلنا البر ، التصق بنا .. هبطوا ، هبطت .. لم يهبط
المسلمون ، مقابرهم فى الموردة التالية فى « زاوية سلطان » ..
الصندوق فوق الرجال ، الرجال يدوسون فوق التراب
والصخور . اللنش يتابع سيره جنوبا .. التراب ..



تل المقطم .. أزقة ترتفع صاعدة بين البيوت والجحور ،
عيال يستمرون فى لعبهم ، اعتادوا قنوم الغرباء بالصناديق
وعودتهم دونها ، تبعنا بعض الشحاذين ، دخلنا حارة سد
عبرناها ، فى آخرها ممر ضيق .. صعدنا — على بعد عدة

كيلو مترات قرية تونة الجبل - تعب خالى ، وقف امام أحد
الأكواخ لاهنا :

- سأنتظركم هنا ، تعب .

تابعنا ، سعدنا .. دخلنا فى زقاق آخر - فى حزن وفى
بطن الجبل بنوا تونة الجبل للخالدين - «مقابر أسرة نجيب
باسلى» .. سرنا .. «مدايق عائلة كامل عياد» .. تابعنا ..
«الحمد لله فى الأعلى» .. سعدنا .. «مقبرة عائلة ...» :
أخيراً ها نحن .. نهاية المشوار .

اسم خالى ، وباب حديدى ، الصليب بالطلاء الأبيض فوقه ..
الصخور .. وضعوا الصندوق على الأرض .. التعب .. المفتاح
فى يد عم جابر ، تقدم وأمسك القفل - ييل انجليزى أصلى -
التعب ، تنجح :

- باسم الله ..

أدار المفتاح ، عاكسه ..

- صدئ القفل .

تقدم رجل من أهل القرية ، أخرج المفتاح وبلله بريقه ثم
فتح الباب الحديدى .. نظرت ، شمت رائحة غريبة ، هل
بالداخل عظام ودود ؟ ! - «صندوق لكل النساء ، وصندوق
لكل الرجال» - حملت فى فتحة الباب .. ظلام ظلام .

- باسم الصليب .

ثم دخل عم جابر ، وقف ثوانى حتى تعود عيناه على
الظلام ، دخل معه رجل آخر .. اسندار ، اقتربوا بالصندوق ،
دفعوه اليهما فسحباه ، دخل الصندوق - الآن صندوقان

للسيدات فى جانب وصندوق واحد للرجال - ظلام .. بكاء أخى يرتفع - أبى يضبط على نواجذه بشدة ، هز رأسه فى عنف ، غارت تجاهيده ، الظلام : أطل عم جابر منه ، ناولوه موسى ، دخل ثانية .. الظلام مرة أخرى .. نظرت الى جارى ، زبت على كتفى .

- ليمزق الكفن الحريرى حتى لا يسرقه اللصوص .

أبى تتحرك شفتاه فى تمتمة غير مسموعة .. وأنا ؟ ! .. يجب أن أقول شيئاً ، هل أصلى ؟ ! . يجب أن أبكى ، لا بد .. صوت جارى :

- اللصوص هنا لا يراعون حرمة الميت ، فى الشتاء يسرقون الصناديق ويستدقثون بحرق خشبها !!

فتحة الظلام .. حملقت (رأيت الدود والعظام ، ثم رأيت بمنجله يحماق نحوى ، رأسه جمجمة .. عزرائيل) .. تراجع خطوة ، لو عزت بجانبى الآن (المنجل بثلاثة زعوس .. تحرك تخلخلت عظامه ، اصطكت أسنانه) .. شهقت ، لو عزت معى ، وجه سناء (رأيت دودة كبيرة ممسكة فى فمها بلسان إنسان) .. كدت أسقط ، أمسكنى رجل (ودودة تلتهم عين إحد أقربائى ! وعشرات الدود حول قلب صامت !!) ترنحت .

- شد حيلك يابنى ، شد حيلك .

وجه أمى ، عزت .. الظلام : خرج منه الرجل ثم عم جابر ، أمسكا الباب الحديدى (رأيت الملاكين ، المسيح فوق السحابة صعد ، ارتفع) سدا باب الفتحة ، الصليب بالطلاء ، القفل .. اختنق أبى :

- مع السلامة ، مع السلامة ، مع السلامة .
- انهار أخى الأكبر .. ارتعشت ، دارت الأرض ، سدننى ، غامت الدنيا .
- كوب ماء من البيت الذى هناك بسرعة .
- بردت أطرافى .
- شد حيلك يا ابنى ، شدوا حيلكم ، عيب انتم رجال .
- شعرت بالقصة .
- اشرب .
- شربت .. بدات انفس .. اقترب الشحاذون ، تحفزوا هجموا على أبى ، تمسحوا به :
- البقية فى حياتك يا بيه .
- نهرهم عم جابر .
- ربنا يطول فى اعماركم ، البركة فى الأنجال .
- اخذهم جانباً ، اخرج من جيبه نقوداً صغيرة ، وزعها عليهم .. وسقط بعضها على التراب ..

* * *

جاء الرجال :

- البقية فى حياتك .

سمعت جارى يقول لجاره انه ذاهب لعزاء الميت المسلم
ثم يلحقه بعد ذلك على المقهى ليبارزه عشرة طاولة .

خرجوا .. جاء غيرهم :

— شد حيلك .

هزرت راسي .. جلسوا ، تمتمت بكلام غير واضح ،
تحدث جاري مع زميله عن رحلات الفضاء وعن الترقيات
وشكى له من رئيسه وزوجته النكدية .

دار عليهم القهوجي بالقهوة السادة ، دبت عليهم بعلبة
السجاير الكبيرة .

— شد حيلك .

أخرج أحدهم قطعة حلوى وضعها في فمه وقال انه كف عن
تدخين السجائر بعد أن نصحه الطبيب بذلك ، ثم حدثه جاره
عن غلاء السمن البلدي وانه لا يثق في السمن الصناعي وانه تعود
على شرب كوب من اللبن كل صباح .

جاء بعض التلاميذ ، جلسوا في نهاية السرادق مبالغين في
حزنهم ، نصحني جاري بأن أجلس بجوارهم :

قال تلميذ :

— استاذ العربى طلب منى أن أبلغك تعزيتة .

هزرت راسي ، أصابعه تضغط على بعضها البعض ..
ذهبت مع بعض أصحابي لفزاء زميل لنا وكانت أول مرة ،
وكبس علينا الضحك دون سبب بفعل شيطان غريب الشأن ..
هل يكبس عليهم الضحك الآن ؟ ! لكن عزت لم يات معهم ! من
المؤكد انه عرف .

مشمش يجلس منزويا ، يبدو غير مدرك للأمور ، كانت تحبه

أكثر من جميع الأسرّة ، آخر العنقود طبعاً .. نظرت له ، قرضت
أظافري . لو جاء عزت ، لو بكيت !

انصرف التلاميذ .. جاء عم جابر وجلس بجوارى ربت
فوق ركبتي :

— البركة فيكم ، كن رجلاً .

— حاضر .

انهماك مع جاره في الكلام ، ذكرياته عندما كان يعمل في
السودان ، لا يجيد الحديث إلا في هذا الموضوع .. آه ..
ها هو عزت ، جرى الدم إلى وجهي فجأة ، بدا مبتسماً شديداً
العبوس كأنه أنا :

— البقية في حياتك .

أحسست بفرحة ، جلسنا .

— كيف حدث ذلك ؟ . هل كانت مريضة ؟ لكنك لم
تخبرني ؟ دائماً أنت كتوم ؟ !

استمر عم جابر في حكاياته :

— كان كل السودانيين يحبونني ، ويكوا عندما تركت
السودان .

نظرت إلى الناس ، يتحدثون أو يفكرون أو يتشاءمون ..
ميشيل — مشمش — كبس عليه النوم .

— وكثيراً ما خرجت إلى رحلات صيد في الأدغال ، أدغال
السودان والحبشة .

زغدني عزت ، رمقني بنظرة مأكرة .. كنت قد حدثته
عنه كثيراً .

— ومرة خرجنا الى الغابات مع بعض الأصدقاء السودانيين .
كنا مسلحين طبعا ، وفجأة خرج لى حيوان صغير جدا ، لا هو
بالأسد ولا هو بالنمر ، ولم يكن ببرا أو ذئبا أو أى حيوان أعرفه ،
استصغرت شأنه واستخسرت فيه الرصاصة ..

كتم عزت ابتسامته .

— لكن أحد السودانيين قال لى : احمد ربنا ، كتب لك
عمر جديد ، هذا الحيوان برغم تفاهة حجمه خطر وسمه
قاتل ، اذا عقر انسانا فقل عليه العفاء ، ولا بد ان يموت على
الفور ، ولا علاج له !!

هز السامعون رءوسهم . رفع عزت يده وعبث فى شعره
ليخفى ابتسامته . فعلت مثله ، وعندما هم عزت بالانصراف قال
انه لن يذهب الى المدرسة فى اليوم التالى ، وانه سيقضية معى .

اخيرا فوق السرير والحجرة مظلمة .. دخل ضوء الصالة
من الباب وانعكس على السقف .. أبى وخالى وأخى الأكبر
يتحدثون ، صوت خالى :

— الروح تبقى فى الشقة ثلاثة أيام . تظل مكانها حتى يأتى
القسيس ويصرفها فى سلام لتصعد الى السماء .

صوت العمال يهدمون السرادق فى الشارع .. أذن فهى
ما زالت هنا ، فى مكان ما .. صوت أبى :

— كان المشيعون كثيرين ، جاملت الناس فجاملونى .

هل هى فى حجرتها المغلقة حاليا ؟ أم معهم فى الصلاة ؟ !
ضغطت جفونى بشدة .. كانت تحبى وأنا أحبها كثيرا
دون شك .

سمعت الولد أحمد ابن جارتنا يهتف من أسفل بيته :

– ولع النور .. ولع النووور ..

صوت أخى :

– كان أول الجنازة عند شركة بيع المصنوعات وآخرها عند
الصهرنج !!

كنت مثل الولد أحمد أخاف صعود السلم المظلم ، كانت
أمى تقف لى من فوق وتظل تحادثنى :

– اطلع ، أنا واقفة .. لا تخف اطلع ..

واركض السلم فى ثوان .

اكمل صوت أخى :

– برغم أن النعى سينشر فى الأهرام غدا ..

ربما تكون فى حجرتى الآن ، فوق السرير أو فى أحد الأركان،
من المؤكد أنها بجوار مشمش .

سمعت صوت بائع الزبادى فى الشارع ورأيت السلة تهبط
من الشقة العليا ثم ترتفع بعد قليل وبها المزبادى ، وصوت باب
البقال أسفلنا يعلق .. وفى منتصف الليل سوف أسمع صوت
« السيفون » فى الشقة المجاورة .. وفى الفجر صوت نحنة
هسكرى الداورية فتزد عليه بعض الكلاب بنباح حاد .

صوت أبى (لأخى) :

- هل صفت النعى جيدا ؟؟

- كتبته بفعل الماضى وقلت ان الجنازة شيعت أمس
من « كنيسة الأمير تادرس » .

والعزاء تلغرافيا « حنا بشارع ابن خصيب » .

ماذا ستفعل سناء عندما ترانى غدا ؟ . حملقت فى السقف
(فرأبتهم يضعون صندوقى فى العربة المذهبة ، وبكى كل الشارع ،
وأصرت سناء على أن تعبر خلف نعشى الى الشرق حيث وزعت
الصدقة على روحى) . لكنى لم أبك بعد .. « كل النساء فى
صندوق واحد . وكل الرجال فى صندوق آخر » صوت خالى :

- هل كتبت بالنمى اسم صادق ابن بنت خالتك ؟

- نعم ..

صوت أبى :

- تعب الشارونية معنا هذا الصباح ، هل ذكرتهم بالنمى؟

- نعم ..

شعرت بالجوع . لم أتعش جيدا ، لم يلح أحد على بالأكل ..
وجه أمى ، السقف ، ابتسامتها .. وجهها :

- عاوز أتعشى .

- ماذا تريد ؟

- أى شيء .

- جينه ؟

- لا ..

- غسل ؟

- لا ..

- ماذا تريد اذن ؟ !

- أريد أن أتشى .

- هل اسلق لك بيضتين ؟؟

- لا احب البيض وأنت تعرفين ذلك .

- يا مكسور الرقبة تعبت قلبى ، ماذا تريد ؟ !

سال خالى :

- على الله الا تكون نسيت أيوب بالنهى ؟

- كتبته ، هل اقرا لكم صيغة النهى ؟

- احسن ..

صمت .. وجه سناء .. أشباح على السقف .. لن يسألنى
احد : ماذا تأكل ؟؟ جينة أم عسلا أم بيضا ؟؟ استدرت فوق
السرير .. اطلع ، أنا واقفة ، لا تخف ، اطلع .. قرا صوت
أخى :

— وفاة سيدة بارّة .. انتقلت أمس الى الأمجاد السماوية
السيدة

ولكن هذا اسمها !! أمى .. انتقلت .. الى الأمجاد
السماوية .. السيدة .. السيدة أمى !

انكفأت على وجهى .. المخدة .. اطلع لا تخف .. ارتعشت
يداي .. أنا واقفة لك ..



فوستوك يصل إلى القمر

فوستوك يصل القمر

« الى القمر بالسلامة يا فوستوك »

وقف السائق يقرأها مكتوبة على مؤخرة السيارة ،
ربما للمرة المائة في خلال اليومين الآخرين ، ويبتسم لنفسه
في زهو . كان صاحب السيارة يريد أن يكتب مكانها عبارة أخرى :
« يا خفي الألفاف نجنا مما نخاف » . ازاء تمسك السائق
بجملته قنع بأن تنزوي عبارته على باب السيارة حيث هي مكتوبة
الآن ، وترك المؤخرة بطولها وعرضها لسائقه يكتب عليها ما بدا
له . فكتب جملة السابقة ، ورسم أعلاها صاروخا صغيرا في
طريقه الى قمر رسم على هيئة وجه انسان يطل باسماء في سعادة
من خلال زهور جميلة زاهية تحيط به .

ويخرج من فم شرطي المرور ثعيانان يلدغان السائق في
اذنيه :

— اطلع يا اسطى ، لا تعطل السيارات من خلفك .

وتموت ابتسامة السائق .. ويستدير .. وبسرعة تتحسس
يده الاطار الخلفى ليطمئن الى سلامته ، ثم تمتد الى باب السيارة
لتفتحه وهو ينظر الى اعلى حمولتها وينادى الشيال :

— نائم انت ام متيقظ ؟

ويعرف الاجابة عن سؤاله لانه لم يسمع اى رد على ندائه .

يمد يده ليدير مفتاح البنزين ، وهو يستعيد بالله . مع
ازدياد سرعة السيارة ومع ارتفاع انين محركها ، بدا سائقها
كطفل يركض وحيدا فى طريق مقفر معتم ، فأخذ يردد فى سره
عبارة صاحب السيارة : « يا خفى الألفاف نجنا مما نخاف » .
والتي اخذ يرددها بصوت اعلى وابقاع اسرع .

والسيارة تزحف وهى تهز الطريق بثقلها الزائد ، مشيرة
ضحيجا صاخبا مزعجا ، لا يضيع فى الهواء ، بل يتحول الى
قمقم يخرج منه وحش رهيب المنظر ، وقد امسك فى يده بمطرقة ،
وفى اليد الأخرى بسكين حاد النصل مكشرا عن ابتسامة
بغیضة . رآه السائق وهو يقترب منه فى اصرار وعناد ، ثم وهو
يتسلل خلال الزجاج المكسور ليجلس بجواره . فهتف :

— يا خفى الألفاف ، يا الهى ها هو قد عاد ليضايقنى ..
لم يكتف بالسكن أمام منزلى ، بل يطاردنى فى كل سفر
أقوم به !

ثم يلتفت الى الوحش ، وبأسخس سلام يقشدهم له طبلتى
اذنيه :

— ها هما ، خذهما ، أطرق عليهما كما تشاء .

لكن الوحش لا يكتفى بذلك ، ويلوح له بيده المسككة بالسكين . وكانسان يقدم ذبيحة قربانا لاله رهيب يخرج السائق اعصابه من رأسه ، ويضعها أمام الوحش الذى يفرح بها . ويظل يعمل فيها تقطيعا ، شاربا الدم الذى ينزف منها .

ينظر السائق الى الطريق بآلم ثم يبصق . لو أحضر معه قطعتين من القطن سد بهما أذنيه لكان قد أخفى طبليتهما عن هذا الوحش ، لكن الأطباء منعه من ذلك .

تخطر على باله فكرة ، فيخرج سيجارة يشعلها وينفث غضبه مع دخانها في وجه الوحش ، ثم يحاول أن يلسعه بنارها ، لكن الوحش لا يابه بذلك ، ويتمادى في طرقة لطبلى الأذنين وتقطيعه لأعصاب الرأس ، بينما الشمس من وسط السماء تلهب العربة بنارها .

تنتهى السيجارة في يد السائق وتلسعه ، فيلقىها بسرعة ، لاعنا كل شىء من حوله ، لكنه عندما يرفع بصره ويرى الحجاب المعلق أمامه تنفرج أساريره ويتمتم :

— يارب عفوك ورضاك .

ينظر الى الطريق أمامه ، ويجول بناظريه فيما حوله : مخلوقات كثيرة وعجيبة . وجد نفسه يتأملها كمن يراها لأول مرة ، بط يسبح في التربة الموازية للطريق ليطفىء نار اغسطس فى إميائها ، بقر لا يتوقف عن الأكل الا ليأكل ، جاموس ربط الى السواقى ، كلاب تشيعه بنباحها وترتد خائبة مخرجة السننها ، وخرواق ساهم ميجنى الرأس كرب أسرة يفكر فى كساء

أولاده .. وناس ، آدميون كثيرون في صور مختلفة ، فيهم الذي يدير ساقيته وفيهم الجالس ليأكل ويأكل ، وفيهم المختلطون من دخان العربة فيشييعونه بشتائمهم ، ومنهم الجالس حزينا يعبث بأصبعه في تراب الأرض ، ومنهم الذي خلع ملبسه ونزل الى التربة سابحا .

لم يجد السائق ما يعبر به عما يجول في خاطره الا أن هتف:

دنييئا :

وينظر الى الطريق .. ويبصق !

يلتفت الى جواره ، الوحش مازال رابضا ، يلعب لعبته القاسية .. يتساءل : الايباس !

أمامه على الطريق يسير فلاح ، اجتمى من الشمس هو وبقرته التي يجرها وراءه بالأشجار المزروعة على جانبي الطريق .. وعندما عاد السائق لينظر أمامه وجد أن عربته تتجه في اصرار صوب بقرة الفلاح تريد أن تفرسها ، لكنه يسارع ويضغط على الفرملة بعنف .

من خلال ذهوله يسمع شتائم صاحب البقرة له ، يلتفت الى الوحش جواره ليوبخه فلا يجده ، اختفى بعد أن أعاد اليه طبلتي أذنيه فقط . ويلعنه :

— هرب الجبان ، عاد الى قمقمه بعد أن سرق أعصاب رأسي !

ثم ينظر الى صاحب البقرة ويعتذر له :

— هدم المؤاخدة « الدزيكسيون فوت » .

ينزل الشيال - الذى أيقظه وقوف السيارة المفاجيء
وشتائم صاحب البقرة - ويطيب من خاطر الفلاح ، ويربت على
ظهر بقرته ، الى أن ينصرفا .

تعود السيارة لمسيرها بعد اصلاح عطبها ويجلس الشيال
بجوار السائق ، يصرخ وهو يحاول أن يعلو بصوته على صوت
المحرك :

- سامع يا أسطى صوت المحرك .. ولا مكنة الحرث !!

تنفر العروق من رقبة السائق :

- صاحبها سلمها لى قديمة ، مالى أنا ، ما ذنبى أنا !

ويلتفت الشيال ، فيجد الوحش قد عاد وجلس بينهما ،
ويعجب .. كيف لا يراه الشيال ؟ ويفتم .. وليخفى حزنه أخذ
يتكلم محدثا نفسه ، والشيال يظن أن الكلام موجه اليه .

لشد ما يغيظه أن هذا الوحش وراءه أينما حل ، فى السيارة
وفى المنزل . فقد جاء وسكن فى ورشة السكة الحديد المواجهة
لمنزله ، والدائمة الضجيج سواء من أصوات المطارق أو القطارات،
مما يجعله هو وزوجته وأولاده يتحدثون بأصوات عالية ، وكان
المسافة بينهم مئات الأمتار ، وهم فى حجرة واحدة ، ولم يكتف
الوحش بذلك ، بل تقمص أجساد أولاده فتعودوا على الصراخ
فى حديثهم حتى وأن لم تكن هناك أية ضجة ، لدرجة أنه لم
يكن يستطيع أن ينام الا بعد أن يثنى الوسادة على رأسه رغم
حرارة الجو ، ليخفى طبلى أذنيه من هذا الوحش اللوح .

ويبتهل السائق :

— يارب ، خلقت الانسان من طين ، حسنا ، لماذا خلقت معه الوحوش !

ثم يحدث شياله :

— هل هذا كثير على : منزل هادىء فقط ، فى اى مكان ..
ولو فى القمر !

يضحك الشيال وقد اعتبر هذا الكلام مزحة . ثم يتساءل :

— قل لى يا اسطى ، لو عرضت لك فرصة للصعود الى القمر ، هل ترضى ؟

— وما المانع ؟ !

— القمر فيه وحوش !

باستنكار يصرخ السائق :

— من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟ !

— رابته فى فيلم امريكى ، وحش نزل من القمر الى الارض وحطمها .

— مجنون الذى صنع هذا الفيلم .. ومخرف .

ثم يحدث نفسه :

— حتى ولو كان فى القمر مثل هذا الوحش ، فهو ارحم من الوحش الذى يطاردنى هنا فى الارض .

يشعر بأن الكلام الى شياله يريجه ، لكنه يلمح فى الطريق رجلا يشير اليه بيده ، فيبطيء من سرعة السيارة ويطلب من الشيال أن يعود الى الخلف مرة أخرى ، ليكسب من هذا العابر

ولو ثمن الدخان ، فالحياة نار ، وهو ما يرضى بشقته المزعجة
القابعة أمام ورشة السكة الحديد حيث يسكن الوحش إلا لأن
أيجارها منخفض .

تقف السيارة بعد أن جاوزت الرجل بعدة أمتار ، فيسرع
من خطاه وهو يتسسم للجملة التي قراها على مؤخرة السيارة ،
ويسأل :

— ما حكاية فوستوك هذا !

تعود العروق في رقبة السائق لتنفّر ، أنه الصاروخ الذي
سيصعد إلى القمر الذي يراه دائم البسمة في سمائه ، دائم
الصمت والسكون .

يرى الدهشة مرتسمة على وجه الراكب فيخبره بأنه
مواظب على قراءة الجريدة اليومية . . ويمضى يحدثه في السياسة
عن أمريكا وروسيا ، ثم عن الإنسان ، البنى آدم ، وصاروخه
وطمعه ، وفقره . وعندما يتذكر مشكلته يصمت برهة ، ويرمق
الوحش ، ثم بهز رأسه مؤكدا أمرا ما لنفسه :

— والله يا أستاذ أنا يهيا لى أن القمر كله هدوء وليس به
ضوضاء ولا ضجيج كما عندنا هنا .

يضحك الراكب ، وفي طنطا ينزل وهو يدعو للسائق بحياة
هادئة .

تخرج السيارة من طنطا لتكمل رحلتها ، وهى تهز الطريق
من سرعتها ، وتزعج الطيور في أشجارها بصوتها الراعد ،
وتثير من خلفها التراب ، وتسحب وراءها شريطا كريها من

الدخان الأسود الكثيف حجب القمر الرسوم على هيئة وجه
انسان باسم ، ثم مضى يتسع ويتخلخل راسما أشكالا عجيبة ،
بدت وكأنها أرقام خطت في الهواء . خمسة .. أربعة .. ثلاثة ..
اثنين .. واحد .. الصفر . ثم كان الحادث . ، وانقلب وجه
القمر الباسم من وسط الزهور !

وعندما يفيق السائق ، ويفتح عينيه ، وقد لفت رأسه
بالشرائط ، يرى بجواره رجلين وامرأة في ملابس بيضاء ، ويبتسم
للهدوء والصمت الذى يشمله . كان الوحش قد اختفى . ينظر
الى وجهى الرجلين فيها له انهما يتحدثان .

كان أحد الطبيبين يقول للآخر :

— لقد حدث له ما كنت أخشاه !

وبالرغم من أن السائق كان يرى الطبيبين جيدا ، وبرى
بوضوح تام حركة الشفاه ، إلا أنه لم يسمع أى كلمة ، ان
ما حوله الصمت التام والهدوء الشامل .

يتساءل فى حيرة وقلق ، وهو لا يرى الوحش أمامه :

— هل فوستوك وصل الى القمر ؟ !

الوجه الآخر

كان يفي أن يتنسم بعض الهواء في
النافذة ، لكن الضجة الناتجة عن لعبة الحرب
التي يمارسها الأولاد في الشارع ، دفعته
الى أن يفلق زجاج النافذة رغم حرارة
الجو .

ينظر في ساعته ، عندما يكمل هذا العقرب النطاق خمس
دورات كاملة ، ويقفز العقرب الكبير خمس قفزات ، يكون موعد
عرض نشرة الأنباء المصورة في التليفزيون قد حان . يظل يرقب
الساعة ، ويرثي لحال ذلك العقرب النطاق ، ما يقطعه في
دورة كاملة لاهثة يقفزه العقرب الكبير في قفزة واحدة حاسمة ،
بينما ذلك اللثيم الصغير لا يتحرك من مكانه الا قيد أنملة لا تلاحظه
العين العادية . ينظر بحسد الى ذلك العقرب الصغير العريض .
يتنهد : والثلاثة في ساعتى !

تمتد يده تدير مفتاح الجهاز . ينتظر وهو يلوح بيده أمام وجهه ليحرك من الهواء الراكد ، لو بيدي الأمر لوجهت من التليفزيون مر العتاب الى هؤلاء الآباء الذين يهدون لأولادهم لعب الحرب . غير أن طرقاً عنيفة تطرق أذنيه تجذبه من أفكاره ، وكان صوت صاحب لضجة غير متميزة قد بدأ يصدر عن الجهاز ، فيحرق بعينه مستعجلاً ظهور الصورة حتى يعرف الحقيقة ، وتظهر .. باهتة أولاً .. ثم تأخذ في الوضوح ، لتهبط من أعلى الى أسفل كأن شيئاً يثقلها ، ثم تعود لتصعد من أسفل الى أعلى وكأن روحها تفيض .. فينهض عابساً ويمد يده يحرك أحد الأزرار حتى سكنت الصورة مرغمة .

ويجلس في مواجهتها .

كانت سلسلة في نهايتها ، فينظر الى بطلها وهو ينتهي من القضاء على أعدائه : كم قتلت اليوم أيها الهمام من الرجال ؟ . مائة ؟ ألف ؟ الأولاد في الشارع يقلدونك ! .. وكان البطل قد استغرق في قبلة الختام مع البطلة ، فيبتسم له : أنت تقتل كل هؤلاء من أجل هذه القبلة ! ويا له من ثمن ؟ لكنه رغم ذلك يفوض في مقعده منسجماً من منظر القبلة التي تنتهي عندها المسلسلة ، فيقول مودعاً بطلها : الى اللقاء غداً ، حيث تقتل مائة رجل أو ألفاً آخرين لتنال قبلة ثانية ، واطركنى لنشرة الأخبار أرها وأسمعها .

يشده صوت عراك آت مع المطبخ ، فينهض ليجد قطنه وقد قوست ظهرها ونفرت من شعرها ، شاهرة مخالبتها في وجه كلبه الذي استولى على قطعة عظم . يضحك لكلبه ، على كل فائتمة تتقاتلان من أجل الطعام ! . ويلقى بقطعة عظم أخرى للقطعة ،

فيبعد أحدهما عن الآخر ويعم السلام .. ويعود هو الى
التلفزيون حيث كانت انباؤه قد بدأت تتوالى .

يجلس امامه يسمع ويرى :

« الحرب تعود لتشتعل في دولة ... » .. وصورة طائرة
تسقط محترقة .. فيسألها : كم من الرجال قتلت ؟ مائة ؟
الف ؟ .. لكنك لن نالين قبلة !!

« صراع حتى الموت بين شطرى دولة ... » .. هابيل
لماذا تقتل اخاك قابيل !

« احتمال نشوب حرب ذرية عالمية » .. « اعصار يجتاح
استراليا » .. « تفجير قنبلة ذرية جديدة تحت الأرض » ..
نجازاكي أين ذهبت اختك هيروشيما ؟ !

ينهض نائرا ، أين الأنباء الطيبة ؟ !

وتدير يده المؤشر الى قناة أخرى ، وكان بها فيلم كرتون ،
قط يطارد فأرا ، بينما كلب يتربص للقط في مكان خفى . يغير
القناة مزمجرا : هل يشاهد قطى وكلبى هذا البرنامج ؟ ! ..
ويدور المؤشر الى القناة الأخيرة ، المذيع يقدم لتمثيلية « الكترا » ..
آه .. الحقذ الفظيع . انها لمؤامرة ، ان آلهة العذاب تطاردنى
اليوم !

يفلق التلفزيون .

ويروح فى الحجرة ذهابا ، سارفع شكوى الى اولى الأمر
ضد واضعى هذه البرامج . ثم يعود جيئة ، سألنها حربا شعواء
عليهم . يدق بقدمه على الأرض ، نعم حرب .. ثم دقة ثانية
حرب .. ثم ثلاثة ورابعة وخامسة ، حرب حرب حرب ..

أمام المرأة يقف ، وينظر لنفسه مخرجا لسانه ، حتى
لسانك نطق بالحرب خمس مرات ! . يبادل خياله في المرأة
نظرات السخرية والازدراء ، ثم يعود ليشعر بالاختناق من حرارة
الجو . فيفتح زجاج النافذة ، لكن الضجة تهب عليه آتية من
أسفل النافذة « طاخ . طاخ . طاز » .. « بم . بم . بم » .

يفلق النافذة ثانية ، يجلس على المقعد المواجه للمرأة ،
فيلمح خياله يجلس أيضا تخطر على باله فكرة غريبة يقولها
لنفسه ، وهو يحرك يده أمام وجهه مستجديا نسمة خفية :

هل ينعكس داخل المرأة صوته كما انعكست صورته الآن ؟ !
هل كما يحدث للصورة خيال يحدث للصوت صدى ،
داخل المرأة ؟ !

ان العلم لم يفت في ذلك !! . ويهم بالنهوض ليحرب الدخول
الى الجانب الآخر للمرأة حيث خياله ، عله يعرف الجواب ..
كلما تقدم هو الى المرأة ، تقدم خياله ليخرج منها .. لن تكون
معا في نفس الجهة !

يصطدم بالمرأة ، ليفيق ليجد ذهنه يكرر قولة مدرسه في
الابتدائي « ان المرأة سطح لامع » .

وينظر امامه ليجد خياله يرمقه مذهولا ، ثم ضاحكا في
سخرية !

يجلس .. ويعود ليرمق خياله ، مازال يتابعه بنظرات
الازدراء ، متهما اياه بالجنون والتخريف ، فيركن برأسه الى الخلف
مستندا الى مؤخرة المقعد ، ويفمض عينيه لثوان ، ثم يفتحهما

ببطء رامقا خياله فى المرأة بحذر . ولكن .. يا للعجب !! انه
ليس هناك !! .. هل تمكن من الخروج فيكون قد فعل ما فشلت
افيه انا ؟ !

يتلفت حوله فى الحجرة .. هواء راكد .

يعود ويحملك اكثر فى المرأة .. آه .. الحمد لله .. ها هو
يعود . ولكن من هذا ؟ ! لست انا ! .. وينظر الى نفسه
بالبيجامة ، بينما ذلك الذى بالداخل يرتدى سروالا طويلا من
القماش الأبيض الهفهاف . يتحسس ذقنه ، انه حليق ، اما الآخر
فله لحية طويلة بيضاء مهيبة !! يدقق النظر الى وجهه ، نفس
ملامح وجهى ، انه انا .. نعم هذا انا . ويتساءل : كيف استطاع
الخيال ان يغير من نفسه كل ذلك بهذه السرعة ؟ ! .. ولكن قد
يكون فى مقدرة الخيال ان يفعل ما لا يستطيعه الانسان ، وعلى
كل فهذا نصفى انا .. لو لم اكن انا لما كان هو .

يجلس يراقب الرجل الآخر باهتمام بالغ وشغف متزايد .

لقد انحنى ليثبت لوحة فوق حامل خشبى ، يحملها ويتجه
الى باب الشقة !

ينادى عليه : انتظرنى ، اين تذهب ؟

لكن ذا اللحية البيضاء المتشح بالبياض يتجه فى اصرار الى
الخارج ، وجهته الشارع .

وفى الشارع يتوقف الأولاد عن لعبة الحرب ، ليتجمعوا
حول ذلك الرجل المضحك ، الذى يحمل لافتة بيضاء كبيرة
عجيبة . ويقول ولد له شعر نافر لزميل له ذى صوت أجش :

- هناك كلمة مكتوبة في ركن اللوحة ، هل تستطيع قراءتها ؟

يعجز زميله عن قراءتها ، ويقدر على تصويب مسدسه الى اللافته ، مطلقا منه قطعة صغيرة من الفلين هى قذيفته .. ثم ينفجرون جميعا في هتاف واحد :

- الابله .. الابله ..

يتحرك ذو الرداء الأبيض في بطء حاملا لافته ، خطت كلمة « السلام » في ركن منها ، وعلى وجهه روحانية الأنبياء .

يتوقف الناس من حوله تاركين أعمالهم ، مؤجلين عجالتهم ، ليكونوا زفة كبيرة من العيون الدهشة ، وموكبا ضخما من الشفاه المزمومة في شيء من الاستخفاف .. وبين أرجلهم اندست بعض الكلاب تشاركهم فرجتهم .

بمين صافية يمضى ناظرا أمامه ، الى الأفق البعيد ، بين ضحكة ساخرة ، بين مصمصة شفاه متحسرة ، بين ضربة كفين متعجبة ، بين بسمة متفائلة .. تمضى قدماه .. تسبق القدم اليمنى اليسرى .. فتعود اليسرى لتسبق زميلتها .. والناس من حوله يملون فينصرفون لأعمالهم ، تاركينه لغيرهم يعيدون معه الكرة .

والعقرب النطاط في الساعة يدور دورات كثيرة ، والكبير يسرع في قفزاته ، والصغير اللثيم يدور ويدور .. وذو اللحية البيضاء المسترسلة يمضى بلافتته ، مارا بوجوه بيض مرة ، ووجوه صفراء أخرى . ناظرا الى عيون زرق أو سمر ، ساخرة ، ضاحكة ، باردة ، مجعدة . يقول لنفسه : لا يهم أى

قوم هؤلاء أو أى بلد هذه ، ساطوف العالم كله ، ان رسالتى
للناس جميعا لبنى الانسان ، أحفاد نوح ، حفيد آدم .

والهلال فى السماء يكتمل بدرا ، ليعود من جديد هلالا .

وتمر به سيارة فاخرة ، يطل صاحبها اليه ويقول
للدين حوله :

— لا تلتفتوا الى هذا الرجل المجنون ، انه المسيح الدجال .

يتأثر البعض بهذه القولة ، والبعض لا يأبهون ، ويتابعون
الرجل .. وعقرب الثوانى يدور فوق زميليه ، ويجبر الكبير على
أن يقفز قفزة كلما دار هو دورة ، والكبير بالتالى يجبر الصغير
العريض على الدوران خلفه .

تتغير الوجوه بوجوه سمر ، وتطل أم من شرفة منزلها
اليه ، تنقل بصرها بين لافتته وبين أطفالها ، ثم تسرع ببسمة أمل
اليه لتقدم له كوبا من عصير البرتقال ، يقبله شاكرا بينما
تنهال على أذنيه طرقات ضحكة رجل ذى سيجار كبير أخفى
دخانه الكثيف وجهه !

ويسقط نظره أمامه على رجل نحيف رث الملابس يركز
عينيه على كوب العصير فيقدمه اليه ، وبسرعة يمد البائس يده
ويخطف الكوب ويشربه فى لهفة ، دون أن ينطق بكلمة شكر
واحدة .

وأوراق الأشجار تجف .. ثم تخضر .

وفى بلاد بيوتها عالية ، يلقونه بالبيض فى شارع ..
ويرحبون به فى شارع آخر .. وتنهال عليه الطماطم الفاسدة

فى حى آخر . وىقول مبتسما فى جلد : كل نبى مضطهد فى قومه ، وانا قومى سكان هذه الأرض ، لأنها أرضى والى ترابها أعود .. لكن احزنه تلك البقعة التى علقى بلافتته . وىظل بينهم حتى يؤمنوا به وىرسالته .

والحب فى الأرض ینبت زرعاً ، لیطرح حبا .

وكثیرون فى كل مكان تركوا اعمالهم وتبعوه ، حاملین لافتات مشابهة .. وىظلون سائرين من خلفه ، حتى شعروا بالجوع ، وصرخوا فى وجهه :

— جعنا یا معلم !

ببكى بالدموع ثم یلتفت الیهم :

— قد أكون معلمكم ، ولكنى لست المسیح ، المسیح بخمسة أرغفة اطعم الألوف ، أما انا فحتى خمسة الأرغفة لا أملكها .

ینفضون من حوله ، فیهتف فیهم :

— یا ضعیفی الايمان ، عودوا الى آلاتكم لتطحنكم ..

ویحزن عندما یأتیه الجواب :

— ولكن الآلة تستطيع صنع آلاف الأرغفة فى دقائق قليلة .

یبكى ، كثیراً ، وىظل یحاورهم ویناقشهم ، حتى یراهم من خلال دموعه ىكون ویركعون عند قدمیه ، قائلین له :
أخطانا ، أعمتنا الشهوات ، وأفسدنا حب التملك . وركع معهم ، وطلب منهم أن ىصلوا معه الى خالق آدم ، الى خالق نوح .

وتأتى لحظة الوداع .. ثم لحظة العودة .. فىقول الآن

أديت رسالتى ، الآن أعود الى البيت مطمئنا راضيا مستريح
البال .

عندما يدخل الشارع الذى به منزله ، كانت لافتته قد
امتلات بكلمة : « السلام » خطت بجميع لغات بنى البشر .

وكان أولاد الحى يلعبون .. أحدهم يقوم بدور طبيب ومعه
عدة فتيات يقمن بدور الممرضات ، وولد كبير يقوم بدور المدرس
لأقرانه الصغار ، وآخرون أحضروا آلات موسيقية قاموا بعزف
مقطوعات جميلة ..

يتعجب ذو اللحية البيضاء ، أنهم هم ! ولكن أين ذهبت
لعبهم القديمة ؟ ينظر جهة سلة المهملات ليجدها مملوءة بلبص
المسدسات والبنادق . ويبتسم للعبارة التقليدية التى تعلقها
البلدية على كل سلة مهملات :

« حافظوا على نظافة مدينتكم » .

عندما يلحقه الأولاد يسرعون ويحيطون به مهللين ..
ويسال الولد ذو الشعر النافر زميله ذا الصوت الأجش :
- هل تستطيع قراءة المکتوب على اللوحة ؟
يجيبه على الفور وبلا تردد :

- انها كلمة السلام بجميع لغات العالم .

وأخيرا يدخل منزله ، وقد امتلا الشارع بالناس ، يحملون
أغصان الزيتون ، رافعين رايات السلام ..

وعندما يدخل ذو اللحية المتشح بالبياض الشقة ، يقع
نظره أول ما يقع على الكرسي المواجه للمرأة ، فيجد أن الرجل

مازال يجلس هناك وقد أخذته سنة نوم ، وعلى وجهه ملامح
الرضا .

يبتسم مسرورا عندما يرى أسفل قدمي الرجل ، الكلب
الضخم وقد نام هادئا وبجواره القطة ، وقد ركنت برأسها على
ظهر الكلب . يتجه الى جهاز التليفزيون ويشغله فتتهادى
اليه مع النسمات اللطيفة التي تملأ جو الغرفة أغنية حب هادئة ،
يدير المؤشر الى القناة الأخرى فيجد المذيع يقدم تمثيلية بعنوان :
« لغة الزهور » .. وفي القناة الأخيرة يجد ندوة يشترك فيها
كبار رجال الفقه والعلماء عنوانها : « الأرض دولة واحدة » .

يبتسم في دعة .. ثم يفلق الجهاز ، وهو يقول لنفسه :
الآن اطمانت نفسى ويمكننى العودة الى حيث كنت .

بقدم ثابتة يتجه ذو اللحية البيضاء المتشح في بياض
هفهاف الى المرأة .. حيث يخترق حاجزها اللامع .. داخلا الى
الوجه الآخر .. ثم يلتفت الى الخلف ، الى الرجل النائم على
الكرسي المواجه للمرأة ، ويبتسم في طيبة سائلا نفسه :

— متى يستيقظ ؟ ! متى يستيقظ ؟ !

ويستيقظ الرجل فزعا على صوت ضجة كبيرة آتية من
المطبخ . وينصت ، انه كلبه وانها قطته . ينظر أسفل قدميه ،
انهما ليسا هنا ! . ينظر الى المرأة فيجد خياله .

يجرى جهة المرأة مقتربا منها ، فيقترب منه خياله ..
يحرك رأسه يمينا ويسارا ، فيفعل مثله خياله .. فيهز رأسه
في حيرة ، ويدعك جبهته في دهشة .. لكن صوت عراك قطته

مع كلبه يزعجه ، فيتجه الى المطبخ ليجد انهما عادا للشجار مرة ثانية ، وقد استولى الكلب على قطعة العظم من امام القطعة .. يضربهما ..

ويعود مسرعا الى المرأة ، ينظر داخلها . يقترب اكثر واكثر ، حتى يكاد وجهه يلامس سطحها ، فترسم انفاسه سحابة بيضاء من بخار الماء على وجه المرأة ، ويجد يده ترتفع ليخط باصبع خلال السحابة البيضاء كلمة : « السلام » .. لكن حرارة الجو في الغرفة تسرع بازالة هذا الندى .

يقول لنفسه ، رغم هذا لن اياس ، ساكون انسانا عمليا ، ساكتب عدة مقالات وارسلها الى جميع وسائل الاعلام في كل بلاد الدنيا .

وفعلا .. يتجه الى مكتبه ، ويخرج ورقة بيضاء كبيرة ، ويمسك بقلمه ، ويبدأ في قدح زناد فكره ، ليختار الكلمات المناسبة لمقاله .

تقع عيناه على عده دوسيهات كان قد احضرها من مقر عمله ليتم عملا ناقصا مطلوبا منه في اليوم التالي ، فتمتد يده الى اول دوسيه ويقول في نفسه : سأنهى من هذه الدوسيهات أولا ، ثم أشرع في كتابة مقالى .

عند منتصف الليل ينتهى من الدوسيهات ، ويجد نفسه مجهدا فيقول : لا بأس من تأجيل كتابة المقال الليلة ، ولكن غدا بكل تأكيد سأقوم بذلك .

في طريقه الى سريره تمتد يده لتطفىء النور ، فيعم الحجرة ظلام دامس .. الا من ضوء خافت لنجم في السماء ..

الرصيد

صوت أمى يهز أذنى ! « يا ولدى البرد
قارس ، والسهر مؤذ » . انتظر الأوتوبيس .
نسمة باردة تلمح وجهى . لا أرى أحداً فى
الطريق . أتكمش فى نفسى . المنزل الذى
أقف تحته تصدر عنه ضحكات عابثة
متداخلة . أصدقائى الآن اكتمل شملهم ،
قابلتهم صباح اليوم فى البنك ، ذهبوا مثلى
ليسحبوا مبلغاً من المال ، رغم الزحام
الشديد فى البنك فأنهم تحدثوا معى .

كنت نويت قضاء هذه الليلة نائماً . أخبرت أصحابى بأننى
لن أغادر المنزل ، إلا اننى وجدت نفسى - والساعة جاوزت
الحادية عشرة - أرتدى ملابسى وأهبط الى الشارع .

أشعل سيجارة . الأوتوبيس يقترب . ألقى بالسيجارة ،
اقترب من طرف الرصيف ، الأوتوبيس يمرق من أمامي ، الهواء
البارد يضرب وجهي بعنف ، لحظة واحدة لو وقفها لركبت ..
رغم الزحام الشديد في البنك فانهم تحدثوا معي ، قالوا لي :

— تعال الليلة ، سنسهر معا ، نلعب ونشرب ، البرد يحب
الشراب ، والشراب يجلب الفرفشة ، كل سنة وانت طيب ! .

أشير للأوتوبيس التالي ، يقف .. يسارع السائق بالمسير
قبل انقضاء اللحظة ، اكاد انكفيء على وجهي ، انظر للسائق
في عتاب .. يقول لي :

.. — لا تزعل يا أستاذ ، كل سنة وانت طيب ، تماسك ..
عيناه تتركان الطريق أمامه ، تتفحصني من شعر رأسي الى
رباط حذائي .. أصدقائي الآن يشربون ، قلت لهم :

— لا تنتظروني ، لن أخرج الليلة .

قالوا لي :

— المجنون فقط لا يرضخ لرأي المجموع ، انت كالشريك
المخالف ، لماذا اذن تسحب هذه النقود من البنك ؟ .

يلفظني الأوتوبيس في شارع ٢٦ يوليو ، يعود السائق
ليهتف :

— تماسك يا أستاذ ، كل سنة وانت طيب .

لا أحب الزحام ..

— ولكن هذه ليست ككل ليلة .

هكذا حاولوا اقناعى :

— المغفل فقط يمضى هذه الليلة فى السرير !!

السائق قال لى :

— كل سنة وانت طيب .

لكنه اضاف :

— تماسك يا استاذ .

لن اتوجه لأصدقائى ، نويت ان أهيم منفردا ، وان اتترك
خط السير تحدده قدمائى .. اتحسس النقود فى جيبى ، كنت
متلهفا الى معرفة : كم تبقى لى من رصيد فى البنك ؟ . كل
عام اسحب مبلغا ، ولم اودع غيره مطلقا ، لم يكن بامكانى ذلك !!

— مجموعة من الفتيان يسرون خلفى ، يهللون بأعلى
صوتهم :

— العبيط ، العبيط ..

حتى اصابعهم تشير نحوى ، ان كانوا عشرة فهناك عشر
اصابع تشير الى ظهري . لن أعيرهم التفاتا ، ان شعروا انى
مفتاظ فسيزيدون من صراخهم ، لن يتركونى .. تصدق
فراستى ، يتعبون ، ينصرفون .. ائلكا أمام واجهة محل مضاءة
اتلفت اليهم من جانب عيني متظاهرا بمراقبة الواجهة ، هم
تلاميذ ولا ريب ، خائبون ، كل منهم يطالب والده بمصروف
الصباح ، عددهم أحد عشر تلميذا ، اذن فقد كانت احدى عشرة
أصبعاً تخرقنى من الخلف ، لا بل اثنتا عشرة ، فهذا القصير
له اصبع يشير به ، وله لسان يخرج به ايضا !

أنظر أمامي ، الواجهة مليئة بالأحذية ، من جميع الأصناف .
رجالي وحريمي وأولاد .. ويفط كثيرة : « أسعار في متناول
الجميع .. سعر موحد لأي زوج » .. وقطن أبيض على الزجاج
يقول :

— كل سنة وأنت طيب ..

مدير البنك قال لي :

— محال أن أخبرك كم بقي من رصيدك ، الزحام شديد ،
أستطيع أن أخبرك عن الأموال التي سحبتها فقط ، كل سنة
وأنت طيب .

في الزحام لا ينجو الإنسان من صدمات الآخرين به . نويت
أن أسير محاذرا ، سأعمل حسابا لذلك القادم على يساري
يترنج . أن أدعه يصدم بي ، فعلا أقلت ، ولكن ليصدمني
القادم عن يميني ، وليقول لي :

— كل سنة وأنت طيب ..

الصدمة تؤلمني ، وهو قد سار وابتعد عني ، كنت أنوي
أن أرد عليه بعدة كلمات .. في الصباح قلت لمدير البنك :

— بحسبة بسيطة ، وبدون معونتك يا سيادة المدير ،
أستطيع أن أحسب المبالغ التي سحبتها .. المهم كم تبقى ؟

أصدقائي الآن في عز سهرتهم ، قلت لهم :

— أبي يشرب لينسى مضايقات أمي له ، لماذا تشربون
أنتم ؟ ! .

— لأننا نريد أن نمرح ..

— ولكن الخمر ستسكركم ، وستنسبون انكم تمرحون ..
والذى ينسى مضايقات أمى بالخمر ..

صرخوا فى :

— لكنها ليلة فى العام ، ليلة واحدة !

وتركونى وهم يقولون :

— شاور نفسك ، وكل سنة وانت طيب .

أجبت مدير البنك :

— المهم .. كم تبقى ؟ ! كم ؟ .

حتما هذا لا ينوى بى خيرا ، يضع على رأسه طرطورا ،
يريد أن يضعه على رأسى ، سأرفض بكل شدة ، سأجرى
مبتعدا أن لزم الأمر .. الفم الذى تحت الطرطور يتحرك :

— الشارع ملئ بالناس ، والنواصى ملفمة برجال
الشرطة ، وان جريت سنجرى خلفك صارخين : امسك حرامى ،
إمسك حرامى .

يهددنى !

لحظة الخطر تحدث المفاضلة : أن أكون طرطورا خير من أن
أكون حراميا .

أحدهم يهمس فى أذنى :

— ستحتاج الى جهد ووقت وعلبة سجائر ، كي تثبت
لرجال الشرطة الذين يقفون على النواصي انك لست لصا .

لحظة الخطر يفكر العقل بسرعة : فرق كبير ان اكون انا
نفسى طرطورا ، وبين ان يوضع فوق راسى طرطور للحظة
عابرة .. اسلمه راسى اذن . الفم الذى تحت الطرطور يقول :

— يشترط ان يكون شعرك نظيفا حتى اقلدك اياه .

يفحص شعرى ، يهتف محييا وهو يضع الطرطور على
راسى :

— أبشر .. أبشر .

الشارع كله يقفز راقصا :

كل سنة وانت طيب ..

الصواريخ تنطلق ، أصوات من المنازل تهلل فى صخب :

— كل سنة وانت طيب ..

الجميع يرددون :

— كل سنة وانت طيب ، كل سنة وانت طيب .

الثغرات المضيئة فى المنازل تطفأ ، بعد لحظات ستضاء ،
الآن صديقى سعد يقبل زوجته ، صديقى أنور يقبل عشيقته ،
أمى ترقد وحيدة فى المنزل .. ومن الآن وحتى تضاء الأنوار
مرة أخرى سأضع يدي على محفظتى ، أمى تحذرني دائما من
الزحام والنشالين ، ومن الظلام والغفاريات ، الغفاريات صاحبة
الأقدام المسلوخة .

ولم يكن لبس الطرطور هو السبب ، كانت الساعة الثامنة
عشرة تماما ، والجميع ينصافحون ، تنتقل اليد من يد لأخرى
صارخة :

— كل سنة وانت طيب ..

الأنوار تضاء .. أصدقائي الآن يصافح أحدهم الآخر ..
بجوار الحائط توجد لمبة من عدة أشخاص ، لابد أن أعرف
السبب ، أحدهم يمسك براديو ترانزستور ، المذياع يقول :

— وقد اتفق الطرفان المتحاربان على هدنة مدتها أربعة
وعشرون ساعة بمناسبة العام الجديد .

أحدهم يسكت المذياع . لابد أن أعرف السبب . يضحكون .
اندرس بينهم . يضحكون . بجانب الحائط انسان يتقيا ..
مدير البنك قال لى :

— لا أضمن ان كان رصيدك كبيرا أو صغيرا من المؤكد انه
يتناقص عاما بعد عام !

الشخص الذى يتقيا أصحابه يكملون ضحكاتهم .. المدير
أكمل كلامه همسا :

— مادام ليس باستطاعتك أن تضيف اليه شيئا !

الأصوات من حولى تقول للذى يتقيا :

— بدأ عامه سعيدا حقا !

يضحكون :

- أفرغ كل ما فى جوفه ..
- ... بإمكانك الآن شرب المزيد !
يضحكون :
- أكل فى العام الماضى ..
- ... وتقياً فى العام الحالى ..
يفرقون فى الضحك .. أقول لنفسي :
- ما داموا يضحكون جميعاً فلا بد أن الأمر مضحك فعلاً .
قلت لأصدقائى فى الصباح :
- لا أفهم معنى لمرحكم ؟ !
فى البنك قيل لى قبيل انصراقي :
- سيأتى يوم ينقد فيه كل رصيدك ، وتبحث عن بنك
آخر غيرنا ..
يقولون للذى يتقياً :
- ولا يهملك ، كل سنة وأنت طيب ..
يضحكون وأنا أضحك .

بلا حكمة

عرف الجميع تفاصيل الحادث ، ومع ذلك لم ينصرفوا ، ظلوا واقفا حول الجثة ، ينظرون اليها ، رغم الدماء المحيطة بها ، رغم التشويه الذى حدث بالجمجمة ، رغم محاولة رجال الشرطة لاصادهم .. وان انصرف احدهم وقف مكانه عشرة ..

فى ميدان العتبة وقع الحادث ، فتجمع حوله هذا الجمع الكبير من الناس ، رجال كبار وشباب ، وأولاد صفار ونساء ، من الصعيد او من الدلتا او من القاهرة ، بل وحتى بعض السائحين .

والجميع عرفوا التفاصيل كلها ، رجل مات بطريقة ما ، وبكيفية غير مقصودة ،

وفي حادث لم يدبره انسان ، وتحت تأثير
ظروف لا دخل لبني آدم فيها ..

والجمع يجنب المارة ، فيدفعهم
القضول الى معرفة ما الخير ؟ ما سر
الزحام ؟

يسأل رجل معمم عن الحكاية ويعرفها ، فيضرب كفا
بكف وهو يقول :

— لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

ثم يهز رأسه يؤكد حقيقة لنفسه :

— صحيح الأعمار بيد الله .

يشرح أفندي مخترم من الواقفين — توحى الشعيرات البيض
في رأسه بالوقار والهيبة — يشرح الأمر لسائله ، ولما يرى
الحزن المرتسم على وجهه ، يقول له مهونا الأمر :

— نصيب !

وكانما وجد في هذه الكلمة التفسير المطلوب والعزاء ،
فقد خف الحزن المرتسم على وجهه ، وقال مؤمنا :

— حقا .. قدر أعمى .

لما الشيخ الذي عرف بالحادث على عجل ، أخذ يهز
رأسه وهو يستمع الى باقى التفاصيل ، وينصرف والدعاء قد
فرت من وجهه :

— انا لله واقا اليه راجعون .

ثم يقول لنفسه وقد بعد ، مجيبا على عدد من الأسئلة التي هاجمته ، والتي لم يجد لها جوابا :

— قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا .

ومن تحت القفة ، أراد الرجل الصعيدي أن يسأل عن الترام الداهب الى ميدان السيدة ، ومن خلفه زوجته وهي تخفى الجزء الأكبر من وجهها عن فضول الرجال ، مما ركز الأنظار على عينيها وعلى الكحل الذي في الرموش ، يعرف رقم الترام ، ومكان محطته ، ثم تسأله زوجته عن سبب هذه اللمة ، فينقل بدوره السؤال الى مجيبه السابق ، ويعود لينقل الاجابة الى زوجته ، رغم تأكده من أنها سمعتها معه ، ويزي أن من واجبه أن يعلق على الحادث فيقول :

— المقدر على الجبين لازم تشوفه العين .

.. وترجح زوجته أن للمأسوف على شبابه أولادا أو زوجة أناسا يعولهم ، وأنهم الآن في انتظاره . ويشد انتباهها تلك الريفية التي كانت سائرة في الجانب الآخر ، واخلخال فضي يلمع في قدميها . لكنها تعود الى الحادث ثانية ، وتنظر الى اليد اليسرى للرجل الميت : « الدبلة » في أصبعه .. متزوج اذن !

تهتز المرأة ، وتعلق على ذلك بمضمصة خزينة من شفتيها ! .

تعرف السيدة الأنيقة بالحادث ، ويقول محدثها معلقا :

— لو انحرف مترا واحدا عن خط سيره ، لكان الآن حيا يرزق .

تقيس السيدة الأنيقة مسافة المتر بنظرها ، وتذكر أن هذا الكلام صحيح ، فلا تجد ما تنطق به الا كلمة واحدة :

— حفظ !

المصور الصحفي ينهمك في تصوير الحادث ، وتشغله
الصور عن السؤال أو عن التعليق ، وإن كان ضايقه اقتراب
الناس من ول القتيل حتى يظهروا في الصور التي يلتقطها .

ولا يقدر الأفندي السائر متعجلا على مقاومة فضوله ،
فيخرج عن طريقه ، ويشق لنفسه طريقا وسط الزحام ، حتى
يصل الى حيث الجثة على الأرض ، ويصدمه ما يرى ، انه يعرف
القتيل ، يجلس معه على المقهى احيانا ، لا اله الا الله .. والضابط
يسأل ان كان أحد الناس يعرف « المرحوم » .. ويهم بأن يدلى
بما عنده ، غير انه يتذكر انه على موعد هام بعد دقائق .
والتحقيق سيؤخره ، فيسكت .. لكنه يتساءل في عقله « لكن
أولاده يحتاجون اليه والى حنانه ، عيال صغار بلا سند » .
يهتز انفعالا ، ويقول عاجزا عن تفسير ما يرى :

— حكمة ربنا !

كان القس يريد أن يشتري بعض الهدايا الرخيصة يعود
بها الى قرينته ، حيث أولاده وكنيسته في انتظاره ، يرى الميت ،
فيمسك لحيته في أسى :

— صحيح ، كما جاء في الكتاب ، من التراب والى التراب
نعود .

ويسمعه الرجل الواقف بجواره ، فيؤكد على كلامه ..
ويجدها القس فرصته ليوضح رأيه أكثر فيكمل :

— حياة الانسان بخار ماء يكبر ثم يضمحل .

— تمام ، حزنى على من ينتظره من أحبائه .

يقطب القسيس وينصرف مترحما ، وفي ذهنه أولاده
وكنيسته .

أما ابن البلد فقد كان يقص نادرته ربما للمرة المائة :
- يا سلام يا جدعان ، كنت سائرا وراءه بينى وبينه
مسافة لا تزيد عن المتر .

وتحمر كفاه من كثرة صفق أحدهما بالآخرى ، ويقول له
السامعون :

- قدر !

- كون ، ومنظمه سيدك ..

عندما لا يجيب أحد الضابط ، يمد يده في جيوب القليل
يبحث عن بطاقته فيجدها ، ومن لونها يعرف الجميع أنها
بطاقة عائلية ، تعلوا المصعصات من الدائرة الأدمية ، ويبدو الكثر
على وجه الضابط وهو يقلب صفحات البطاقة .

له زوجة شابة ، وولده الأول اسمه عادل ، والثانى
عباس ، والثالثة عواطف ، والرابع هزير .. وبعد ذلك أوراق
بيضاء لا أسماء فيها ..

تهتف المرأة :

- مسكينة زوجته ، شابة ترملت صغيرة !!

يهتف الأفندى الذى يعرفه :

- وأولاده ، من يعولهم ومن يعوضهم حنانه ؟ !

ثم يصرخ قائلا :

– يا الهى ، لماذا هو بالذات ؟ .

يهزه جاره :

– يا إستاذ اتق الله ، حكمته يا ابنى حكمته .

– ألم يكن من الأفضل أن يموت بدلا منه انسان عاطل
أو شرير ، أو حتى مريض يعذبه المرض !

وينصرف على عجل الى مواعده ..

شابان أحدهما شغوف الى معرفة سر هذه اللمة ، والآخر
لا يريد أن يعرف ، فيقف مكانه فى انتظار صاحبه ، الذى
يعود حزينا يقص الخبر متأثرا ، فيقول له صاحبه :

– واحد مات ، ماذا فى ذلك ؟ وكل يوم يموت آلاف الناس !

– انت لا قلب لك ..

– كيف ذلك ؟ ! ولماذا لا تحزن على المئات الذين يموتون
كل يوم فى الحروب والجاعات ؟ !

يسكت صاحبه ، فينهال عليه :

– تكلم . قل لى لماذا يموتون ، وما ذنبهم ؟

سيدة قوية الملاحظة سمعت أسماء الأولاد ، عادل وعباس
وعواطف وعزيز ، تقول لجارها مشيرة الى الميت :

– يبدو أنه مغرم بحرف العين ، كل أولاده تبدأ أسمائهم
بحرف العين .

يرد جارها الظريف مجاريا إياها فى قوة الملاحظة :

– ومات فى ميدان يبدأ اسمه بحرف العين أيضا ، العتبة .

يكاد أن يبتسم ، وتكاد أن تبتسم ، ولكنهما يخجلان ،
ويرسمان على وجهيهما حزنا واضحا .

يفطى الناس الرجل بأوراق الصحف ، ويقول أحدهم
في ألم :

— غدا يصبح حديث الصحف .

تأتى سيارة الاسعاف ، يفسح الناس لها الطريق ، رجال
الاسعاف لا يبدو عليهم أى تأثر ، هذه مهنتهم ، تقل الموتى ..
ينقلونه ويضعونه فى السيارة ، وتسيز وهى تدق أجراسها ..
دقات رنانة ولحوحة ..

المحقق يظل يسأل ، ويسأل ، ويدون ملاحظاته ، ويشمشم
هنا وهناك ، ويملا الكثير من الورق الأبيض بالأسئلة والأجوبة ،
وينتهى حيث كان فكر فى البداية ، فينهي الصفحات البيضاء
التي سودها الحبر :

« الحادث قضاء وقدر » .

يخلو الميدان ، الا من الحركة العادية ..

بعد ساعة يمر عدد من الناس « لا يلفت نظرهم منظر الدم
على الأرض .. ويمر غيرهم ويرونه ولكن منظره لا يؤثر فيهم ..
والذى لاحظته وسأل زميله :

— ترى ما سبب هذه الدماء ؟ دماء من هذه ؟ .

— اكيد .. دماء دجاجة ذبحت ..

أشجار الدخان .. و « ماتسودا » المجنون

- الصوت يدوى ، تنفجر الأحجار .
- الصمت الوحشي ، الحافل بالأسرار .
- شبت في كل الأشياء النار .
- وامتد عمودا من رعب ودخان ..
- امتد ذراع الصاعقة الجبار .

ويقولون عني أنى مجنون !!

ويقول أهل القرية : « ماتسودا ، أنت فلاح ياباني عبيط » .

ويهمس خطيب ابنتي لها : « أتر طول العمر على عقل الأب
ماتسودا ! »

نظرت خلفي ..

فاذا شجرة من الدخان الأبيض الكثيف ترتفع الى السماء :
عمودا من الرعب ، ذراع صاعقة جبار .. خلت السماء من الهواء
المتحرك ، بدا الدخان الأبيض يخضب بلون اللهب الأحمر ،
بلدى العزيز يحترق ، فى غمضة عين يحترق ! . حملت ابنتى
وأردت العودة . منعونى .. لكن : زوجى وأمى وطفلى الرضيع
هناك ! . ولكنهم أصروا على منعى من العودة .. ارتفعت شجرة
الدخان .. وهربت الطائرة الحديدية !!

وعام ١٩٤٥ استوطنت هذه القرية - نفس عام شجرة
الدخان الخانق - عاملنى الفلاحون بعطف ، احتراموا صمتى .
عاملوا ابنتى برقة . دفنت أحزاني فى الفلاحة . أصبحت فلاحا
أكثر من أهل القرية الأصليين . أصبحت مائسودا الفلاح ،
المعجوز مائسودا .

ابنتى الخبيبة الوحيدة تكبر بسرعة ، كزهرة جميلة ، رقيقة
كنسمة الربيع . أدركت ذلك عندما بدأ شبان القرية يتهافون
عليها . جلست الساعات الطويلة تأملها . ملأت على الكوخ
سعادة وهناء .

* الصوت يدوى ، تنفجر الأحجار .

- أبى ، هل ستذهب غدا الى هيروشيما ؟
- نعم يا بنيتى ، فهذا موعد زيارتي الأسبوعية .
- تزور أقاربنا هناك ؟
- أقاربنا وأصدقاءنا .
- لماذا يزوروننا ؟

- ليس بإمكانهم ذلك يا زهرتى الجميلة .
- أذن خذنى معك أزورهم .
- يوما ما ستأتين معى .
- قلت لخطيب ابنتى :
- اخترتك خطيبا لوحيدتى لأنك تقرأ الصحف .
- قال بأدبه المحبب :
- سأحضر كل مساء أقرأ لك الجريدة .
- فى المساء الأول قرأ لى العنوان الرئيسى : « الطائرات الأمريكية تضرب هانوى بالقنابل » .
- صعقت . شجرة الدخان مرة أخرى !!
- فى المساء الثانى قرأ لى : « الطائرات الأمريكية تلقى قنابل النابالم الحارقة على مدن فيتنام الشمالية » .
- فى المساء الثالث خطفت منه الجريدة ، لأرى صورة طفل فيتنامى فقد عينه اليسرى ، وشوهدت الحروقي نصف جسده الأيسر ، وأمه المسكينة تحتضنه فى لوعة . كان المنظر ليس غريبا على !
- فى المساء الرابع قلت لخطيب ابنتى :
- هل تعرف أن جسم الانسان عندما يحترق يتصاعد منه دخان ؟؟
- دهش لكنه أجاب :

— نعم ... قليلا ..

— فلو أحرقنا ربع مليون انسان ، تكونت منهم شجرة دخان هائلة ؟ !!

نظر لى بعدم فهم .

وفى المساء الخامس قرا لى : « نبا زيارة غواصة ذرية أمريكية لموانى اليابان » .

*** الصوت يدوى ، تنفجر الأحجار .**

*** الصمت الوحشى ، الحافل بالأسرار .**

فى المساء قبل أن انام قضيت وقتا أصلى ، وقتا قصيرا ،
الالهة لا تطلب صلوات طويلة . الانسان يتطلب جهدا كبيرا حتى يفهم ، يلزمة وقتا طويلا حتى يعقل . النيران على الأرض هى الجذور ، الدخان المتصاعد الى السماء هو الساق ، يزداد الدخان فتظهر الشجرة ، الشجرة الخائقة .

فى اليوم التالى قلت لخطيب ابنتى :

— عام ١٩٤٥ جاءت طائرة حديدية ، أحرقت مدينتى الحبيبة : هيروشيما العزيزة ، أحرقت ولدى وزوجى وأمى وأصدقائى ، منهم جميعا تكونت شجرة الدخان ، لو كنت أنا فى المدينة لحظتها لكنت احدى أوراقها .

شجرة الدخان الجديدة فى فيتنام بدأت جذورها تنمو ،
ان لم نطفئ النيران هناك سريعا فستظهر الشجرة ، فجأة نراها ، ونحن لاهون عنها داخل بيوتنا .

قلت لابنتي :

— غدا كعادتي الأسبوعية ، سأتوجه الى هيروشيما ،
وستأتين معي .

فرحت الزهرة الجميلة . قلت لخطيبها :

— وانت أيضا ستأتين معي .

قبل يدي امتنانا . قلت له :

— لأن العالم صغير ، يجب أن نبذل جهدنا لاطفاء جذور
شجرة الدخان الجديدة !!

نظر الوالد الى مصعوقا ، تبادل النظرات مع ابنتي ، ماذا
جرى للأب ماتسودا ؟ ! يبدو انه كبر في العمر ؟ ! يقول كلاما
غير مفهوم !!

✽ شبت في كل الأشياء النار .

بهرت الزهرة الجميلة وهتفت :

— هيروشيما كم هي رائعة وجميلة يا ابي !!

قلت :

— منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وحتى عام ١٩٤٥ كانت
هناك هيروشيما أخرى غير هذه ، فيها ولدت .

انشغلت عني بهيروشيما الجديدة وبخطيبها . قلت :

— الا تريدان زيارة أقاربك ؟

— حالا الآن .

✱ وشبت في كل الأشياء النار .

✱ وامتد عمود من رعب ودخان .

.. امتد ذراع الصاعقة الجبار ..

دهشت الزهرة الجميلة ، وقالت محتجة :

— قلت سنزور أقاربنا يا أبى ، فإذا بك محضرا الى
هذا المكان !

— هذا هو النصب التذكارى لربع مليون يابانى قتلوا في
٦ أغسطس ١٩٤٥ .

— واين اقاربنا ؟ !

— اخوك الرضيع وامك وجدتك ، ثلاثة أشخاص من الربع
مليون انسان !

اهتزت المسكينة ، استندت على ذراع خطيبها . قلت له :

— اقرا يا ولدى المكتوب على هذا النصب .

قرا : « استريحوا في سلام قلن نسمح بتكرار هذه الغلطة
مرة أخرى » .

قلت لهما :

— من هذا المكان صعدت شجرة الدخان الخانق الى أعلى ،
الى السماء . حاملة ارواح ربع مليون انسان ..

عادا ينظران الى بعضهما البعض مرة اخرى طلبت من ابنتي
ان تكرر ما قراه خطيبها ، فقالت :

« استريحوا في سلام ، فلن نسمح بتكرار هذه الغلطة
مرة اخرى » .

— علينا الا نسمح بتكرار هذه الغلطة مرة اخرى .

ويقولون عني اني مجنون ، عجوز مخرف ..

قلت لزهرتي الجميلة وخطيبها :

— لقد دبرت الأمر منذ اسابيع حتى يصلهم صوتي .

لم يفهما شيئا اخذتهما الى مكتب جريدة امريكية ، علمت
انها واسعة الانتشار في بلدها . قلت لمندوبها :

— اريد ان انشر اعلانا في جريدتكم وبلغتكم .

تساءل المندوب :

— قريب لك فقد في امريكا ؟؟

— الأمر أخطر من ذلك ، سأملك الاعلان وانت تترجمه
الى الانجليزية .

أخذت أمليه : « انا فلاح ياباني ، احب الأرض والانسان
والطيور ، احب على الأخص الحمام واکره العقارب ، واکره في
الناس من يصيد الحمام ... »

قاطعتني ابنتي :

— ولكن يا أبى ، من اين لك بأجر هذا الاعلان ؟ !

— من مال زفافك يا زهرتي الجميلة .

صرخ الخطيب :

— لكن ذلك سيؤجل زفافنا !!

— أستطيع أن أقتصد غيره في ثلاث سنوات .

كان الاتهام هذه المرة واضحا ، نظرات الشاب قالت لى :
« ماتسودا عجوز يابانى مخرف » .

قلت له :

— هناك فى نهاية هذا الشارع مستشفى كبير ، تحفة فى
الجمال المعمارى ، لكن فى داخله ذكرى قاسية ، قسوة قلوب
زارعى أشجار الدخان ، هياكل بشرية ، عشرات المشوهين ،
من لم يحترق ليوضع فى النصب ، يعيش هناك .. ينتظر الموت .
فقط ينتظر الموت ، فقط ينتظر الموت ..

أكملت رسالتى وختمتها : « فلنكره معا زارعى
أشجار الدخان ولنطردهم من على الأرض » .

ثم طلبت من مندوب الجريدة أن يضع لها عنوانا :
« رسالة شخصية من مورهيو ماتسودا » مواطن من اليابان .

احتج الولد :

— الرسالة طويلة وستأخذ مالا كثيرا !!

صرخت فى وجهه :

— كم ؟ ألف ين ! مائة ألف ين ؟ ربع مليون ين ؟ . مات
أكثر من ربع مليون انسان !!

ويقولون عنى انى مجنون !!

عدت الى القرية ..

ليقول اهله : « ماتسودا فلاح يابانى عبيط » !!

ويهمس خطيب ابنتى : « اثر طول العمر على عقل الأب
ماتسودا » .

لم يدركوا بعد ما يقوله كهنة بوذا الأخيار : « ان حياتنا
الماضية تؤثر فى حياتنا الحاضرة » .

● الصوت يدوى ، تنفجر الأحجار .

● الصمت الوحشى ، الحافل بالأسرار .

● شبت فى كل الأشياء النار .

● وامتد عمود من رعب ودخان ..

.. امتد ذراع الصاعقة الجبار .

ثم ماذا حدث ؟ ! بنى النصب الصغير ، وكتبت الكلمات
القليلة !! ويقولون عنى « انى ماتسودا المجنون » .

المكان والزمان

يُطَن السُّؤال في رأسها :

« ماذا كنت تريد من عمله ؟ ماذا كنت تريد من قوله ؟
ماذا ؟ ماذا ؟ » .

واقفة وسط الفصل ، ناقرة بقلم على ذقنها ، تحاول أن
تتذكر ، ! أن تطرد الركود عن ذهنها .

تتعب من طول الوقفة ، تجلس على المقعد في مواجهة
التلميذات الصغيرات ، ترمقهن في عطف وحنان ، قطط صغيرات
لطيفات ، منهنكات على كراريسهن ، تهرش تلميذة في شعرها
مفكرة ، مسألة جمع . تعض أخرى في قلمها سارحة ، مسألة
طرح . تضيق ثالثة من عينها في محاولة للتذكر ، مسألة
ضرب . تعصر رابعة ذاكرتها ، مسألة قسمة .. كل واحدة منهن
لا تدري لماذا تفعل ذلك .. والمدرسة تحاول أن تتذكر .

يفرقع أصبع من ركن الفصل ، يتبعه مواء للذيد :

— أستاذة ، أنهيت الإجابة يا أستاذة .

بخطوات مترددة تقترب قطعة صغيرة ، مادة يدها
بكراستها ، مركزة عينيها في عيني مدرستها ، في وجل وخوف
نزيله ابتسامة مشجعة .

تمسك يد المدرسة بالقلم الأحمر ، تبدأ تصصح الإجابة ،
توتر أعصاب التلميذة في ترقب ، اللون الأحمر يخط في الكراس ،
يتوقف بعد برهة ، الحروف تتراقص في عيني المدرسة ،
الكلمات تتداخل في ذهنها ، خدر ثقيل يتسلل الى ذهنها ،
جفناها يتشاقلان ..

المواء اللذيذ يعود ليعلو في أذنيها ، تسأل التلميذة قلقة :

— اجابة صحيحة يا أستاذة ؟

تبتسم الأستاذة :

— نعم الاجابة صحيحة .

يجرى القلم فوق الورق شاهدا على ذلك . تبتسم الطفلة
في فخر ، تعود الى مكانها ناظرة لزميلاتها في تيه .

السؤال يعود ليطن في رأس المدرسة ، تجاهد أن تتذكر .
يخط القلم فوق « كراس تحضير الدروس » . يرسم دوائر
كثيرة متداخلة .

ينشط ذهنها قليلا ..

المكان : نفس هذا الفصل .

الزمان : صباح اليوم السابق .

وقفت تلميذتها « نبيلة » بجانبها ، وكراستها في يدها ؛
لتصحح اجابتها ..

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

الذهن مكدود ، الذاكرة مشتتة .

تطرق أصابع التلميذات ، تدق رأسها طرقات عنيفة ،

يعلو مواء التلميذات ، تهتز طبلتا أذنيها في صخب :

— أتممت الإجابة يا أستاذة .

— أنا قبلها يا أستاذة .

— شوفي يا أستاذة .

— يا أستاذة ، سهر خطفت مني القلم ..

تهز المدرسة رأسها في عنف . لا تكف الأبواق عن ازعاجها .
أعصابها مرهقة . أفواه البراعم الصغيرة لا تصمت ، مكبرات
صوت ركزت على أذنيها .

تتحامل على نفسها ، تمسك بكراسة تحضير الدروس
الكبيرة ، تتجه الى السبورة ، تكتب مسائل جديدة ، تطلب من
البنات أن يحلنها ، تعود مرهقة لتجلس ، يئن المقعد تحت ثقل
جسدها ، تحاول أن تفرد أطراف الكراسة المثبتة ..

سكتت الضجة .. الهدوء يسود الفصل .. ذهنها يتيقظ
شيئا فشيئا ..

الزمان : اليوم السابق .

المكان : الطريق الى منزلها .

أحاطت بها بعض تلميذاتها . حبا أو تملقا . طمعا في
إبتسامة منها ، أو طلبا لصفة « ممتازة » تكتبها لهن في
كراساتهن . سارت بينهن ، يدها اليمنى مشغولة بحقيبتها ،
يدها اليسرى مشغولة بكراساتها ، فكرها مشغول بطفلها المريض
في المنزل . أرادت أن تسرع من خطاها ، ثقل جسمها لم
يساعدها . وصلت متعبة ، وقفت أمام باب شقتها لاهثة ، مدت
يدها تضغط على جرس الشقة ، لعل رنينه داخل الشقة ..
لعل ..

يلعل في الفصل مواء لحوح يجذب المدرسة من أفكارها .
يعود بها الى فصلها ..

تلميذة صغيرة تقف عند السبورة ، أصبعها يشير الى رقم
مكتوب ، تسأل :

— ستة هذه يا أستاذة أم واحد ؟

— واحد .

يعود السكون الى الفصل مرة أخرى .. ينشط فكرها
ثانية .

الزمان : اليوم السابق .

المكان : باب شقتها .

فتحت أمها الباب ، سألتها :

— كيف حاله ؟

- نام .

- هل بكى كثيرا ؟

- بكى اليوم كله : أخيرا تعب ونام .

ألت بكراستها وحقيبتها . هربت الى حجرة النوم .
لا تريد أن توقظه ، وضعت حنائها وحبا في كفها ، تحسست
حرارة جبهته ، مرتفعة .. احتضنته ، ظلت بجواره باقى
النهار ، ظلت متيقظة الى جواره الليل كله .. لم يغمض لها
جفن ، سهرت على رعايته ، أحاطته بجسدها ، خفق قلبها
له بكل الحب ، نطقت عيناها بكل الحنان ، نظرت الى وجهه
طويلا ، خاطبته :

- يا حبيبى يا ولدى ، تأملت كثيرا .

تعلق الجملة في ذهن المدرسة ، تظل ترددها وهى جالسة
في الفصل ، في رأسها صورة ولدها ، في يدها القلم يرسم
الدوائر المتداخلة .

تقطع احدى التلميذات تفكيرها :

- اسمحى لى يا أستاذة بالخروج لأشرب .

تسمح لها .. تعود لتخاطب صورة ولدها في ذهنها :

- يا حبيبى يا ولدى ، تأملت كثيرا .

تففز الى ذهنها صورة تلميذتها « نبيلة » تتداخل مع صورة
ولدها ترفع رأسها تنظر الى الصف الثالث ، مقعد نبيلة شاغر ،
لم تحضر اليوم ، كانت تريد أن تقول لها كلاما معينا . أن تفعل
معهما شيئا ما !

تضرب جبهتها ، ستار النسيان تتمزق عن ذهنها القلق ..

الزمان : صباح اليوم السابق .

المكان : الفصل .

وقفت تلميذتها « نبيلة » بجانبها ، اجاباتها خاطئة ، وبخثها
بقسوة شديدة ، أجهشت التلميذة بالبكاء ..

الزمان : مساء اليوم السابق .

المكان : حجرة النوم .

ولدها في حضنها ، وجهه متألم بالك ، تأملت طويلا ،
تذكرت وجه نبيلة الباكي . هدهدت ولدها . حاولت أن ترفه
عنه . عاهدت نفسها أن تفعل شيئا ما مع نبيلة . نظرت الى
دموعه . عاهدت نفسها ، أن تقول كلاما معينا لنبيلة ، أن تطيب
من خاطرها .

تهم المدرسة أن تقول وهى تضرب جبهتها : « تذكرت » .

تسمع صوت طرقات على باب الفصل ، تظنها التلميذة التى
خرجت لتشرب منذ برهة ، تقول لها :

— ادخلى .

من عند الباب يحادثها صوت الشغالة :

— مديرة المدرسة تطلب حضرتك .

— الآن ؟

— نعم الآن .

تتحامل على نفسها ، تمشى تتهادى ، أمام المديرية تقف
خجلة ، تقول معتذرة :

— لم اكمل شهادات البنات ، ولدى كان مريضا جدا .
ترمقها المديرية بنظرة شك . تعطيها مهلة أخيرة للغد .
مطلوب شهادات التلميذات كاملة البيانات . تأمرها في جفاء
بالعودة الى فصلها .

تعود الى مكانها أمام التلميذات ، تتأملهن في حيرة ، يعود
قلمها يخط فوق كراسة تحضير الدروس ، يرسم الدوائر
المتداخلة .. تتنبه لحركة القلم في يدها ، يبدأ من نقطة ليعود
إليها ، لينته يرسم خطا مستقيما .

تتساءل لم رسمت هذه الدائرة ؟ ! لكنها تعود الى
تسألها القديم .. نسيت ما كادت أن تتذكره !!

تسأل نفسها مرة أخرى :

« ماذا كنت تريد من عمله ؟ ماذا كنت تريد من قوله ؟ ماذا ؟
ماذا ؟ ماذا ؟ »

يطن السؤال في رأسها ...

زفة

اخيرا يهبط المعلم الى الشارع ، يجد صبيه في انتظاره
امام البهت ، ممسكا برباط ثور سمين قوى ، زين بقطع قماش
ذات ألوان زاهية فاقعة ، وعدد من الأولاد تجمعوا حول الثور ،
يقفون جميعا في حالة تأهب بمجرد رؤيتهم له ، يهلل الصبي
هائفا :

— مرحبا بمعلم المعلمين ، أجدع جزار في المركز ونواحيه .

لا يفرح المعلم ، ويومئ لصبيه أن يبدأ ، فيتنحنح عدة
مرات ويقتدل منها على الأولاد :

— كما قلت لكم ، كلما هتفت أنا ، ترددون خلفي قائلين
بأربعين .. مفهوم ؟

تتحرك الزفة وجهتها السلخانة ..

في المقدمة المعلم بجسده الضخم القوى ، بجانبه صبيه

جاذبا الثور من خلفه ، من ورائهم يسير الأولاد . يبدأ الصبي
يهتف بأعلى صوته :

- الثور قدامك .

- بأربعين .

- سعر الكيلو .

- بأربعين .

-

يسير المعلم في وجوم وكدر ، يختلس النظر الى المارة وهم
يفحصون الثور بأعينهم ، والى النساء وهن يراقبنه من
الشرفات ..

- كيف تركتها تخرج يا أمي ؟ !

- قالت ذاهبة لأمها .

- كان يجب عليك ان تمنعيها .

- بأية صفة ؟

- الست أمي ؟

- أمك ، لكنك كنت تدللها ، ولم يكن لى امر عليها ،

أذهب واسأل أمها .

يتجه الموكب الى الشارع الرئيسى . تندس بعض الكلاب
بين الأرجل ، والصبي يصرخ ملوحا بعصاه الصغيرة :

- عند جزارة ..

- بأربعين .

- جزارة المعلم ..

- بأربعين .

-

الموكب يخترق طريقه وسط زحام المارة ، مزاحما عربات
الحنطور وبعض السيارات .. والعيال يتجمعون حوله ، يشاركون
في الزفة بدون دعوة . والنسوة يتفحصن جسد الثور ويقسن
عمره بنظرات خبيرة ..

يخفض المعلم رأسه الى الأرض الطينية تحته ، يبدو محنى
الظهر رغم ضخامة جسده وقوته ، لا يكاد يشعر بما حوله ،
لا يلحظ تحيات بعض المارة له .

- انظري ماذا اشتريت لك ! حلق وخاتم ، ذهب عيار
٢٤ قراط ..

- !!

- لا يبدو عليك الرضا يا عروستى الحلوة !

- الهدية لا تليق بجمالى ولا بمقام معلم المعلمين ، يد المرأة
لا تصبح جميلة الا اذا زينها الذهب .

- غدا اشترى لك { غوايش .

- هكذا الكلام ، الليلة ارتدى لك قميص النوم الجديد ،
الأحمر .

- تعجيبينى ، قميص نوم احمر فوق جسدك الأبيض ،
يا صلالة النبی !!

تلف الزفة ميدان المركز ثلاث مرات ، مزاحمين موكبا من
خمس سيارات لزفة عروس ، ينثرون الملح على الثور مداعبين ،
لكن المعلم لا يضحك .. تتناثر حبات الملح على وجهه فيفريق ،
ويهز رأسه مومئا في عصبية لبعض راكبي السيارات الذين
يحيونه .. يلتفت الى الثور ، تغيظه الكلاب المندسة بين الأرجل .
يغيظه أن الثور يهز ذيله .

- يا امرأة ، يا امرأة ، ابنتك خرجت من المنزل وقالت
لامى انها قادمة لزيارتك ، أين هي ؟ أين هي ؟

- يعز على هياجك يا معلم ، اجلس .

- اغدقت عليك وعليها المال ، لماذا تغدران بي ؟ !

- بشرفك يا معلم لم أرها منذ أيام ، والا ما تركتك تلف
هكذا أمامي .

- والثور قدامك ..

- بأربعين ..

- باكر منه ..

- بأربعين ..

- غدى أولادك ..

-

الصبي يصرخ والأولاد من ورائه ، منغمين هتافاتهم ..

والزفة تسير مثيرة سحابة ترابية كبيرة عند الأقدام تكبر وتتسع
كلما ارتفعت في الهواء ، تزكم الأنوف وتلوث العيون .

يلتفت المعلم الى الثور ، يجده سائرا لا يلوى على شيء ومن
حوله زفته ! يشعر بحنق ، بهم برفع يده الى شاربه ، لكنه
يخفضها في تخاذه .. ينظر الى الثورة ، يزداد حنقه ..

— معلم المعلمين تضحك عليه امرأة لا تزيد على العشرين
عاما ..

— اففى ابنة اففى يا ولدى ، نصحتك الا تتزوجها !

— غدا لن أستطيع ان ارفع عيني في عيون الناس ،
سيلاحقونى بعيون الهزء والشماتة ..

— والثور قدامك .

— بأربعين .

—

— لم يكن لها حديث الا عن القاهرة ، وهذا الرقيق يعمل
هناك ، كيف لم الحظ ذلك ؟ !

— .. !! .

— ثور متعافى ..

— بأربعين ..

—

— فى الأسبوع الماضى تحولت من امرأة مشاكسة الى
أخرى مطيعة منكسرة ، كيف لم الحظ ذلك ؟ !

— !! .

— باكر منه ..

— بأربعين ..

—

— لم تكن تقول الا حاضر ، حالا ، امرك يا معلم ، أنا
خادمتك يا معلم .. اللئيمة الحرياء ، كيف لم الحظ ذلك ؟

— !! .

— وأنا كاية بهيمة ظننت ان حالها انصلح وانها أصبحت
مولعة في رجولتى وفحولتى !

في الشارع الرئيسى يندس أولاد آخرون ، يشاركون في
التهتاف متطوعين ، يسير خلف الموكب ثلاثة من المجناذيب
يتضحكون في بله ، وكلما اقترب الموكب من المقهى الذى يجلس
اليه معظم جزارى المركز كلما علا صوت الصبى .

لا ترفع المعلم نظراته عن الثور ، يفضبه الذيل المهتز طربا ..

— الزفة جاهزة يا معلمى .

— قلت لك غر من وجهى ، سأتبعك بعد قليل .

— نعملها الآن ، بعد قليل ستسخن الشمس ويصبح
الشارع ولا نار جهنم .

— محروقة الزفة ، ومحروق من اشترك فيها .

— واتفرج يا جدع ..

— بأربعين ..

— فرجة بلاش ..

— بأربعين ..

—

يهتف الصبي والعيال بكل نشاط وحماس ، وهم واقفون
أمام مقهى الجزارين . يدور الصبي بالثور حول نفسه عارضا
سمنته وضخامته لعيونهم .

يرتفع صدر المعلم ويهبط في حشجة ، ناظرا للثور ،
تتركز نظراته على ذيله المهتز ..

— كيف لم الحظ ذلك وأنا جزار ؟ القطة تظل تنمسن
حتى تقترب من قطعة اللحم فتخطفها وتفر هاربة .

— لم تعد فائدة من الكلام ، أستطيع أن أزوجك أجمل
بنات المركز ..

— الثور قدامك ..

—

— فعلة ابنتك هذه جعلتني لا استحق شاربى هذا ،
أريدها أن تعود يوما واحدا فقط ، أطلقها أنا فيه وتصبح حرة
بعد ذلك ..

— لو أعرف مكانها لأحضرتها لك ..

— اما هذا ، واما أصير مضفة لأفواه الشامتين ، والذي
لا يشتري يتفرج ! ..

– والفرجة بلاش ..

– بأربعين ..

– فرجة حلال ..

– بأربعين ..

–

– أعود من سفر يومين الى المنزل لأجدها تركته ،
ما فائدتك في المنزل اذن ؟

– يا ولدى ، مطلع النهار يبشر بيوم أغبر ، اذهب الى
زفتك الآن .

– تركتني وهربت ، أين اذهب مع عيون الناس ، أين
اذهب من السنتهم ؟

مغل مغل مغل .

– نور نور نور ..

يصرخ المعلم بصوت مرتعش ، وهو يسحب العصا من يد
صبيه وينهال ضربا على الثور ..

يذهل الصبي ، يحاول ابعاد معلمه بين دهشة زبائن المقهى
من الجزارين . لا يسكت المعلم الا بعد ان تتكسر العصا ،
يقف لاهثا زائغ العينين محتقن الوجه . يصرخ الصبي في العيال
أن ينصرفوا ، ثم يقول :

– من اوله ظاهر انه يوم أغبر .

يبدأ المعلم يعود الى هدوئه ، وقد بلل العرق جسده ،
يقول مرتبكا :

— ظننت الثور يمكن عن المسير .

يراقب الثور ، يجده يهز ذيله في عصبية ، يكتشف أنه
يفعل ذلك لابعاد الذباب ، يلاحظ قوته وضخامته ، ينظر لذيله
المهتز ، يفتاظ من الذباب ، يطير الذباب تحت ضربات الذيل
لكنه يعود ثانية ليضايق الجسد العملاق . يتأمل المعلم الرأس
الكبير ، يتبع الرباط الملفوف حوله حتى طرفه الآخر حيث يد
الصبي النحيلة وهي تجذب الثور ، الصبي يسير في حيرة وعجلة
وقد مال بجسده الضئيل القصير الى الأمام ، ساحبا الثور
القوى صوب السلخانة ..

يعود المعلم يراقب الذباب ، يشعر بحرق كبير ، يتأمل
الذيل وهو يبعد الذباب بلا فائدة .. السلخانة على بعد خطوات .
الثور مقود اليها .. المعلم يهز رأسه في أسى ..

معلم المعلمين سيصبح مفضلة لأفواه الشامتين ، والذي
لا يشتري يتفرج !

— لا فائدة من الكلام ، اذهب الى زحلتك ..

يدخل الثور خلال باب السلخانة ، فيشعر المعلم بفصة في
حلقه ، ويبدو الأسى والعطف على وجهه ، تمتد يده تربت فوق
ظهر الثور في حنان وشفقة .

الفار الذى لم يمت

- عيناك محمرتان يا أحمد ؟ !
- نعم ، فانا لم اتم ليلة الأمس .
- اذلك بسبب خلافتك مع المذير ؟
- اتسمى هذا خلافا ؟ ! انها معركة ، ولن اتركه ، غدا سأكتب خطابا رسميا اطلب فيه لجنة تحقيق .
- يا عزيزى ، اخذ الشيطان ..
- كيف ؟ ! وهو قد سبنى على الملأ ، أمام زميلاتي وزملائي فى المكتب !
- ومن أجل هذا لم تنم ليلة الأمس ؟ !
- السبب شئ آخر ، ولكن الذى يفيظنى هو أنا .. نعم أنا ، كيف لم أرد عليه ؟ ! كيف لم أدافع عن نفسى ؟ ! كيف وقفت

صامتاً وهو يعلو بصوته في وجهي ؟ ! كيف ؟ ! كيف تركته
يهينني دون أن أرد عليه ؟ كيف ؟ ! كيف ؟ !

— اهدأ يا أحمد ، اهدأ .

— كيف ؟ ! أنا خجل من نفسي ، لقد وقفت موقفاً
مخزياً .

— وما فائدة الغضب ؟ !

—

— خذ يا أحمد ، خذ هذه ، سوف تريحك .

— لا شكراً .. لكن .. هاتها سأدخلها .

— يا مسكين ، أمن أجل هذا المدير لم تنم ليلة أمس ؟ !

— ليس ذلك المدير هو السبب .

— اذن ؟

— سأقص عليك الحكاية .. بالأمس استيقظت فجأة من
نومي العميق .. اتسمع ؟ أقوم من نومي العميق .. استيقظت
على صوت يتحرك في المطبخ . ظننته لصاً ، وأنا أسكن وحدي
كفا تعلم . فقممت فزعا واتجهت إلى المطبخ في تحفز ، هناك وبعد
أن أضأت النور لم أجد أحداً ، وعجبت .

— كانت تهيوّات طبعاً !

— ولكنني سمعت الصوت ثانية . فجلت بناظري في كل
مكان .. هل تدري ماذا وجدت ؟ !

— شبح السيد المدير .

— كان فأرا صغيرا ينظر الى بوجل !

— وماذا فعلت معه ؟

— دون أن أشعر وجدت نفسى أمسك « بالشبشب » فى محاولة لقتله .. وما حدث كان عجيبا ، لقد قاومنى الفأر بشجاعة ، حتى انه وثب الى كفى من فوق النضد فى احدى قفزاته اليائسة . هل تعرف ماذا فعلت أنا ؟ وثبت فزعما ، فازداد حنقى .

— احترس السيجارة ستلسعك .

—

— اذن فقد حنقت على الفأر لأنه قاوم ودافع عن نفسه ؟ !

— كلا ، كلا .. لقد زاد حنقى من نفسى ..

— وضيق الخناق على الفأر ؟؟

— نعم ، حتى وقف فى احدى الأركان عاجزا ، ينظر الى وهو يلهث . ورفعت يدى بفرض قتله ، ونظرت الى عينيه ..

— ثم ماذا ؟ تكلم .

— لا أدري بالضبط ماذا كان يدور فى داخلى لحظتها ..

اذ .. اذ اننى لم أقتله .. أمسكته بورقة .. وهبطت الى الشارع حيث تركته حيا ..

أشهر رسائل الحب

« سامية .. حبيبتي وخطيبتى

هذا هو يومى الأول هنا ، وهذه هى أول رسالة أكتبها
إليك .

أنا عائد الآن من جولة عابرة بهذه المدينة ، لا بأس بها من
مدينة ، الجو هنا معقول ، محتمل قد يكون ذلك لأننا مازلنا
فى فصل الشتاء ..

.. أنا مشتاق إليك وإلى لمسة من يديك ، تعيد لى حماستى
وتدفعى .. ومن كان يصدق أن طالبا مثلى ينال الليسانس بدرجة
جيد جدا ؟ ! من يصدق هذا ؟ ولكنها لمسات يديك ونظرات
عينيك ، بل وحتى وقع قدميك وأنت تهلين على .. كل ذلك
دفعنى لالتهام الدروس ، والآمال العذبة تتراقص أمامى .

لم أكن أتخيل أنه سيأتى اليوم ، أتوجه فيه إلى محطة
سكة حديد القاهرة لأركب ذلك القطار الرهيب ، ولتأتى تلك

اليد القاسية تدق الناقوس ، فيمرق القطار بى على شريطين
كثيبين ينتهيان بى الى هنا ، حيث اكتب لك الآن .

رغم ذلك - رغم الألف ميل التى تفصلنى عنك - فان قلبى
معك . اخذته منى وانت تلوحين لى بيدك مودعة .

غدا سأواجه لاستلام عملى ، وبهذا أدخل أول يوم فى
حياتى العملية . لكم انتظرنا معا هذا اليوم « كنا نرقبه
ونستعجله ، وكانت المسافة بينى وبينه يوم تعرفت عليك تزيد
على العامين ، والآن أصبحت هذه المسافة يوما واحدا وأصبح
يومنا المنشود هو الغد .

صدقينى يا حبيبتى ، أنا مدين لك بهذا الغد « ..



« لا أرى مبررا لقلقك على ، حقا ان المدينة صغيرة جدا
لو قيست بالقاهرة ، الا انها نظيفة ، أما عن وقت الفراغ
فأقضيه فى قراءة المجلات .

السكن أيضا ليس سيئا .. أجمل الأوقات هى التى
أمضيها مع ضورتك أتأملها ، ولكنها عاجزة لا تستطيع أن تلقى
المسافة بينى وبينك ، عاجزة عن أن تغنينى عنك .

هل تدريين ماذا أتمنى الآن ؟ ستبتسمين ، مؤكدا
ستبتسمين .. أتمنى أن أكون رائد فضاء وأصعد الى القمر ،
قمرى أنا ، أنت حبيبتى ، حتى أمتغ نفسى ببسمة صغيرة ترسم
على شفتيك ، بلمسة عابرة من يدي لشعرك الأسمر الناعم ،
أرفع تلك الخصلة العابثة التى تأبى الا أن تقبل خدك الأيسر .

لم أكن أدري أن امر تعيين أرعن سيفصاني عنك ، ويلقى
بى على بعد ست عشرة ساعة ، نائيا عنك ، ليجلسونى على مكتب
حقير فى العلاقات العامة .. وماذا أعمل ؟ ! أتولى الرد على رسائل
الهيئات والنوادي والمدارس ، شغلة تافهة لا يؤديها متفوق
ولا تعطى لانسان مثلى ..

لذلك فاني قدمت طلبا لنقلى الى القاهرة مرفأ حبي ..
ملحوظة : ارسلت خطابا الى خالى بالقاهرة ليبدل مساعييه
في سبيل نقلى » .



« .. ان لم افتح قلبى لك فلن اذن ؟ . البلدة اصغر
واضيق من ان تحتملنى . الجر بدأ يفزو الجو . سمعت ان
المناخ فى الصيف لا يطاق . اعتقد ان وجهى بدأ يسمر ، أصبح
قائما ، قارب لونى ان يصير مثل لون الأهالي هنا . الأهالي
هنا لا يصلحون لشيء ، يسمر ، والعجيب أنهم مغرمون باللباس
البيضاء . الشيء يجب تقيضه رغم انه يكشفه ويفضحه ، حتى
أسنانهم ناصعة البياض ..

شوقي لك يزداد ، سأحاول ان احضر الى القاهرة ..

ملحوظة : الادارة امرت بنقلى الى عمل آخر ، ولكنه هنا
وليس فى القاهرة . ارسلت خطابا ثانيا الى خالى ليزيد من
مساعييه واتصالاته . انتظرينى قريبا ، سأحضر اليك ،
سأحصل على الاجازة بأية وسيلة .. » .



« .. ما أمتعته من أسبوع ، أجمل أسبوع قضيته في حياتي ، ملامحك . أدق ملامحك نسخت هنا في عقلي ، حفرت في روحي . »

اننى اعجب ، كيف تطلبين منى أن أحضرك الى هنا ، وهنا العذاب ولن تجدى من تصادفينه ، حتى كلامهم سريع ، سريع جدا ، يأكلون نصفه الأخير ، أسرع من أن تفهميه . لا يعرفون كلمات المجاملة . ولم أندھش عندما رأيت احدى السائحات تتفرس في وجه أحدهم ، ثم تخرج آلة تصوير وتسجل صورته .
« .. يا عزيزتى .. »

حبي لك يمنعنى من أن أحضرك هنا .

عدت لأجد الوظيفة الجديدة في انتظاري ، أتعرفين ما هي ؟؟ « مرافق » .. اسمها هكذا .. عندما تأتي أى رحلة لمشاهدة سير العمل هنا فانى أرافقهم لأشرح لهم ما يرونه : تصورى ذلك ؟ ! يا لضياح الجهد والوقت ! ترجمان !! نعم خطيبك يعمل ترجمانا بدرجة « جيد جدا » . أصحابهم وأقول لهم : هذه ماكينة تخريم ، هذه كراكة ، وتلك رافعة ، أما ذاك فهو القلاب ، وهذا الذى أدهشكم أسماء العمال « الجبار » .

وان كانوا من الأجانب ، فنفس الكلام ولكنه يكون بالانجليزية : حجمه مثل حجم الهرم الأكبر ست عشرة مرة ، الجرانيت يكون تسعين في المائة من مواده .. والذى أقوله اليوم أعيده غدا وأكرره بعد غد وكل يوم لدرجة اننى وجدت نفسى أقول قبل أن أنام : أما عن التوربينات فهنا مكانها !! .

فكرت في احضارة شارة نحاسية ألفها حول ساعدى كاي ترجمان .

ملحوظة : أرجو أن تتصلى بخالى وتذكره بوعدده لى .
ملحوظة أخرى : أرجو أن تسأل الطبيب ان كان مستعدا
لاعطائى اجازة مرضية أخرى كالسابقة » .

* * *

» .. اكتشفت وجود حمام سباحة هنا ، أداوم على
الذهاب اليه ، رغم اننى لا أجيد السباحة (أصبح دائما فى الجزء
غير العميق وبجوار الحافة فاطمئنى) .

أول أمس رأيت حادثة عجيبة ، بينما كنت فى جولة مع
بعض الزائرين ، اذ بأحد العمال - اسمه سيد - يقع على
الأرض مفشيا عليه . سارعت بحمله الى ركن هادئ بمساعدة
بعض العمال ، فى انتظار قدوم رجال الاسعاف ثم حاولت بذل
جهودى لافاقته ، وقد سررنى فعلا انى نجحت فى ذلك .. ثم
جلست بجواره وتأملت وجهه ، وكانت أول مرة أفرس فيها فى
وجه واحد من الأهالى هنا ، تأملته جليا ، واحسست باحسان
غريب ، كانت ملامحه تذكرنى بلامح انسان أعرفه جيدا ،
انسان رأيت من قبل ، له ملامح دقيقة جميلة ، كأنما مثال
عظيم دقق فى نحتها .. ثم تذكرت ، كانت ملامح سيد تشبه
لامح الفراغنة الى حد كبير . خوfo مثلا أو رمسيس ..

ابتسم لى فى عرفان جميل . عيناه نفاذتان ، ولكن فيهما
طيبة صادقة . قلت له ضاحكا مهونا :

— قم يا خوfo ، قم ، أنت الآن بخير ..

ضحك ، وضحك رفاقه ، وتركتهم وهم يضاحكونه مكررين
جملتى : قم يا خوfo ، أنت الآن بخير يا خوfo ..

وكانت دهشتى كبيرة فى اليوم التالى - أمس - عندما
رأيتة واقفا فى مكانه . يُؤدى عمله كالمعتاد . هلل مرحبا بى
عندما لمحنى شاكرا . فقلت له مداعبا : لماذا لم تسترح
يا خوفو ؟؟

ضحكوا جميعا من قلوبهم وقال أحد العمال : لقد
أسميناه « سيد خوفو » .

وظهر اليوم - قبل هذه اللحظة بساعتين - مررت على
موقعه وكان يتناول غداءه . وأقسم أن أكل معه - عيش
وملح - وتذوق طعم الخبز - خبزهم - ليس كخبزنا فى القاهرة ،
ما الله ! كأنه خبز بالسكر !

وتحدثنا كثيرا أثناء تناول إشباى ، واكتشفت شيئا
مدهلا . أن يفهم من السهل على الإنسان أن يفهمها ، سريعة
بعض الأشياء ، يخيل للبسامع أنهم يأكلون نصفها ، ولكنه إذا حاول
أن يفهمها فسيجدها سهلة . حدثتهم عن القاهرة وصخبها
وملاهيها . وهم مبهورون (لاحظى أننى لم أحدثهم عن جبال
نسائها) .. وحديثى هم عن آمالهم وأحلامهم فهزوني من
الأعماق ، آمال صغيرة ، أحلام بسيطة ، ولكنها صادقة ..
سيد - سيد خوفو - يحلم بمنزل صغير يتزوج فيه ويعيش .
كان وجهه رائعا وهو يحدثنى ببساطة عن البنت التى تنتظره فى
قريته ، التى يضاعف جهده من أجلها .

عندما بدأ يصفها لى سرحت عيناه الى مدى البصر ، حبيبته
هناك ، فى نفس الاتجاه . كانت قريته هى قبلته وهو يصفها
لى بأصفى الكلمات ، شعرها أسمر طويل ، فابرة القوام

بغمازتين ، أهم ما يعجبه فيها طيبتها ، يجد عندها كل الحنان
الذى يحتاج اليه (أنظري فى المرآة وستجدين أن هذه هى
صفاتك) .

ضحكت وقلبت له : كأنك تصف خطيبتى ، اننى ان حاولت
أن اصفها قلن أجد أبسط وأحلى مما قلت ..

غير أن الذى لا أنساه هو وجهه ، ما أروع وهو يصف
حبيبته ! ما أبدع أنفعا لاته !! ما أعذب رنين صوته !!

حقا يا حبيبتى ، ما أروع ذلك الذى يسميه جيا ..

ملحوظة : تصوري هذا : اسم فتاته هو « سلمى » واسم
حبيبتى أنا « سامية » .. يبدآن بحرف السين ويشتركان فى
الميم والياء .. » .



« .. معك حق فى تسمية خطابتى السابق : بخطاب سيد
خوفو ، لقد صار سيد صديقى ، وأصبحت سهراتى المفضلة
معه ومع أصحابه (الجو هنا يشجع على السهر) . وسمرهم
من نوع جديد ، يتحدثون دائما عن الولد ، الولد كبر ، الولد
حقن اليوم لتفديته وتقويته ، الولد شب وغازظ الأمريكان ،
توربينات الولد أصبحت جاهزة ، الولد سيروى المزيد من
الأرض ، الولد ، الولد ..

فاذا سألت عمن يكون هذا الولد أجابوك فى دهشة :
الولد الذى غلب النيل وجعله يحيد عن مساره ، السنن نرقب
نموه يوما بعد يوم !

تضوري ؟ السيد العالى ، العملاق الضخم الشاهق :
ولدهم !!

وأحيانا ينطلق أحدهم بالغناء ، هكذا دون دعوة من
أحد ، فقط يشعر بالرغبة فى ذلك فيفعل ، وفى الحال يصمتون
ويعتدلون فى جلستهم ، وتبدل ملامحهم فتلين . وتصفو عيونهم
إقتحلم .. من يدرى ؟ ربما بالزوجة أو الحبيبة ، بالأهل ،
بالأرض ، بمهد الطقولة .. لا ينظرون لمطربهم .. يخيل إليك أنهم
لا يستمعون إليه . منهم من يجلس سائدا ذقنه على ركبته ،
ومنهم من يغمض عينيه ، منهم من يرسل بصره الى شئ ما ،
وزميلهم يغنى (بلا موسيقى طبعاً) . بصوت مشروخ فيه رنة
حزن .. لا أدري لماذا ؟ فيه بحة شاكية ؟ !

ويوم انطلق سيد مغنيا كانت كلماته تشكو البعد وتدعو
للقاء الحبيب (أنا أيضا أفعل ذلك . ولكن بطريقتى الخاصة ،
بالورق وبالقلم وبالخطابات التى أرسلها لك ، ولو كنت أعرف
الغناء لغنيت لك مثلهم) .

الأعجب من ذلك كله اننى عندما سألت سيد عن حفظ
عنه كلمات هذه الأغنية ، رد فى تواضع بأن : « الكلام الذى فى
قلبه يضعه على لسانه ، بعد أن يلبسه اللحن الذى لم يعلمه له
أحد معين » . أغانيهم تشجيني ، لم أعد أطيق سماع أغانى
الراديو ، فقد أصبحت أفتقد فيها الصدق ..

هأنذا عدت ثانية الى الحديث عن سيد ، وهذه المرة
ليس عنه فقط بل عنه وعن أصحابه أيضا !!
ولكن يا عزيزتى ..

ما بيدى حيلة . الناس هنا مدهشون ، يهزمون الانسان بكرمهم ، ويأسروه باقبالهم عليه . الغريب انهم مصرون على تسميتى « نبيل المرافق » ويبدو أن هذه عادة عندهم ، سبق أن اعجبتهم طريقة عمل أحد الأجهزة فأطلقوا عليه الجبار . وأصبح هذا اسمه ، لدرجة أننى نسيت اسمه الحقيقى ، ولدرجة أن الخبراء الروس انفسهم اعترفوا بالجبار اسما لهذا الجهاز !

حدث فى بدء عملى أن سألتنى سائحة عن احدى الآلات وهل هى آلة اجنبية ؟ ويومها اجبتها بنعم . لو سألت اليوم هذا السؤال لاختلفت اجابتى .

على أنهم قد يكون بإمكانهم تغيير كل شيء — حتى مجرى النهر — الا أن أمرا هاما لم يتغير فى : هو حبنى لك ، بل أصبح أقوى وأعمق ..

سيد يرسل لك تحياته . أقسمت له أن أبلغك سلامه . وقد اعجب جدا بصورتك عندما رآها معى . قلت له ان الأصل أجمل .. » .

« .. حلم جميل هذا الذى سأقصه عليك فى هذا الخطاب ، حلمت أمس بك وبى وبانسان ثالث ، ولدنا .. كان لطيفا جذابا ، وقد أسميناه سيد .. » .

فاتح الكوبرى

وجدت نفسي أسير في سرياب طويل معتم ، قاتم اللون خائف الرائحة . تلفت حولي باحثا عن مكان أخرج منه ، حتى المنفذ الذى دخلت منه اختفى ، سد ، وقف عليه حارس ذو قنابع وهيب ، ممسكا بحربة ذات رؤوس عديدة . سرت مديوقيا بقوة غريبة لأجد أمامي منصة قضائية عالية ، سوداء اللون . رفعت رأسي لأعلى حتى يطاول نظري قممتها ، فوقها كان يجلس الشيخ رضوان ، ناظرا الى من أعلى بلا انفعال . رغم جمود وجهه لمحت اتهاما في عينيه ، اتهاما واضحا .. وكان لابد أن أداغ عن نفسي :

« يا شيخ رضوان ، يا حضرة القاضي ، أرجوك ، ارس بى على بر الأمان ، اعترف بأنى فتحت الكوبرى ، وفى غير ميعاد فتحه ، أمرونى أن أفتحه ففعلت ، هذا عملى أكل عيشى .. ولكن .. » الصمولة « لم تكن مفكوكة ، وهذا هو المهم ،

الصموالة لم تكن مفكوكة .. نعم أخذت علاوة ، ولكن ليس الذنب
ذنبى ، أديت واجبى وحسب .. يا حضرة القاضى . أرحمنى ،
كانوا ٥٧ تلميذا ، ماتوا ، غرقوا .. لكن مالى أنا ؟ حاكموا من
أصدر الأمر ، أنا عبد المأمور ، ولم تكن الصموالة مفكوكة ..
ولم يكن قصدى أن أدوس على ذيل القطة .. » :

من جميع أنحاء السرداب ، من جدرانه ، من سقفه ، من
أرضه ، سمعت أصوات أناس غاضبين ، هاتفين ضدى بلا رحمة ،
صرخت بكل قوتى :

« ولكنهم تلاميذ أغبياء ، يريدون تغيير الكون واسقاط
الملك بمظاهرات ساذجة .. » .

عادت الأصوات وثارَت ضدى ، تلفت حولى ، فى كل
مكان .. أين هم ؟ أين هم ؟ ! : أصبت برهَب . نظرت للشيخ
رضوان : « ألا تفعل شيئا » .. أمسك بمطرقته ، أخذ يطرق
بعنف حتى تمكن من انكشاف هذه الأصوات .. ثم .. ثم بدأ
يحدثنى ، ولضوته صدى رهيب ، تخرج الكلمة من فمه فتدور
فى أنحاء السرداب من أوله الى آخره ، لتعود لى ألف كلمة
غاضبة ، تطرق أذننى فى وقت واحد ، بدوى رهيب مفزع :

« يا عباس ، قتلت أولاد الناس ، حكمتنا عليك بالموت زمينا
بالرصاص » .

رجعت على أعقابى هربا ، وجدت فى وجهى مجموعة من
العساكر صوبوا بنادقهم الى صدرى ، نفس العساكر الذين
سدوا الكوبرى فى وجه التلاميذ ، جدران السرداب نفسه
انشقت عن عيون ناقمة ، عن أفواه تريد أن تلتهمنى :

« يا ملعون من كل الناس ، يا ملعون من كل الناس ،
يا ملعون من كل الناس .. »

— بل أنت حبيب كل الناس ، حبيب كل الناس ، يا عباس
يا ولدى ، عاد الكابوس يفرعك ثانية .

— هذه ثالث ليلة با أمي أحلم فيها نفس الحلم ، منذ ذلك
اليوم المشئوم .

— الذنب ليس ذنبك ، أنت نفذت الأمر فقط .

— ولكن الناس ، الناس في الشارع تغيرت معاملتهم لى .

— عين حسود أصابتك ، ساعد لك البخور .

تخرج الأم . ويتجه عباس الى النافذة ، يلقي نظرة الى
الشارع ، الى المقهى الصغير هناك . يقول لنفسه :

« هذا هو « حسين » المخادع الكاذب جالس على
مقهى الشارع ، ومن حوله أبناء الحي ، يتحدث اليهم ،
ويستمعون له في احترام ، سرق مني الاحترام بأقاصيصه
المزيفة ، انا متأكد انه يقص عليهم الآن حكاياته المقبولة من بطولته
المزعومة ، جاء الضابط وأمره بفتح الكوبرى ومظاهرة التلاميذ
تسير فوقه ، ورفض هو ، وغافل الضابط وفك « صمولة
الجهاز » خلصة ، وتحجج بأن الجهاز عطلان ، وعلى ذلك لا يمكن
فتح الكوبرى .. وعند ذلك يهمل الناس له ، ويفرقونه في بحر
من الثناء ، الأسطى حسين البطل ، الأسطى حسين الشجاع ،
حسننا فعل ، حسننا أتى ، ثم يسكتون ويقتربون منه ليشتبكوا
في دفثى .. وعباس — عباس أنا — ماذا فعل ؟ .. يضحك حسين
الخبيث ويلقى بأكذوبته الكبرى ، كان الضابط قد يئس وكاد

أن ينصرف ، عند دخول الأسطى عباس ، فماذا فعل عباس ! ؟
ربط الصمولة ، وأدار الجهاز وفتح الكوبرى ، وغرق ٥٧ تلميذا ،
وبذلك يضعنى فى الحفرة ويبدأ الناس فى اهالة التراب على ،
عباس الجبان ، عباس الخائن ، عباس الذى خدعنا بطيبته
المزيقة ، عباس القاتل ، عباس عدو الطلبة ..

— آه يا أمى .. كنتموا أنفاسى ، لم أعد أطلق السير فى
الشارع وعيونهم تطاردنى ..

— تعال يا عباس ، هداك الله ، تعال .. خط فوق البخور
سبع مرات ، وأنا بهذه الابرة سأخز سبع وخزات ، الأولى فى
عين الشيطان حتى يبعد بوسواسه عن روحك ، والثانية فى عين
الجان حتى يتركوا جسدك فى أمان ، والثالثة فى عين الحسود ،
حسدوك يا ولدى ، ورب الكعبة حسدوك يا ولدى .

— والوخزات الأربع الباقية ؟؟

— الرابعة فى عين من يشاركك عملك ، زميلك فى العمل
الأسطى حسين ..

— الفشاش المخادع اللئيم الحقود ..

— كرهك منذ خطبت « فتحية » .. وكان يتمناها
لنفسه ..

— سمعت أنها تريد أن تفسخ الخطوبة !

— لا تصدق ، أمها صديقتى ، ولن تطاوعها على فعل ذلك
لن توافقها أبدا ..

– الذى يدهشنى ما يحدث فى الحلم ، لماذا الشيخ
رضوان بالذات ؟؟ لماذا هو الذى يخاكنى ؟ !

– الشيخ رضوان صديقك وانت من مريديه ، اذهب
اليه ، استشره حتى تطمئن ..

– والناس فى الشارع ، الناس فى الشارع يا أمى ؟؟

– سيعودون الى سابق عهدهم معك ، ويعود حبهم لك .

هذه أوهام يا أمى ، كنت بمجرد ظهورى فى الشارع يحيينى
الجميع فى حب وود ، أما الآن .. فهنا هو محمود العجلاتنى
يدخل الى دكانه حينما يرانى حتى لا يرد تحيتى ، وكان منذ
أربعة أيام فقط : « أهلا بالأسطى عباس ، حبيبى وختيب كل
الناس » .. وذلك الطعنى القلندر ، بالأمس رفض الرد على
تحيتى وأهمل يدي الممدودة له ، ونسى أن هذه اليد كثيرا
ما أنقذته ودفعت عنه أيجار شقته : « يا مزحبا بمن أنقذنى
من نوم الرصيف » .. ملعون أنت وملعون هؤلاء الجالسون على
هذا المقهى ، وعلى رأسهم حسين لم أكن أعلم أن بالناس مثل
هذه القدرة على الكره ..

وتقولين يا أمى ان الناس سرعان ما ينسون ، هذه أوهام
من وحى طبيبتك !!

وتلك المتشحة بالسواد ، التى تنظر لى فى حقد من نافذة
منزلها : يا سيدتى ابنك سقط من فوق الكوبرى لأن العساكر
كانوا يطلقون على التلاميذ الرصاص ، كل الذى فعلته أنا انى
فتحت الكوبرى ، تنفيذا لأمر رجل غيرى ، وجهى ختلك اليه ،

الى من أصدر الأمر .. فلم تكن الصمولة مفكوكة .. ولم
أقصد أن أدوس على ذيل القط .

آه يا أمي ، كل الشارع أصبح يكرهني ، نوافذه أصبحت
عيونا حاقدة تلعنني ، أبوابه أضحت أفواها مفتوحة تشيعني
بشتائمها .. وذلك الطفل الذي التقط الحجارة من على الأرض ،
وجاء يركض خلفي .. يا ولدي ماذا تقصد ؟ .. حسنا ،
هانت القيت بالحجر على ظهري ، الآن اجر الى خضن امك
لتقبلك .. يا الهى ، يعلمون اولادهم كرهى ، لم أعد أطيق ،
يرضعونهم بغضهم الأسود مدابا في لبنهم ، لم أعد احتمل .

— أين انت يا شيخ رضوان ؟ .. أين انت ؟

بين صفين من الرجال المتمايلين على دقات الدفوف ،
يذكرون مكبرين اسم الله ، يسير عباس مخترقا حلقة الذكر ،
حتى نهايتها ، حيث يجلس الشيخ رضوان بين مجموعة من
الشيوخ يفيض هيبة وجلالا ، يلثم عباس يده فيسحبها
مستغفرا ربه .

— يا فضيلة الشيخ رضوان ، لثالث ليلة وأنا احلم بك .
وفي كل مرة تحكم فيها باعدامى ، لماذا ؟

— يا عباس يا ولدي ، اهدأ ، اجلس ..

— يا شيخ رضوان أرجوك ، ارس بى على بر الأمان ،
اعترف بأننى فتحت الكوبرى ، أمرونى أن أفتحه ففعلت ، هذا
عملى ، أكل عيشى يا سيدى الشيخ ، ولكن الصمولة لم تكن
مفكوكة ، وهذا هو المهم ، والقط هو الذى نام فى طريقى قدست
على ذيله .. وفى ذلك المساء المشثوم ...

يسكت فجأة في ضيق . يشيح بيده في ضيق منزعجا من صوت الدفوف المرتفع . يصرخ يعلو بصوته على طرقاتها :

- في مساء ذلك اليوم المشؤوم .. عدت الى الشارع متوجها الى منزلى ووجدت ثلاثة منازل تنبعث منها أصوات صراخ وعويل ونواح مؤلم ، وعلمت ان من ضحايا المظاهرة ثلاثة تلاميذ من شارعنا ، لم أتم ليلتها .. وحلمت بقطي وذيله .. وفى الصباح عندما ذهبى للسير فى الجنازة ، قالوا عني « يقتل القتل ويسير فى جنازته » .. مع انى نفذت الأمر فقط ، ولم تكن الصمولة كما يزعم حسين الشرير مفكوكة ..

يحاول الشيخ رضوان تهدئته ، ويفسر له الآيات التى تتحدث عن الثواب والعقاب ، وأخيرا يقول له :

- يا عباس اسأل ضميرك أولا ، المهم هى راحة الضمير اسأل ضميرك أولا ..

- يا أمى ، يا أمى ، حتى خطيبتى تخلت عني ؟ ..

- لماذا لم تذهب الى الشيخ رضوان ؟

- ذهبت ، ولم يكن هناك جدوى من زيارته ، عجز الشيخ أن يفتينى بشيء ، وراغ منى فى الاجابة ، وهل قصده ليقول لى : اسأل ضميرك ضميرك ؟ .. مسبتريح أيها الشيخ .. ولكن الناس هم سبب عذابى ، وبالتحديد عيونهم ، خلق الله عيون الناس لتعذبني ، لتسألني : اضحيج انا عباس فاتح الكوبرى ؟

أصبح أن الصسولة كانت مفكوكة ؟ .. أما عن ضميرى فهو
مستريح ، أليس كذلك يا أمى ؟ .. أمرونى فنفذت الأمر ..
لماذا لا يوجهون لعناتهم لذلك الرجل الذى أصدر الأمر ؟ ..
لماذا لا يتوجهون بها الى رئيس البوليس السياسى والى الملك ؟

— سنبحث لنا عن مكان فى غير هذا الشارع ، ونتركهم .

— الى أين ؟ ! والناس فى كل شارع عرفوا بحكايتى ؟

— أنت هكذا دائما ، تعمل من الحبة قبة ، يوم دست
بقدمك سهوا على ذيل القطة فاشتريت لها كوبا من اللبن حتى
تعوضها عن ألمها ، وظللت أسبوعا كاملا كلما رأيته تربت على
ظهرها . قائلا لها : سامحيني يا قُطتى ، سامحيني يا صغيرتى .

— وهربت القطة من المنزل فى اليوم الثامن .

.. يا ولدى ، لا تياس من رحمة الله ، غدا يعود كل شيء
الى سابق عهده ..

يأتى صوت من الشارع ينادى عباس ، فينظر من النافذة
ليجد الأسطى محمود العجلانى يقول له :

— لماذا لم تعد تحضر الى المقهى كسالف عهدك يا أسطى
عباس ؟ تعال . تعال يا رجل نتسامر مع أهل الشارع ، انهم
جميعا فى انتظارك ..

يفرح عباس ، ويكاد يطير قلب الأم من غبطة ، ويهبط
ويتوجه الى المقهى ، انه ملئ بأهل الشارع ، زبائنه أكثر من
أى يوم آخر ، وجميعهم ينظرون له ، يسمع أصواتا جامدة
ترحب بمقدمه . ويجلس فى المقعد الوحيد الخالى ، وسط

الجالسين ، أصبح مركزا لدائرة من رجال الشارع ، يقتربون منه رويدا رويدا ، يتنسم لهم في تزلف .. لكن مقاعدهم تترجح لتضييق دائرتهم ..

يقدم له أحدهم الجريدة المسائية ، ويشير الى عنوانها الكبير :

« اغتيال رئيس البوليس السياسى - القاتل مجهول -
جائزة مالية كبيرة لمن يرشد عن القاتل » .

تموت ابتسامة عباس ، تميد به الأرض .. من أجل هذا اذن دعوتهمونى ؟ .. من أجل هذا التفقتم حولى الآن .. أكثر من خمسين رجلا ، بما يزيد عن مائة عين شامتة تتطلع الى !

ينظر حوله ، هناك فم لا بل اثنان ، بل عشرة ، بل مائة .. عدد كبير من الأفواه فتحت في وقت واحد ، لتخرج منها عبارة واحدة : « الذى أصدر الأمر قتل ، بقى من نفذه » .

يفر الدم هاربا من وجهه ، يهب مزعورا، يزيح الناس من طريقه :

- لن تنالوا منى ، سأفضحكم يا كلاب، وسترون ما انا فاعل . سأشكركم الى الملك .

يتوجه الى دار المحافظة . يدخلونه على الفور الى مديبر الأمن . يستقبله بالترحاب ، ويهنئ فيه شجاعته الأدبية .. ثم يسأله ..

- هل حقا تعرف القاتل ؟ ..

— نعم أعرفهم ، فقط أطلب الحماية ..

— عصابة منظمة اذن ، هذا ما توقعنه ، كم عددهم ؟ ومن هم ؟ .. ثقب اننا ستوفر لك الحراسة الكافية .

— الأسطى حسين ، ومحمود العجلاني ، والطعمجي ، وصاحب المقهى ، وصبيه ، وأقارب السبعة وخمسين تلميذا وكل الناس ، حتى الأطفال حتى خطيبتي .. أرجوك ان تحميني قتلوا الأمر ، والدور الآن على من نفذ الأمر ، على انا ، عباس فاتح الكوبرى .. هكذا قالوا لى .. احمنى أرجوك ..

ينفجر غضب الضابط .. ويطرده .

يعود الى الشارع ، المقهى ملئ بالناس ، ويقرا على الحائط في كل مكان : « الموت لقاتلي الطلبة » .. يقول لنفسه : يجب ان اقنعهم ببراءتي ، يجب ان يفهموا اننى لست قاتلا ، لست خائنا ..

يتقدم الى المقهى . يواجه الجالسين . يملأ صدره بالهواء فتتسع فتحتا أنفه ، ثم يرفع صوته :

— يا ناس يا خلق الله ، افهمونى ، فتحت الكوبرى ، هذا عملى ، اكل عيشى .. ولم ادس على ذيل القط برغبتي ، كما زعم حسين لكم ..

يلمح زبائن المقهى فى عينيه بريق جنون ، فيبدعون فى الانصراف .. ويستمر فى دفاعه عن نفسه ، وقد وقف فوق أحد المقاعد حتى ينصرف كل الزبائن ، ولم يعد أمامه الا المقاعد الخالية ، وهو مستمر فى دفاعه ، ولا يسكت الا لفترة يسترد

فيها أنفاسه اللاهثة ، ثم يتابع حديثه في اصرار الى المقاعد
الخالية :

— ألم أقل لكم ؟ ! لماذا تصدر عنكم أصوات الاستنكار ؟!
لماذا أسمعكم تهمهمون في أذني بريية ؟ لماذا تزومون في وجهي
أنا عباس البريء ؟ ألا تصدقونني ؟ لم تكن الصمولة مفكوكة .

ينكس رأسه لفترة ، والحزن مرتسم على وجهه ، فجأة
يملؤه نشاط حماسي ، فيتقدم من المقاعد ويبدأ في رصها في
صف واحد طويل ، مكونا منها ما يشبه الكوبرى ، ويتراجع عدة
خطوات يراقب ما فعله ، يبدو عليه الرضا ، في ثوان ينقلب
الى انسان صارم ، يصرخ وهو يشيح بيده وعيناه على
كوبرى المقاعد :

— لا ، لا يا حضرة الضابط ، لن أفتح الكوبرى والتلاميذ
من فوقه ، لن أفتحهم ، أعبروا يا اولاد ، أعبروا في سلام
آمنين ، أعبروا بلا خوف الى بر الأمان ، هيا يا كتايت هيا ..
قلت لك لن أفتحهم ، لن أفتحهم ، الا تفهم ما أقول ؟ ! ألف مرة
قلت لك : لن أفتحهم والتلاميذ من فوقه ، ألف مرة قلت لك
هذا .. لن أفتحهم .. انا لا أخافك ولا أخاف الملك .

يهتز جسده . يدفن رأسه في كفيه . يتساقط راكمها ،
وكل جسده يبكي :

— نعم الصمولة كانت مفكوكة .. كانت مفكوكة ..
مفكوكة ..

اللحظة الطويلة

هناك بجانب المذيع جلست فوق الأريكة ، تسند رأسها فوق كفيها ، شاردة بفكرها ، ساهمة نظراتها الى الأرض ، لم تكن تنظر الى شيء معين ، بل كانت نظراتها تائهة قلقة ، تنظر الى كل شيء دون أن تعي أى شيء ، فكل شيء فقد معناه .

مثل عينيها كان فكرها ، لم تكن تفكر في شيء معين ، بل كانت تفكر في أشياء كثيرة عجيبة ، غير مترابطة ، تربطها صفة واحدة هي القلق والحزن ..

كانت تنظر الى السجادة ، ثم تقول لنفسها غدا سأجعل الخادمة تنفضها ، ثم تتحول أنظارها الى اللقطة النائمة في استرخاء في ركن الحجرة ، فيرتسم على وجهها مشروع ابتسامة راضية ، سرعان ما تختفى .. كانت غير راغبة في الابتسام ، شعور غريب بالذنب جعلها تستكثر على نفسها أن تضحك أو أن تشعر بالسعادة .

تنهدت ملء رئتيها ، ثم تمتمت :

— اللهم الحمد لك ، أنا راضية بحكمك ، وطالبة الصبر
منك ، الصبر ياربى الصبر ..

تعود فتسهم بعينيها مرة أخرى الى أرض الحجرة ، ثم
ترتفع بنظراتها الى الحائط تمسحه بنظرات ملساء مبهمة لا معنى
لها ، لا تتوقف عند شيء بل تنزلق على الحائط ، دون أن تهتم
بما عليه أو بما هو موجود بجانبه ..

ولكن ما أن وصلت نظراتها الى تلك الصورة المعلقة على
الحائط حتى تسمرت مكانها ، وكأن مغناطيسا جذبها . لم تعد
هذه النظرات ملساء ، بل أصبحت لزجة ، لزجة جدا ،
فالتصقت بهذه الصورة ، ولم تعد راغبة في أن تبتعد عنها ،
وأضحت واعية غير مبهمة ، حانية حاوية كل عطف ، كل حنان
وكل حب ..

وضيقت « الست خديجة » من عينيها ، متمنية ان تجعل
من نظراتها أيادى عطوفة تربت على هذه الصورة وتداعبها .

ثم تنهدت .. وسرح فكرها ، وشرذ ذهنها .

هناك يا خديجة بين هذا الاطار ، وفي هذه الصورة جزء من
حياتك ، ونسمة من ربيعك .. هناك يا خديجة حيث تقفين
باسمة متفائلة ، سعيدة بطرحتك وبملابسك البيضاء المسترسلة
الطويلة ، وبيدك منديل أبيض اللون هو الآخر كل شيء فيك
أبيض ، وكل جزء فيك يضحك ، مثل قلبك الذى كان يرقص
طربا على ايقاع دقاته السريعة المتتابعة ..

ثم هذه الوردة المثبتة في عروة حلته ، أليست بيضاء هي الأخرى ؟ انه « حسين » زوجك وزميل العمر كله ، يقف بجوارك ، ترتسم على وجهه جدية مصطنعة ، لم تستطع أن تخفى فرحته الطاغية ، لقد كان يحب الورد الأبيض ..

ايه يا خديجة .. انها أيام حلوة لن تعود ، أيام جميلة تعيشين على ذكراها ، تجترين سعادتها كلما قسا عليك الزمن كانت حياتكما معا حياة بسيطة غير معقدة ، مرت هادئة سهلة طبعا لم تتزوجا عن حب .. ولكنه - الحب - جاء بمرور الوقت وبالعشرة ، حسين والحق يقال رجل ولا كل الرجال يا خديجة الله يرحمه ، كان يخاف عليك وكان رغم ما يبدو عليه من تجهم ومن قسوة كثيرا ما يدلك ويناديك « خديجة يا روح حسونة » ..

انت أيضا كنت تحبينه ، وكثيرا ما سهرت طوال الليل اذا تأخر خارج المنزل ، لا يهدأ لك بال ولا يغمض لك جفن حتى تسمعي صرير مفتاحه بباب المنزل ، عندئذ كنت تنهضين لتستقبليه بابتسامة حلوة طيبة تنسينه همومه وتلهينه عن متاعبه .

صحيح حدث بينكما بعض الخلاف الذي أدى الى شجار ، ولكنك .. ولكن انتظري يا خديجة . انتظري . ان الصورة منحرفة بعض الشيء في تعليقها .

دققت « الست خديجة » النظر الى الصورة لتتأكد ان كانت منحرفة في وضعها أم أن عينيها خدعتها ، ولما تأكدت من صحة ما رأت تحاملت على نفسها وقامت متجهة ناحية الحائط ، وكالعادة كلما سارت سارعت القطة لتتمسح في قدميها .. بعد

أن أصلحت من وضع الصورة ومن تنظيفها من بعض الغبار
العالق بها ، عادت الى مكانها بجانب المذياع الذى كان مازال
يذيع الأفانى .

لوحت بيدها دلالة على الملل .. أف ، ألا تنتهى هذه الأغانى ؟
ولماذا لا يذيعون أغنية « ياللى زرعتموا البرتقال » .. لقد كان
يحبها حسين ، الله يرحمه ويجعله من أهل اليمين ..

اليمين ! ؟ اليمين يا خديجة ، كان يقول لك دائما انك
ذراعه اليمينى ، وانت الآن من بعده أصبحت فعلا ذراعه اليمينى .
ذراع بدون جسد . هذك التعب ، وهزمك المرض ، وثعبت
أعصابك . لم تكونى هكذا أبدا فى أى يوم ، ففى كل شجار نشب
بين حسين وبينك كنت تصبرين عليه حتى يهدأ ثم تعاتبينه
وسلاحك فى ذلك ابتسامتك اللطيفة ، فيتهقر سريعا ، ويعتذر
لك قائلا وهو يقبل رأسك : « انت ست كاملة يا خديجة ،
حلوة وكاملة وعاقلة » .

مدت يدها بالمنديل تمسح دموع الذكريات ، وهى لم تكن
تبكى زوجها فقط ، ولم تكن تبكى أيامها السعيدة فحسب ، شىء
آخر هو الذى كان شغلها الشاغل فقد عادت تنظر الى زوجها
فى الصورة ، بأسى وبألم ، وأخذت تحدثه :

— عاقلة ؟ عاقلة ؟ لست عاقلة يا حسين ، لست كذلك ،
من بعدك لم أعد عاقلة أبدا ، هل تصدق ؟ هل تصدق هذا ؟
ابنى يا حسين ، ابننا .. لقد تركته يسافر وهو غائب منى ،
ترك المنزل بعد أن جلب الباب وراءه بعنف ، تماما كما كنت
تفعل أنت كلما أثارك شىء ، ولا أدري كيف طاوعنى هذا الملعون

قلبي في أن أدعه - ولدى حبيبي - يسافر الى اليمن ، الى
الحرب ، وهو غاضب مني .. وأنا لست متأكدة ان كان سيعود
لى أم سأحرم الى الأبد من لقائه ؟ :

وهنا تنبعت الى صوت المذياع .. لقد كفت الأغاني .
المذيع يتكلم : « هنا القاهرة . نستمع الآن الى أغنية .. » ..
فما كان من « الست خديجة » الا ان قالت غيظا تحدث نفسها :
« أغنية ؟ ! ينتهون من أغنية ليذيعوا أخرى ! » .

ثم تمللت في وضعها ، ومرة أخرى مسحت دموعها
وبدأت تسترد أنفاسها . نظرت الى الأرض فرأت القطة نائمة :

- بس بس ..

وأسرعت القطة تثب الى الأريكة لتنام في حجر سيدتها .
فهو دافئ لين .. والدنيا برد ، برد قارس ، جعل الست خديجة
تفكر في ولدها مرة أخرى ..

ايه يا خديجة ، ترى ماذا يفعل ابنك الآن في هذا الشتاء
الشديد البرودة ، وفي العراء ؟ ترى ماذا يفعل في برد يناير ؟
هذا اذا كان ما يزال .. ولكن لا .. انه حي ، باذن الله حي ،
قلبي يقول لى ذلك .. يارب أنت عالم بالحال احفظه لى ،
لم تعد لى في الحياة الا أيام معدودة ، فدعنى أمت قريرة
العين ، راضية بابنى فرحة به يارب ..

تنهض من مكانها ، وتمد يدها الى سجادة الصلاة . بعد
أن تنتهى من صلاتها تدعو لابنها بطول البقاء وبالسلامة ، وتعود
الى مكانها بجوار المذياع ، انه مازال يغنى ، يغنى ، يغنى . مدت

يدها لتسكته ، ولكنها عادت فسحبته ، ان هذا المطرب الذى
يفنى يحبه ابنها ، وستسمعه من أجل خاطره ، ابنها سبب
عذابها وسر ألمها .

لقد جاءها ابنها « سامى » قبل سفره يخبرها بأنه طلب من
قائده أن يدرج اسمه مع المتطوعين ليحارب فى اليمن ، ولم
تحاول أن تناقشه فيما فعل ، فهي تعلم أنه مثل أبيه ، ان
اقتنع بشيء يفعله مهما كانت العاقبة ومهما كانت المشاق .
ثم أخبرها « سامى » بأنه سيطلب يد « سعاد » بنت الجيران
قبل أن يسافر حتى يضمنها عروسا له فهو يحبها .. ولكن
الست خديجة أعلنت رفضها لهذه الخطوبة ، وسخطها على هذا
الحب ، فهي ترجو لابنها بنت خالته زوجا له ، فبنت أختها
مخطوبة له وهو طفل ، مقسومة له من زمان .. فكهذا قدرت
الست خديجة ، وهكذا اتفقت مع أختها .

حاول سامى اقناعها بكل الطرق بأنه هو الذى سيتزوج
وليست هى - أمه - وأنه عليه هو وحده أن يختار زوجته
وشريكة حياته التى يحبها ، ثم حاول أن يذكرها بأن الزواج فى
عام ١٩٦٣ ليس كالزواج على أيامها هى يوم أن تمت خطوبتها
وتزوجت ولم تر زوجها الا ليلة الزفاف ! ..

ولما لم تقتنع قال لها بأنه صمم فعلا على أن يخطب سعاد
وهو انما أخبرها من باب الأدب ، وحتى تكون على علم بما
سيحدث .. فما كان من الست خديجة - بعد أن سمعت هذا
الكلام - الا أن أقسمت برحمة زوجها وهددته بأنه ان فعل هذا
فلا هو ابنها ولا تعرفه .

وكانت هى الكلمة الفاصلة . فقد وقف سامى مأخوذاً لحظة ثم خرج ولم يعد حتى هذه اللحظة ، حيث الست خديجة جالسة بجانب المذيع ، وحيدة الا من قطتها ومن شجونها وأحزاتها ، تاركة نفسها للذكريات تعبت بها كمها تشاء ، مستسلمة لتأنيب الضمير يحطم أعصابها ويمزق راحتها ، انها الآن تنتظر شيئاً ما .. تتوقع أن تسمع شيئاً معيناً من المذيع .. شيئاً فيه ومضة من الأمل ..

الأغنية تنتهى الآن .. والمذيع يتكلم « هنا القاهرة » ايها المواطنين ، اليكم الآن رسالة جنودنا فى اليمن ... »

أخيراً .. أخيراً يا خديجة ، هذا ما كنت تنتظرينه .

وأصبحت كل حواسها آذاناً مصغية ، والمذيع مازال يتكلم : « اليكم بعض رسائل جنودنا الأبطال الذين يحاربون مع اخوانهم اليمنيين ضد الرجعية وضد الطغاة » . ثم بدأت الرسائل تتوالى ، كل جندى يقول كلمة بصوته تذاغ له فى المذيع حتى يسمعه أهله فيطمئنوا عليه ، والست خديجة تمنى نفسها بسماع صوت ابنها « سامى » اليوم . كل ليلة تستمع الى هذا البرنامج ، وكل ليلة يتكلم كثير من الجنود فتنام أمهاتهم قريرات العيون .. الا هى ، فحتى هذه اللحظة لم تكن قد سمعت صوت ابنها ..

وتستمع الى الراديو . ان الجنود يتكلمون واحدا وراء الآخر :

« انا نقيب محمد عمار من محافظة المنوفية ، أهدي سلامى الى ... »

ليس ابنك يا خديجة ، ليس ابنك ، لابد أنه التالى :
« أنا عريف فاروق صادق من محافظة المنيا ، سلامى الى
والدى العزيز واخوتى و ... »

ولا هذا ، ليس هذه المرة ايضا يا خديجة ، اصبرى ،
الصبر طيب ، فربما يكون هو الجندى التالى :
« ... مهندس عبد السلام النقيب ، الى زوجتى العزيزة
أهدى ... »

لم تحتمل « الست خديجة » الانتظار يعذبها .. بكت ،
بكت قائلة :

— أين أنت يا سامى ؟ أين أنت ؟ أين صوتك ؟ لماذا
لا تتكلم أريد أن أسمع صوتك ؟ لا اطلب أكثر من هذا ..

وجاء صوت المذياع ، ولم يكن الصوت هو صوت ولدها ..
وتوالى الأصوات ، أسماء كثيرة ، لم يكن بينها اسم « سامى
حسين » ابنها .. حتى كادت تيأس ، فمدت قدمها تنوى القيام ،
ولكن ساقها تسمرت فى منتصف المسافة بين الأريكة والأرض ..
هذا الصوت تعرفه جيدا ، هذا الصوت الذى تهادى الى
أذنيها الآن خلال المذياع ، إنه الموسيقى تعزف ؛ البلابل تفرد ؛
الملائكة تنشد :

« أنا سامى حسين ... »

حبيبى يا ولدى ، وأخيرا ، هل أنا فى حلم ؟ تكلم يا روحى ،
أنا أمك ، أستمع اليك ، أمك التى تحبك والتى تهيش من أجلك ،
قل أى شئ فكل كلمة منك حلوة على أذنى ، منعشة لحواسى
مريحة لقلبى ..

ثم مدت أذنيها أكثر مقتربة ناحية المذباغ ، وسمعت ..
« .. جندى مؤهلات بفرقة الصاعقة .. أنا بخير
والحمد لله » .

ومن بين انفعالات متباينة ، من بين القلق والترقب والرجاء
والخوف ظهر انفعال واضح ارتسم على وجه الست خديجة ،
انفعال الراحة والاطمئنان ..

نعم يا حبيبي ، الحمد لله ، الحمد لله ألف حمد وألف
شكر ، غدا ان شاء الله ، غدا سأوقد عشر شمعات لأم هاشم
من أجلك يا ضنايا .. ولكن ، اليس عندك أى كلام لأمك ؟ ! .
« .. سلامي الى الأهل والأقرباء .. »

هكذا يا ولدي ، الأهل والأقرباء وتتناسى أمك ؟ ! اذن
فأنت لم تزل غاضبا مني ، حقك على يا ولدي ، عند عودتك
سأقبل رأسك متأسفة لتسامحني ..

« .. وأرسل أحر أشواقى الى ... »

الى من يا سامي ؟ ! الى من ؟ ! قل .. لماذا تسبكت ؟ !
قل الى من ؟ ! لي انا أمك ؟ ! أم الى الأخرى بنت الجيران ؟ !
قل ..

وحبست أنفاسها حتى تلاحظ النبرات .. وجاءها صوت
ابنها وكان مخنوقا بالعبرات :
« ... أمي الحبيبة ... »

تراخت أعصابها .. الحمد لله ، ألف سلام لك يا روحى
أنت يا ضنايا .. يا عقلى . ثم عادت تستمع ..

« ... وأرجو يا أمي أن تسامحيني وألا تكوني غاضبة مني ... »

نكت ارتياحا وكان كابوسا ثقيلا انزاح من فوق صدرها ،
نكت لكنها تذكرت أن ولدها لم ينته فعاتت تحبس أنفاسها
قائلة : مسامحك يا حبيبي ، مسامحك من كل قلبي ..

« ... كما أهدى سلامي الى ... »

وهنا جمدت ملامحها ، اذن فلا فائدة ، لا فائدة من كلامها
معه ، لقد قال ابنها : « ... الى خطيبتى سعاد ...
وأهدى ... »

وصمتت برهة ، ثم بدأت تحدث نفسها مرة أخرى ، موجهة
الكلام لصورة ابنها في خيالها : اذن فانت مصمم يا سامي على
خطوبتك لسعاد بنت الجيران ؟ مبروك ، مبروك يا حبيبي ..

وفي لحظة كانت شعلة من المرح والسعادة حتى انها
نسيت امراضها ، واخذت تمسح بيدها في رفق وحنان فوق
ظهر القطة ، بابتسامة عريضة على الشفتين وفرحة عارمة في
القلب :

— خلاص يا بس بس .. غدا باذن الله اذهب الى والد
سعاد ، اخطب ابنته سعاد لابني سامي ، وان شاء الله يعيشان
في تبات ونبات ويظفان « صبيان وبنات » ..

تذكرت بنت اختها ، فتنهدت قائلة :

— كل شيء قسمة ونصيب ، كبدي يا بنتي !!

كتب المؤلف

- ١ - فوستوك يصل الى القمر - قصص ١٩٦٧
- ٢ - خمس جرائد لم تقرأ - قصص ١٩٧٠
- ٣ - الأيام التالية - قصص ١٩٧٢
- ٤ - دوائر عدم الامكان - رواية - طبعة أولى ١٩٧٢
طبعة ثانية ١٩٧٥
طبعة ثالثة ١٩٨٦
- ٥ - أبناء الصمت - رواية - طبعة أولى ١٩٧٤
طبعة ثانية ١٩٨٤
- ٦ - غرائب الملوك و دسائس البنوك (حكايات
حول قناة السويس) ١٩٧٦
- ٧ - الهؤلاء - رواية - طبعة أولى ١٩٧٦
طبعة ثانية ١٩٨٣
- ٨ - الوليف - قصص ١٩٧٨

٤١٧

(م ٢٧ - الوليف ٢)

- ٩ - غرفة المصادفة الأرضية - رواية ١٩٧٨
- ١٠ - مفامرات عجيبة - رواية للأولاد والبنات ١٩٨٠
- ١١ - كشك الموسيقى - رواية للأولاد والبنات ١٩٨٠
- ١٢ - حُسلن - رواية ١٩٨١
- ١٣ - ريم تصبغ شعرها - رواية ١٩٨٣
- ١٤ - عذراء الفروب - رواية ١٩٨٦
- ١٥ - الحادثة التي جرت - قصص ١٩٨٧
- ١٦ - تغريبة بني حتوت الى بلاد الشمال -
رواية ١٩٨٨
- ١٧ - حكاية ريم الجميلة - رواية ١٩٩١
- ١٨ - الأعمال الكاملة (١) تشمل المجموعات
رقم ٨ ، ٣ ، ٢ ، ١ من هذا الفهرس ١٩٩٢

الفهرس

● الوليف :

٥	١ - الوليف
١٤	٢ - اغماض العين
٣٥	٣ - بعض المنحنیات
٤٩	٤ - جميلة مثلها
٥٩	٥ - للذكرى
٦٣	٦ - شكاوى ملاك الموت الفصیح
٧١	٧ - دمبوع
٧٦	٨ - رحيل

٨٤ ٩ - النظرة فالابتسامة .. والعمر قصير ...

● الأيام التالية :

- ٩٥ ١٠ - لا يذكر البداية
١٠٥ ١١ - الوباء الرمدى
١١٧ ١٢ - غمزة العين
١٢٦ ١٣ - المناخ
١٣٤ ١٤ - المعدول والمقلوب
١٦٢ ١٥ - نبض الجناح
١٧١ ١٦ - رأسها فوق صدرى
١٨١ ١٧ - اننا توجل
١٨٧ ١٨ - الأيام التالية
١٩٧ ١٩ - هجرة الضحاك

● خمس جرائد لم تقرا :

- ٢٢٣ ٢٠ - خمس جرائد لم تقرا
٢٣١ ٢١ - الجاحظون
٢٤٠ ٢٢ - الفشياء

- ٢٣ - مطارحة غرامية ٢٤٨
- ٢٤ - أزمنة ٢٥٥
- ٢٥ - مائة مليون نخلة في الرأس ٢٥٨
- ٢٦ - حكايات الزوايا ٢٦٩
- ٢٧ - ثقب في الأوراق الخضراء ٢٨١
- ٢٨ - كل الأنهار ٢٨٩
- ٢٩ - كل الرجال .. كل النساء ٢٩٨

● فوستوك يصل الى القمر :

- ٣٠ - فوستوك يصل القمر ٣٢٥
- ٣١ - الوجه الآخر ٣٣٣
- ٣٢ - الرصيد ٣٤٤
- ٣٣ - بلا حكمة ٣٥٢
- ٣٤ - اشجار الدخان .. و « ماتسودا »
- ٣٥٩ - الجنون ٣٥٩
- ٣٥ - المكان والزمان ٣٦٨
- ٣٦ - زفة ٣٧٥

٣٧	-	الفأر الذى لم يمت	٣٨٤
٣٨	-	أشهر رسائل الحب	٣٨٧
٣٩	-	فاتح الكوبرى	٣٩٦
٤٠	-	اللحظة الطويلة	٤٠٧
٤١٧	●	كتب للمؤلف	٤١٧

يشتمل المجلد الأول من الأعمال الكاملة للكاتب محمد طوبيا على أربعين قصة مصرية كتبت خلال الفترة من ١٩٦٠ - ١٩٧٨ م ، وهي فترة حافلة بتطورات اجتماعية وسياسية هائلة وشهدت الاهتمام بحقوق الإنسان في الفضاء.

ولقد انعكست هذه التطورات على قصص الكاتب من خلال نسيج قصصى يحفل بالروح المرحية للفن والفكر وتراثهم الشعبي كما يتميز بتقائمه مع إيقاع الحاضر وتدفعه في تيار يسبح مثل نهر النيل حيث ولد المؤلف على ضفاف مدينة المنيا بمصر.

فرصيا

الطبع الثانية المصرية للكتاب (١٩٨٩)